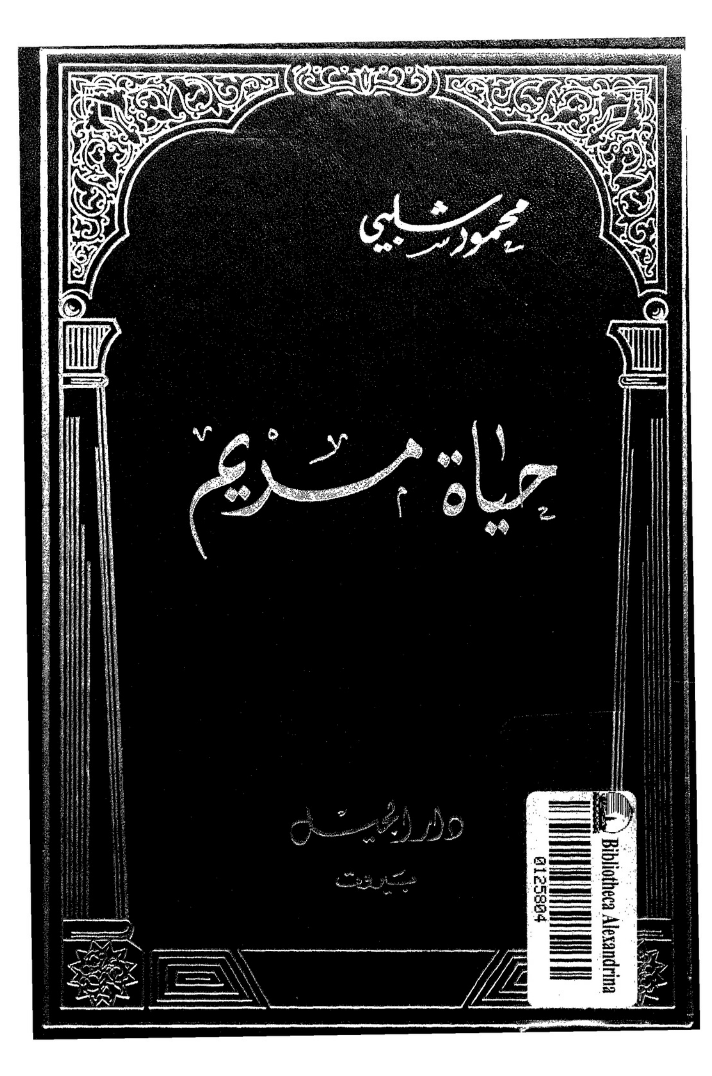

محمود شلبي
حياة مريم
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0125804

حيـــاة مريم

محمود شلبي

حياة مريم

دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعـــة الثالثة
١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م

الاهــداء

اللــهم . . . منــك . . . وإليــك

محمــود شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله ..

والصلاة والسلام، على رسول الله ..

وبعد ..

هذه « حياة مريم » ..

تلكم الخالدة .. التي جعلها الله وإبنها آية للعالمين !

أقدم حياتها .. في ملامحها العليـــا .. كما قدمها .. الله جل ثناؤه .. الى الناس كافة ..

في كتابه الكريم .. الذي أنزله إلى العالمين ..

ذلك الذي اسمه « القرآن الكريم » ..

وإنما تعمدت أن أرسم خطوط الصورة .. من الشخصية المريمية .. مقتبسة من كتاب الله تعالى ..

لأنه أصدق .. وأحكم.. وأعلى .. وأرقى.. وأكمل .. كلام .. يمكن لبشر أن يرجع اليه !.

ومَن أصدق مِن الله حديثاً ؟.

وسوف ترى .. حين تقرأ من هذا الكتاب .. عن مريم ..

حقائق .. ورقائق .. ودقائق .. ليس في طاقة البشر أن يسجلوها ..

ولكن الله الذي أحاط بكل شيء علماً (سجلها عن مريم .. في سرها .. وعلنها .. في كتابه العزيز !..

وها هي .. مريم ..

كما أنزل الله تعالى .. حياتها .. وشخصيتها .. وحقيقتها .. في كتابه العظيم ..

وسوف يجد العالم فيها .. مريم .. أعلى .. وأغلى .. مما تصوروا .. أو يتصورون !..

محمود شلبي

القاهرة في ١٣٨٩ هـ
١٩٦٩ م

هذه ... هي ... مريم ؟!...

سيدة النساء ؟!

« عن أم سلمة .

« أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا فاطمة يوم الفتح .

« فناجاها ، فبكت .

« ثم حدّثها ، فضحكت .

« قالت : فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتُها عن بكائها وضحكها .

« قالت : أخبَرَني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يموت فبكيت .

« ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة .

« إلا مريم ابنت عمران .

« فضحِكتُ » .

[أخرجه الترمذي]

قمة الخالدات ؟!

« عن أنس رضي الله عنه .

« أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« حسبك من نساء العالمين .

« مريم ابنة عمران .

« وخديجة بنت خويلد .

« وفاطمة بنت محمد .

« وآسية امرأة فرعون » .

[أخرجه الترمذي]

خير نساء الأرض ؟!

« عن عليّ .

« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« خير نسائها مريم بنت عمران .

« وخير نسائها خديجة بنت خويلد » .

[أخرجه مسلم]

قمة الكمال ؟!

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« كمل من الرجال كثير .

« ولم تكمل من النساء غير مريم بنت عمران .

« وآسية امرأة فرعون .

« وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

[أخرجه مسلم]

نور لا ظلام فيه ؟!

« عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« كل بني آدم يمسه الشيطان ، يوم ولدته أمه .

« إلا مريم .

« وابنها » .

[أخرجه مسلم]

أرقى الكاملات ؟!

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« كمل من الرجال كثير .

« ولم يكمل من النساء .

« إلا مريم بنت عمران .

« وآسية امرأة فرعون .

« وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

[أخرجه البخاري]

إني ... نذرت ... لك ؟!...

امرأة ما ...

زوجة لذلك الرجل العظيم .. الذي اسمه عمران ..

« حتى هنا .. ولا جديد .. في الأمر .. فكم من زوجة .. وكم من أزواج !

فما هو هذا الشيء الذي رفع مقام تلك المرأة .. زوجة عمران .. الى مقام الخالدين .. عند رب العالمين ؟!

ان الله سبحانه يقص علينا القصص الحق من ذلك الأمر ..

قال جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه :

« ان الله اصطفى آدم، ونوحاً ، وآل ابراهيم ، وآل عمران ، على العالمين.

« ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم .

« إذ قالت امرأت عمران : رب ، اني نذرت لك ، ما في بطني ، محرّراً ، فتقبل مني ، انك أنت السميع العليم » .

[آل عمران ٣٣ : ٣٥]

ان الله ... اصطفى ؟!

عن ابن عباس : أن اليهود قالوا : نحن أبناء ابراهيم وإسحاق ويعقوب ، ونحن على دينهم .. فنزلت .

« ان الله اصطفى آدم » اختار آدم .. والاصطفاء : الاختيار .

وأصله أخذ صفوة الشيء .

ويبدأ بآدم .. لأنه أول النوع .

« ونوحاً » واختار نوحاً .. وثنى بنوح لأنه آدم الأصغر ، والأب الثاني .

وليس أحد على وجه البسيطة إلا من نسله .

لقوله سبحانه (وجعلنا ذريته هم الباقين) .

« وآل ابراهيم » واختار آل ابراهيم .

قيل : اسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط .

والمراد بـ « الأسباط » ذلك العدد الوفير من أنبياء بني اسرائيل .. الذين اختارهم الله تعالى .. وآتاهم النبوة من بعد يعقوب .. إلى بعثة المسيح عليه السلام ..

« وآل عمران » واختار آل عمران .

والمراد بهم : عيسى وأمه ، مريم بنت عمران ..

« على العالمين » على أهل زمان كل واحد منهم .

أي : اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه .. ويدخل الملائكة في ذلك .. ومن هنا استدل بعضهم بالآية على أفضلية الأنبياء على الملائكة .

« ذرية » نسلاً .

« بعضها من بعض » في النية ، والعمل ، والاخلاص ، والتوحيد .

« أي : سلالة منتقاة في الصفات العليا .

« والله سميع » لأقوال العباد .

« عليم » بأفعالهم ، وما تكنه صدورهم .

فيصطفي من يشاء منهم .

ووجه الاصطفاء في جميع الرسل أنه سبحانه خصهم بالنفوس القدسية ، وما يليق بها من الملكات الروحية ، والكمالات الجسمانية .

حتى انهم امتازوا – كما قيل – على سائر الخلق ، خَلقاً وخُلقاً .

وجعلوا خزائن أسرار الله تعالى ، ومظهر أسمائه ، وصفاته ..

ومحل تجليه الخاص من عباده ..

ومهبط وحيه ، ومبلغ أمره ونهيه ..

« وأما اصطفاء ابراهيم – عليه السلام .. فمفهوم بطريق الأولى ..

وعدم التصريح به للايذان بالغنى عنه .

لكمال شهرة أمره بالخُلة ، وكونه شيخ الأنبياء ، وقدوة المرسلين .

وأما اصطفاء نبينا صلى الله عليه وسلم فيفهم من دخوله في آل ابراهيم .

ماذا في آدم ؟!

والآن .. ما هذا .. وماذا في هذا ؟!

فيه أمر خطير .. خطير .. جد خطير ..

إن الله يعلن الى العالمين .. إلى كل الجنس البشري ..

ثم إلى كل ما خلق من غير الجنس البشري ..

ماذا يعلن رب العالمين .. إلى العالمين ؟!

يعلن أنه اصطفى .. ان الله اصطفى ..

اصطفى ماذا ؟!

اصطفى آدم !

لماذا .. وماذا في آدم .. يميزه عن جنسه كله حتى يصطفيه ؟

فيه ما فيه ..

فيه أنه النسمة الأولى من البشر .. ووضع الله فيه كل ما شاء من صفات عليا في هذا الجنس كله ..

فاختاره من أجل هذا ..

وتجلى عليه بما شاء من صفاته .

ونفخ فيه من روحه ..

هنالك صدر الأمر .. « اسجدوا لآدم » ..

أمر الى كل الملائكة .. أن يسجدوا لآدم !.

لـــــماذا ؟ ! .

لأنه قمة الجنس كله !

ثم ماذا ؟..

ثم كانت الحياة ..

وتدهورت البشرية ..

وشاع فيها الانحطاط وذاع ..

فجاء دور الاختيار الثاني .. الاصطفاء التالي ..

ونوحـــــاً ؟!

استخلص الله من بين البشر جميعاً .. إنساناً ممتازاً .. اصطفى نوحاً .

لماذا ؟.. لأنه سوف يهلك البشر جميعاً ..

سوف يهلك الجنس كله ..

ويحمل هذا الإنسان الواحد .. بداية بشرية جديدة ..

وقد كان .. (وجعلنا ذريته هم الباقين) .. ثم أغرقنا الآخرين ..

إهلاك تام لكل الناس .. ما عدا نوح .. والقلة المؤمنين .. ومنهم سام ، وحام ، ويافث .. أولاد نوح ..

ومن هؤلاء بدأت بشرية أخرى .

لمـــاذا هذا ؟

أمر غاية في الحكمة والاحكام ..

لقد أذهب الله الجنس الخبيث كله .. ليبدأ بشرية أصلها طيب .. مؤمن .. تجربة عظيمة جداً ..

ألف سنة يدعو نوح هذه البشرية إلى الله ..

فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً !.

ألف سنة ؟!.

هنالك كان قراره .. رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا !.

فكان الأمر الالهي : ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر .. وفجّرنا الأرض عيونا .. فالتقى الماء على أمر قد ُقدّر ..

ثم ماذا ؟

وغِيض الماء .. وقُضي الأمر ..

وقلنا : يا نوح اهبط ببركات منا عليك ، وعلى أمم ممن معك ..

هكذا .. تمت ابادة ملايين من البشر ..

ليخلو وجه الأرض لنوح وحده ..
لتلك الشجرة الطيبة وحدها ..
ومن هذه الشجرة الواحدة .. كانت البشرية كلها مرة أخرى !.
تماماً .. كعملية تنظيف الحقل من الحشائش الضـــارة .. ليخلو الحقل للشجرة النافعة !.

تجربة ابراهيم الكبرى ؟!

ثم ماذا ؟!
ثم العجب العجاب !.
ثم عادت البشرية إلى الفساد .. وكفرت ربها .. وأظللت ظلاماً بعيداً !.
فجاء الدور الثالث .. فكان ابراهيم .. (وآل ابراهيم .. على العالمين) ..
اصطفاء إنسان ممتاز .. وصنعه الله على عينه .. فكان ابراهيم ..
وانبعث ابراهيم يعلن الدور الجديد ..
ويدعو البشرية إلى ربها ..
ولكن البشرية هذه المرة أيضاً .. كانت شديدة الظلمة كسابقتها !.
ولقد مكث ابراهيم قرابة قرنين يدعوهم .. فما آمن به إلا القليل ..
إذاً لا بد من أسلوب جديد في تعريف البشرية ربها ..
وإلا لاستمرت إبادة الأجيال تباعاً ..
وهنا يأتي الدور الجديد .. الذي حددته الآية تحديداً معجزاً جداً جداً ..
بقولها « وآل ابراهيم » !

لماذا لم يقل كما قال في آدم ونوح « وإبراهيم » .. وإنمـــا زاد هنا لفظة « آل » .. لماذا ؟.

هنا يتشمشم علينا شيء من اعجاز هذا الكتاب .. كتاب الله ..

زاد الـ « آل » .. لأن هذه المرحلة مرحلة جديدة ..

مرحلة سوف يقوم بها ابراهيم والأنبياء الذين سيكونون من نسله ..

ليس ابراهيم وحده هو صاحب هذا الدور .. ولكن هو ومعه .. ومن بعده .. على مر أجيال كثيرة .. أنبياء كثيرون .. من ذريته ..

آل ابراهيم ؟!.

انه .. كتاب الله !.

لا يأتيه الباطل .. من بين يديه ولا من خلفه !.

وهذا ما كان .. وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب .. وجعلها كلمة باقية في عقبه ..

كان هذا الدور دوراً عريضاً .. بدأ بإبراهيم .. ثم أتمه أنبياء من ذريته من بعده ..

لم ينفرد ابراهيم هنا بالأمر وحده ..

ولكن توزع الأمر عليه وعلى آله ..

على الأنبياء من ذريته .

أرأيت ؟ ! .

اعجاز .. اعجاز .. اللهم ان كتابك حق !.

وآل ابراهيم ؟!

اصطفى ابراهيم .. ثم اصطفى من ذريته كثيرين ..

هم أولئك الذين تسلسلوا تباعاً في بني اسرائيل ..

وكان آخرهم .. وخاتمهم .. من فرع اسماعيل .. محمد صلى الله عليه وسلم ..

الإعجاز المكنون في قوله : « وآل عمران » !

ثم ماذا ؟

ثم أعجب ، وأعجب ، وأعجب !.

ثم عاد يقول « **وآل عمران** » ..

وهنا يقول قائل : لماذا نص على آل عمران ؟.

وهل هم إلا بعض ذرية ابراهيم .. وآل ابراهيم ؟.

والجواب : أي : واصطفى أنثى من آل عمران ..

اصطفى أنثى من البشرية .. كما اصطفى رجالاً ..

وهذا هو الجديد في الأمر ..

ان الناس يظنون دائماً أن الاصطفاء يكون من الرجال وحدهم ، من دون النساء ..

فنص الله على أنه يصطفي كذلك من النساء ..

فنص هنا على « **آل عمران** » .. اعلانا أنه سبحانه يصطفي كذلك من النساء .. وليس الأمر قاصراً على الرجال وحدهم ..

ثم ماذا ؟.

ثم أين دليل هذا الاتجاه من كتاب الله ؟.

هاكه .. دليلا .. لا يباري ، ولا يجاري ..

قال جل ثناؤه « .. يا مريم ان الله اصطفاك ، وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين » ..

[آل عمران ٤٢]

ان الله إزن اصطفاها .. اختارها ..

كما يختار من الرجال ..

انها أنثى .. ولكنه اصطفاها !.

هذا هو الجديد في القضية .. من أجل ذلك نص على « آل عمران » ..

ولكن لماذا قال هنا « آل عمران » ولم يقل « عمران » ؟

لأن الأمر سوف يتوزع على مريم .. ثم على ابنها المسيح – عليه السلام –

ليست وحدها .. وإنما هناك من سوف يحمل الأعباء من بعدها ..

هناك المسيح .. عليه السلام !.

فتأمل مكنونات الإعجاز !.

والآن .. نعود إلى تلك التي اسمها .. امرأة عمران ..

إني .. نذرت .. لك ؟!.

يقرأ القارئون قوله تعالى « إذ قالت امرأت عمران : رب ، اني نذرت لك ما في بطني ، مُحرَّراً ، فتقبل مني ، انك أنت السميع العليم » ..

يتلونها .. ويمرون عليها .. ولا يلتفتون إلى ما فيهـــا من أمواج النور المكنون ..

وصدق الله تعالى : « وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

[يوسف ١٠٥]

وهذه احداهن .. التي لو التفت الناس إلى عجائب مكنوناتها .. لخرّوا الى الأذقان يبكون !.

استمع : « **إذ قالت امرأت عمران** » ..

الجمال المكنون فيها .. هو عدم الإشارة الى اسمها ..

وإنما هي « امرأت عمران » ..

« كما يقول الناس اليوم : « مَدام فلان » .. اشارة الى زوجته ..

أو : « حَرم فلان » ..

اشارة الى أن المهم عند الله هو حقيقة الإنسان لا اسمه أو ظاهره ..

انها زوجة عمران .. يكفي هذا ..

ان المراد هو اظهار حقائق النور الكامنة في قلبها ..

فلا يهم بعد ذلك اسمها .. أو وضعها الاجتماعي !.

أمواج النور ... تتشعشع من فؤادها ؟!

ما هو هذا الشيء الذي سجله الله تعالى من امرأة عمران هذه ؟!

لقد سجل منها قولاً .. كان عنده تعالى مرضيا !.

استمع : « **رب .. اني .. نذرت .. لك** » ..

رب ؟!.

يا رب ؟!.

امرأة تتوجه الى ربها ..

قلب تتصاعد منه أمواج النور .. الى خالقها ..

امرأة حامل .. تحس بأعراض الحمل .. يسري .. وتجري .. في جوفها ..

فالتجأت اليه !.

ونادته نداء المخلصين : اني نذرت لك ..

نذرت تقديم ما في بطني .. خالصاً لك !.

فيها جمال شمشماني عجيب !.

اني نذرت لك !.

لك أنت وحدك ..

خالصاً لك .. متخصصاً لعبادتك .. منقطعاً لخدمة بيتك !.

ما في بطني ؟!

وهذه الأخرى .. أعجوبة كبرى !.

تكاد أمواج نورها .. تملأ السماوات والأرض نوراً !.

ما في بطني ؟!.

لست أدري ، أي شيء سوف يكون هذا الذي يتخلق بقدرتك في بطني ؟

لقد كانت تلك المرأة ساعة دعائها ذاك .. قلباً منكسراً لجلاله تعالى ..

يموج بأمواج التضرع ، والتذلل ، والتفريد ، والتفريد ، والتوحيد ..

وتلك مذاقات عُلى .. لا يعلمها إلا أهلها ..

أما سائر الناس .. فأولئك عنها مبعدون !.

محرراً ؟!

وهذه معجزة أخرى .. من عجائب الإعجاز !.

مُحرَّراً ؟!.

محرراً من ماذا ؟.

مما سواك !.

هو عبد خالص لك .. خالص لخدمتك ..

أي : خالصاً لخدمة بيتك ..

منقطعاً لخدمة بيت المقدس ..

هذا ظاهر اللفظ .. ولكن مكنون باطنه .. عميق .. عميق .. عميق ..

بحر محيط .. يتلالى .. ويتعالى .. فوق المدارك والعقول !.

استمع : محرّراً ؟!

كلمة .. يا لها من كلمة !.

محرراً .. من رق .. ما سواك !

أي : هو قلب .. يتجه اليك دائماً .. ولا يلتفت إلى شيء سواك ..

وهذا هو التوحيد في مراتبه العليا ..

هذه هي نفس اشعاعات قوله سبحانه : « **وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره** » ..

[البقرة ١٤٤]

محرراً .. من عبودية .. أي شيء .. غير الله تعالى ..

فهو عبد .. لله .. وحده ..

وليس عبداً .. لشيء سواه ..

ومن كان كذلك .. فهو في المقام الأعلى .. عند ربه !.

ان امرأة عمران تحدد ملامح شخصية الطفل الذي في بطنها ..

حين نادت ربها « مُحرراً » ..

انها تسأل ربها أن يكون كذلك ..

فتقبّل ... منّي ؟!

فيها حلاوة .. عجيبة !.

كأني بها .. وهي تموج من قلبها .. صاعدة الى ربها : فتقبل مني ؟!

تأمل الانكسار .. في قولها « مِنّي » ؟!

فيها انكسار القلوب المنكسرة .. لجلال بارئها ..

وكلما كان القلب منكسراً لربه ، كلما كان أقرب اليه تعالى ..

ان الذين أوتوا أسباب الدنيا ، وركنوا اليها .. يحجبون عن ربهم ..

لأنه تعالى عزيز .. لا يأذن في دخول ساحـــة قدسه .. إلا لمن جاءه بذل العبودية .. وانكسار .. الافتقار .. والاضطرار ..

وها هي امرأة .. تُقدم اليه تعالى ما في بطنها ..

أيّاً ما كان ..

تقدمه خالصاً له سبحانه ..

وترجوه تعالى .. أن يتفضل .. ويتقبل ..

فهل تقبّل منها ؟!.

فتقبّلهـــا ؟!

ما أسعد امرأت عمران ؟.

ما أسعدها !.

وأي سعادة أعظم .. من أن يقدم الإنسان إلى ربه قربة خالصة لوجهه .. فيتقبلها سبحانه منه ؟!.

قطعـــاً .. كانت تلك المرأة على أعلى ما يمكن لامرأة أن ترقى اليه من اخلاص لله تعالى ..

وهي تنادي ربها نداءها ذاك !.

استمع الى ختام دعائها .. تلمس فيه أمواج الاخلاص تتلاحق تباعاً ..

« انك أنت السميع العليم » .. انك أنت وحـــدك .. لا أحد سواك ..

« السميع » الذي يسمع جميع الأصوات .. سرها وعلنها ..

انك أنت وحده .. الذي يستجيب دعاء المخلصين ..

دعاء القلوب التي تريدك أنت .. ولا تريد شيئاً سواك ..

« العليم » لأنك أحطت علـــماً بكل شيء .. فلا يخفى عليك من شيء في الأرض ولا في السماء !.

أنت وحدك تعلم حقيقة ما في قلبي ..

أنت تعلم أني أريد وجهك ..

فماذا كان العطاء ؟.

كان شيئاً عظـــيماً .. وخالداً .. وآية كبرى .. زلزلت العقول .. وما زالت تزلزلها ..

كان .. مريم ..

وكان من مريم .. عيسى ..

والأولى آية كبرى .. والثاني آية عظمى ..

الأولى معجزة إلهية عجيبة !.

والثاني معجزة أعجب !.

وسجل الله تعـــالى .. في كتابه الكريم .. أنه تقبل دعاء .. تلك المرأة الكريمة ..

حين قال : **فتقبلها ربها بقبول حسن ، وانبتها نباتا حسنا ، ..**

[آل عمران ٣٧]

فانظر كيف يكون دعاء المخلصين ؟

ثم انظر كيف يستجيب الله دعاءهم ؟

ليعلم الناس جميعاً .. أن الأمر ليس فوضى ..

وأن السماء ليست ألعوبة لكل من رفع يديه اليها .. وتمتم بكلمات لديها !.

وإنما لا بد من الصدق في الحال ، والمقال ..

لا بد أن يكون حالك .. أن يكون واقعك يصدق مقالك ..

وأن يكون دعاؤك تعبيراً صادقاً عن واقعك ..

وإنما نفهم ذلك الأدب من آداب الدعاء ..

من ذلك المثال الرائع .. « **امرأت عمران** » ..

امرأة حامل ..

توجهت في صدق تام الى ربها .. أن تنذر ما في بطنها له خالصاً ..

وكانت المرأة تموج بأمواج أنوار الصدق .. وهي تضرع الى ربها ..

انها لا تطلب حطام الدنيا .. وإنما تقدم فلذة كبدها .. لينقطع لخدمة ربها ..

هذا هو الحال الصادق مع الله ..

فكان دعاؤها .. ترجمة صادقة .. لحقيقة أحاسيسها ..

هنالك سمع الله لها .. واستجاب لها ..

ونالت الشرف الأعظم : « **فتقبلها ربها بقبول حسن** » ..

فليعلم الذين لا يعلمون .. وليتأدب الذين يجهلون !.

إني ... وضعتها ... أنثى ؟!...

إذا تأملت قول امرأة عمران .. « محررا » .. لاح لك من بعيد .. حقيقة أمنيتها .. أن يكون المولود ذكراً ..

إنها تتمنى أن تضع ذكراً .. وأن تهبه لخدمة بيت الله ..

لقد كانت زوجة عمران .. تتمنى .

ولكن الله تعالى كان يريد أمراً .. غير ما تمنت ..

يقول جل ثناؤه :

« فلما وضعتها ، قالت :

« رب اني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم ، وإني أعيذها بك ، وذريتها ، من الشيطان الرجيم » .

[آل عمران ٣٦]

هذا هو النص المقدس ..

ولا يتصور شيئاً أصدق ، ولا أدق ، ولا أحق بالتسليم .. من آيات القرآن الكريم ..

أني وضعتها انثى ؟!

« فلما وضعتها » فلما وضعت بنتاً ..

تحسرت إلى مولاها .. وتفجعت إذ خاب منها رجاها ..

« قالت » قالت أمُ مريم ..

وليس الغرض من هذا الكلام الإخبار .. بل لمجرد التحسّر والتحزن ..

« رب ، اني وضعتها أنثى » والتأكيد هنا .. مبالغة في التحسر الذي قصدته .. ورمز الى أنه صادر عن قلب كسير .. وفؤاد بقيود الحرمان أسير ..

والذي يثير الدهشة .. هنا .. أن هذا الذي ناجت به أم مريم ربها .. حين قالت « رب اني وضعتها أنثى » ..

أمر لا يعلمه إلا الله تعالى ..

لقد تفجعت الوالدة .. وتحزنت .. وتأوهت ..

وفي تأوهها .. تموجت هذه الموجة النورانية .. إلى ربهـــا « اني وضعتها أنثى » ..

وقد يكون قولها ذاك .. نداءً خفياً .. لم يسمعه أحد إلا الله ..

ومع ذلك .. يسجل كتاب الله تعالى .. ذلك النداء الخفي !.

وذلك شيء لا يتيسر .. إلا لله تعالى .. الذي يعلم السر وأخفى !.

والله أعلم بما وضعت ؟!

أمواج الجمال الشعشعاني .. تموج من ثناياها موجاً بعيداً ..

« والله » الذي يعلم ما كان وما سيكون .. ويعلم مكنونات الأشياء ..

الله وحده .. لا شيء سواه .. « أعلم » والله أعلم بالشيء .. الذي وضعته وما علق به من عظائم الأمور .. ودقائق الأسرار .. وواضح الآيات ..

وهي غافلة عن ذلك كله !.

« بما » و (ما) على هذا عبارة عن الموضوعة ..

والإتيان بها دون (مَن) يلائم التجهيل .. فإنها كثيراً ما يؤتى بها .. لما يجهل به ..

« وضَعَت » وقرأ ابن عباس : (بما وضَعتِ) على خطاب الله تعالى لها .. والمراد به تعظيم شأن الموضوع أيضاً ..

أي : انك لا تعلمين قدر ما وضعته ، وما أودع الله تعالى فيه !.

وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر ، عن عاصم ، ويعقوب :

(بما وَضَعْتُ) على أنه من كلامها .. قالته اعتذاراً إلى الله تعالى ..

حيث وضعت مولوداً لا يصلح للغرض ..

أو : تسلية لنفسها .

أي : ولعل لله تعالى في ذلك سراً وحكمة !.

ولعل هذه الأنثى خير من الذكر .

فالجملة حينئذ لنفي العلم ، لا للتجهيل ، لأن العبد ينظر الى ظاهر الحال ، ولا يقف على ما في خلاله من الأسرار .

والله أعلم بما وضَعَت ؟!.

نعم .. هو وحده الذي يعلم .. أسرار ذلك الكائن الجديد .. الذي وضعته امرأة عمران ..

ان ظاهرها أنها مولودة ..

انها واحدة من أولئك الملايين .. الذين يولدون كل يوم وليلة ..

ولقد كان مولدها مفاجأة لوالدتها .. هزت أعصابها هزاً عنيفاً .. ودفعتها أن تتحزن .. وتتوجع إلى ربها : **اني وضعتها أنثى** ..

انها تجهل تماماً حقائق .. هذه الأنثى ..

أما المكنون في ثناياها ..

أما المقادير التي سوف تجري .. وتسري .. في حياتها ..

أما ما أعده الله تعالى لها .. أن تكون احدى آياته الكبرى ..

فذلك كله لم يكن يخطر ببال أمها ..

ان شيئاً واحداً يسيطر على تفكيرها .. انها وضعت أنثى ..

ولا تدري هل تصلح هذه الأنثى .. لتقدمها إلى ربها .. لتخدم بيته .. وتنقطع لعبادته .. أم لا تصلح ؟.

وتبدو حيرتها هذه في قولها ؟.

وليس الذكر كالأنثى ؟!

استمرار للتفجع والتحزن .. من أم مريم ..

والمراد : أن هذا الجنس ليس كهذا الجنس .

وتحزنها .. لترجيحها الذكر على الأنثى ..

انها في حيرة .. هل تصلح هذه .. مكان الذكر الذي نذرته لربها ؟.

ان الذكر شيء .. والأنثى شيء آخر ..

فهل يتقبل منها ربها ما وهب لها ؟.

وإني سميتها مريم ؟!

« وإني سميتها » والغرض من عرض التسمية على علّام الغيوب ..

إظهار أنها غير راجعة عن نيتها .. وإن كان ما وضعته أنثى ..

وأنها وإن لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس .. فلتكن من العابدات فيه .

واستقلالها بالتسمية لكون أبيها قد مات ، وأمها حامل بها ..

فتقديم المسند اليه للتخصيص ، يعني : التسمية مني ، لا يشاركني فيها أبوها.

وفي ذلك تعريض بيُتمها .. استعطافاً له تعالى .. وجعلاً ليتمها شفيعاً لها .

« مريم » قالوا : (مريم) في لغتهم بمعنى العابدة ..

وقال بعض : أنها معربة مارية ، بمعنى : جارية .. ويقرب أن يكون القول المعول عليه ..

واستدل بالآية على جواز تسمية الأطفال يوم الولادة .. لأن الظاهر أنها انما قالت ذلك بإثر الوضع ..

وإني أعيذها بك ؟!

« وإني » عطف على (إني سميتها) .

« أعيذها » أتى هنا بخبر إنّ فعلاً مضارعاً .. دلالة على طلبها استمرار الاستعاذة دون انقطاعها ..

وهذا بخلاف (وضعتها ، وسميتها) .. حيث أتى بالخبرين ماضيين لانقطاعهما . .

وقدم المعاذ به على المعطوف الآتي اهتماماً به ..

ومعنى (أعيذها بك) أمنعها ، وأجيرها بحفظك ..

وأصل العوذ : الالتجاء إلى الغير ، والتعلق به .

يقال : عاذ فلان بفلان ، إذا استجار به ..

ومنه أخذت العوذة ، وهي التميمة والرقية .

« بك » بل أنت وحدك ..

وذريتهـــا ؟!

أي : وإني أعيذ ذريتها بك ..

وفي التنصيص على اعاذتها ، وإعاذة ذريتها ، رمزاً الى طلب بقائها حية ، حتى تكبر ..

وطلب للتناسل منها ..

ان أم مريم .. تريد لابنتها امتداد الحياة ..

وتريد لها امتداد النسل ..

وتطلب فوق هذا وذاك .. أن يحفظها الله ، ونسلها ، من ؟.

من الشيطان الرجيم ؟!

« من الشيطان الرجيم » المطرود من رحمته تعالى .. المبعد ..

وإذا أريد بالإعاذة الحفظ من اغوائه الموقع في الخطايا ، إنما يكون بعد البلوغ إذ لا تكليف قبله ..

وأما اذا أريد منها الحفظ منه مطلقاً فيفهم طلب الأمرين من الأمر الأخير.

ويؤيد هذا ما أخرجه الشيخان ، من حديث أبي هريرة — رضي الله تعالى عنه — قال :

« قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

« ما من مولود يولد .

« إلا والشيطان يمسه ، حين يولد .

« فيستهل صارخا .

« من مس الشيطان اياه .

« إلا مريم .

« وإبنها » .

« ثم يقول ابو هريرة : واقرؤا ان شئتم : وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

وفي إحدى روايات البخاري :

« قال أبو هريرة – رضي الله عنه –

« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ما من بني آدم مولود .

« إلا يمسه الشيطان حين يولد .

فيستهل صارخا ، من مس الشيطان .

« غير مريم .

« وإبنها » .

« ثم يقول ابو هريرة : وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

وفي رواية اسحاق بن بشر ، عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – قال :

« قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

« كل ولد آدم ، ينال منه الشيطان ، يطعنه حين يقع بالأرض ، باصبعه .

« ولهذا يستهل »

« إلا ما كان من مريم وابنها »

« فانه لم يصل ابليس اليهما » .

قالوا : واختصاص عيسى وأمه بهذه الفضيلة ، دون الأنبياء عليهم السلام .

« لا يلزم منه تفضيله عليهم ، عليهم السلام .

« إذ قد يوجد في الفاضل ما لا يوجد في الأفضل » .

أم مريم ... تواصل توجهاتها ؟!

هذه هي الآية المقدسة التي سجلت تحسرات أم مريم .. وتذللها .. بين يدي ربها ..

وتوجهها في اخلاص تام .. تناديه .. وترجوه ..

التوجه الأول .. « رب » يا رب .. هذا هو معنى « رب » ..

وحين تصدر « يا رب » من مثل تلك المرأة .. انما معناها أن هناك نوراً عظيماً يتصاعد من قلب عظيم ..

فليس كل من قال « رب » سواء ..

هو وحده الذي يعلم حقيقة توجه كل قلب من القلوب ..

التوجه الثاني .. « اني وضعتها أنثى » ..

وتعني : اني وضعتها .. كائناً .. ضعيفاً ..

فهل تتقبلها يا رب مني ؟.

أمواج الانكسار لله .. تتلالى .. وتتعالى .. فيها !.

التوجه الثالث .. « والله أعلم بما وضعتْ » على قراءة من قرأ كذلك ..
والمكنون فيها : أنت سبحانك وحدك أعلم بحكمة خلقها أنثى ..
أمواج التفويض لعلّام الغيوب .. تموج فيها موجاً ..
التوجه الرابع .. « وليس الذكر كالأنثى » ..
أي : قد يكون في الأنثى من الخير المكنون ما ليس في الذكر ..
الله أعلم بمكنونات الخلْق .
فيها جمال التسليم .. وإظهار كمال العبودية ..
التوجه الخامس .. « وإني سميتها مريم » ..
وإني .. وحدي .. وقد مات أبوها قبل ولادتها ..
سميتها مريم .. ماري ..
فيها أمل عريض .. في الله سبحانه .. أن يجيبها عابدة له سبحانه ..
وهذا مكنون فيه أن آمال القلوب الصادقة مع الله .. يحولها الله تعالى الى حقائق واقعة في عالم الشهود والشهادة ..
التوجه السادس .. « وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » ..
فيها مسك ختام توجهاتها الشريفة ..
اني أسألك أن تحفظ مريم من الشيطان الرجيم ...
ألا تجعل له عليها سلطاناً .. أو تأثيراً ..
وأن تحفظ ذريتها كذلك منه .. فلا تجعل للشيطان عليه سبيلاً أو سلطاناً.
ولقد أكرم الله امرأة عمران .. واستجاب لدعائها ذاك ..
وجاءت الأحاديث الصحاح عن آخر نبي .. تؤكد استجابة ذلك الدعاء ..
فسبحان .. الذي أعطاها.. ما أعطى !.

أيهم ... يكفل ... مريم ؟!...

الأقصوصة كما يرويها الاقدمون ؟!

يقول ابن الأثير :

« كان عمران ابن ماثان ، من ولد سليمان بن داوود .

« وكان آل ماثان رؤوس بني اسرائيل وأحبارهم .

« وكان متزوجاً بحنة بنت فاقوذ .

« وكان زكريا بن برخيا متزوجاً بأختها إيشاع .

« وكانت حنة قد كبرت وعجزت فلم تلد ولداً .

« فبينما هي في ظل شجرة أبصرت طائراً يزق فرخاً له .

« فاشتهت الولد .

« فدعت الله أن يهب لها ولداً .

« ونذرت ان يرزقها ولداً ، أن تجعله من سدنة بيت المقدس وخدمته .

« فحررت ما في بطنها ، ولم تعلم ما هو .

« وكان النذر المحرر عندهم ، أن يجعل للكنيسة ، يقوم بخدمتها ، ولا يبرح منها ، حتى يبلغ الحلم .

« فإذا بلغ ، خيّر ، فإن أحب أن يقيم فيها أقام ، وإن أحب أن يذهب ذهب حيث شاء .

« ثم هلك عمران ، وحنة حامل بمريم .

« فلما وضعتها إذ هي أنثى .

« فقالت عند ذلك : (رب اني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى) في خدمة الكنيسة ، والعبّاد الذين فيها .

« (وإني سميتها مريم) وهي بلغتهم العابدة .

« ثم لفتها في خرقة ، وحملتها الى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار ، أبناء هارون .

« وهم يلون من بيت المقدس ما يلي بنو شيبة من الكعبة .

« فقالت : دونكم هذه المنذورة .

« فتنافسوا فيها ، لأنها بنت إمامهم ، وصاحب قربانهم .

« فقال زكريا : أنا أحق بها لأن خالتها عندي .

« فقالوا : لكننا نقترع عليها .

« فألقوا أقلامهم في نهر جار – قيل – هو نهر الأردن .

« فألقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة .

« فارتفع قلم زكريا فوق الماء ، ورسبت أقلامهم .

« فأخذها .

« وكفلها ، وضمها الى خالتها أم يحيى .

« واسترضع لها حتى كبرت .

« فبنى لها غرفة في المسجد ، لا يرقى اليها إلا بسلم .

« ولا يصعد اليها غيره » .

* * *

هذا شيء مما رواه ابن الأثير في بدايات قصة مريم ..

أوردناه ليفتح العقول .. لآفاق الآيات الكريمات .. اذا تلألأت .
فماذا قال الله تعالى عن هذا الأمر ؟

وكفلها زكريا ؟!

قال جل ثناؤه :

« **فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا ، وكفلها زكريا** » ..

[آل عمران ٣٧]

« فتقبلها » أي : رضي بمريم في النذر مكان الذكر .

ففيه تشبيه النذر بالهدية ، ورضوان الله تعالى بالقبول .

« ربها » أي : رب مريم المبلغ لها الى كمالها اللائق بها .

أو : رب امرأة عمران ، بدليل أنها التي خاطبت ونادت بقولها (رب اني وضعتها) الخ .. والأول أولى .

« بقبول حسن » أي : تقبلها بوجه حسن تقبل به النذائر ، وهو اختصاصه سبحانه اياها بإقامتها مقام الذكر في النذر ، ولم يقبل قبلها أنثى .

أو : تسلمها من أمها عقب الولادة ، قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة والخدمة .

أو : استقبلها ربها وتلقاها من أول وهلة من ولادتها بقبول حسن ، وأظهر الكرامة فيها حينئذ .

أو : تقبل نذرها .. مع قبول حسن لدعاء أمها في حقها ، وحق ذريتها ، حيث أعاذهما من الشيطان الرجيم من أول الولادة إلى خاتمة الحياة .

« وأنبتها نباتاً حسناً » ورباها الرب تربية حسنة ، في عبادة وطاعة لربها .

أو : سوّى خلقها ، فكانت تشب في يوم ما يشب غيرها في عام !

أو : تعهدها بما يصلحها في سائر أحوالها .

« وكفلها زكريا » وضمها الله تعالى اليه ، وجعله كافلاً لها ، وضامناً لمصالحها .

وكل ذلك من آثار قدرته تعالى ، ولم يكن هناك وحي اليه بذلك .

ثم ماذا قال سبحانه .. في ذلك السياق ؟

وما كنت لديهم ؟!

قال عز من قائل :

« ذلك من أنباء الغيب ، نوحيه اليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ، أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

[آل عمران ٤٤]

« ذلك » اشارة الى ما تقدم ذكره ، من تلك الأخبار البديعة الشأن ، المرتقبة من الغرابة إلى أعلى مكان .

« من » بعض .

« أنباء الغيب » من أخبار ما غاب عنك ، وعن قومك ، مما لا يعرف إلا بالوحي .

« نوحيه اليك » الايحاء : إلقاء المعنى الى الغير على وجه خفي .

ويكون بمعنى : إرسال الملَك الى الأنبياء .

وبمعنى : الإلهام .

وصيغة الاستقبال (نوحيه) للايذان بأن الوحي لم ينقطع بعد .

« وما كنت لديهم » أي : عند المتنازعين .

والمقصود من هذه الجملة ، تحقيق كون الإخبار بما ذكر عن وحي ، على سبيل التهكم بمنكريه .

كأنه قيل : ان رسولنا أخبركم بما لا سبيل إلى معرفته بالعقل ، مع اعترافكم بأنه لم يسمعه ، ولم يقرأه في كتاب ..

وتنكرون أنه وحي ، فلم يبق مع هذا ما يحتاج إلى النفي سوى المشاهدة ، التي هي أظهر الأمور انتفاء لاستحالتها المعلومة عند جميع العقلاء .

وروى عن قتادة أن المقصود من هذه الجملة تعجيب الله سبحانه نبيه عليه الصلاة والسلام ، من شدة حرص القوم على كفالة مريم ، والقيام بأمرها !

وسيق ذلك تأكيداً لاصطفائها عليها السلام !

« إذ يلقون أقلامهم » أي : يرمونها ، ويطرحونها للاقتراع .

والأقلام : جمع قلم .

وهي التي كانوا يكتبون بها التوراة ، واختاروها تبركاً بها .

« أيهم يكفل مريم » ينظرون : أيهم يكفل مريم ؟

أو : ليعلموا : أيهم يكفل مريم ؟

أو : ليقولوا ، أو : يقولون : أيهم يكفل مريم ؟

« وما كنت لديهم » تكرير (ما كنت لديهم) مع تحقيق المقصود بعطف (إذ يختصمون) علي (إذ يلقون) للإيذان بأن كل واحد من عدم الحضور عند الالقاء ، وعدم الحضور عند الاختصام ، مستقل بالشهادة على نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم .

لأن تغيير الترتيب في الذكر مؤكد لذلك .

« إذ يختصمون » في شأنها ، تنافساً على كفالتها .

وكان هذا الاختصام ، بعد الاقتراع في رأي ، وقبله في آخر ..

أما وقت هذا الاقتراع .. فالمشهور أنه كان حين ولادتها ، وحمل أمها لها الى الكنيسة .

وفي هذه الآية دلالة على أن القرعة لها دخل في تمييز الحقوق .

وروى عن الصادق : ما تقارع قوم ، ففوضوا أمرهم الى الله عز وجل ، إلا خرج سهم المحق ..

وقال الباقر : أول من سُوهم عليه مريم بنت عمران .

« ثم تلا (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم) .

وقيل : (ذلك) اشارة الى ما سبق من نبأ زكريا ، ويحيى ، ومريم ، وعيسى .. يعني : ان ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي .

« (نوحيه اليك) أي : نقصه عليك .

« (وما كنت لديهم) أي : وما كنت يا محمد عندهم .

« (إذ يلقون أقلامهم) أي : حين يلقون ، أي : يطرحون أقلامهم .

« (إذ يختصمون) في شأنها تنافساً في التكفل بها لرغبتهم في الأجر » .

وقالوا : يقال : يكتال : يضم .

« كفلها : ضمَّها .

« وكفلها زكريا : يعني ضم مريم الى نفسه ، وما ذاك إلا انها كانت يتيمة » .

اشارات في الآيات ؟!

ومن بدائع ما قالوا : (إذ قالت امرأة عمران : رب ، إني نذرت لك ، ما في بطني ، محرراً) عن رق النفس ، مخلصاً في عبادتك، عن الميل إلى السوى.

« (فتقبلها ربها بقبول حسن) محفوظ عن إدراك الخلق .

« (وأنبتها نباتاً حسنا) حيث سقاها من ميـــاه القدرة ، وأثمرها شجرة النبوة .

« (وكفلها زكريا) لطهارة سرّه .. وشبيه الشيء منجذب اليه » .

يا مريم ... أنى لك ... هذا ؟!...

ندخل الآن .. الى مقام جميل .. من مقامات .. مريم ..

تتلألأ .. من ثناياه .. عجائب القدرة الإلهية ..

ونفحات العطاء الرباني ..

وكيف يكرم الله تعالى .. أهله ؟.

وكيف يعطي سبحانه .. الذين تخصصوا له .. وانقطعوا .. يغردون بجماله .. وجلاله ..

وسوف نرى غرائب العطايا .. تتنزل عليها .. وهي صغيرة .. وحيدة .. يتيمة ..

لنعلم أن الله دائماً .. عند القلوب المنكسرة .

ودائماً .. عند القلوب المغتربة ..

ودائماً .. عند اليتامى .. الذين اتجهت قلوبهم اليه وحده !.

إيه .. مريم !.

يا أعجوبة العالمين .. وأغرودة الناس أجمعين !.

كلما دخل عليها زكريا المحراب ؟!

استمع .. وأنصت .. الى تلك الأمواج العُلى .. تتصاعد من ثنايا ذلك الكلام الإلهي ..

استمع ؟!.

قال تعالى :

« ... كلما دخل عليها زكريا المحراب ، وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم أنى لك هذا ، قالت : هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

[آل عمران ٣٧]

« كلما » كل زمان .. كل وقت ..

« دخل عليها » دخل على مريم فيه ..

« زكريا » النبي .. وزوج خالتها .. ووليّ أمرها .. الذي يكفلها ..

« المحراب » المعبد .. الصومعة الخاصة بها ..

عن ابن عباس : غرفة بنيت لها في بيت المقدس ، وجعلت بابها في وسط الحائط ، وكانت لا يصعد عليها إلا بسلم مثل باب الكعبة .

وسمي بالمحراب : لأنه محل محاربة الشيطان فيه .. أو محاربة النفس .

وجد عندها رزقاً ؟!

أي : أصاب ، ولقي بحضرتها ذلك .

أو : ذلك كائناً بحضرتها .

أخرج ابن جرير ، عن الربيع قال : انه كان لا يدخل عليها غيره ، وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب !

« فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف » .

والتنوين للتعظيم .

فعن ابن عباس : أن ذلك من ثمار الجنة .

وعنه : « أن زكريا عليه الصلاة والسلام استأجر لهـــا ظئرا ، فلما تم لها حولان فطمت ، وتركت في المحراب وحدها ، وأغلقت عليها الباب ، ولم يتمهد أمرها سواه » .

فما معنى هذا ؟!

معناه أن مريم استرضعت عامين حتى تم رضاعها من مرضعتها ..

وبعد العامين جعلها زكريا في صومعة خاصة بها ..

وكان يرعاها .. ويغلق عليها بنفسه ..

وجعلت الطفلة الطاهرة تنمو نمواً باهراً ..

ان العناية الإلهية تتولاها .. وتجد ذلك مكنوناً في قوله سبحانه :

« وأنبتها نباتاً حسناً » !.

يا مريم .. أنى لك هذا ؟!

« قال : يا مريم » قال زكريا .. مخاطباً مريم .. بعد أن ترعرعت .. وتمت .

« أنى لك هذا » من أين لك هذا الرزق ، الذي لا يشبه أرزاق الدنيا ، والأبواب مغلقة دونك ؟!.

أو : كيف لك هذا ؟!.

أي : ما هي الكيفية التي جاءك بها هذا الرزق ؟!.

واستدل بالآية على جواز الكرامة للأولياء ، لأن مريم لا نبوة لهـــا على المشهور .

وهذا هو الذي ذهب اليه أهل السنة والشيعة ، وخالف في ذلك المعتزلة .

وأجاب البلخي فهم عن الآية : بأن ذلـــك كان ارهاصاً وتأسيساً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام .

وأجاب الجبائي : بأنه كان معجزة لزكريا عليه الصلاة والسلام .

قال ابن اسحاق : فلما كفلها زكريا « ضمها الى خالتها أم يحيى .

« واسترضع لها ، حتى إذا نشأت ، وبلغت مبالغ النساء .

« بنى لها محراباً ، أي : غرفة في المسجد .

« وجعل بابه الى وسطها ، لا يرقى اليها إلا بسلم مثل باب الكعبة ، فلا يصعد اليها غيره .

« وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودهنها في كل يوم .

« وكان زكريا عليه السلام إذا خرج أغلق عليها بابها ، فإذا دخل عليها غرفتها وجـــد عندها رزقاً ، أي : فاكهة في غير حينها ، فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف .

فيقول لها : أنى لكِ هذا ؟!

فتقول : هو من عند الله ، من قطف الجنة .

« قال الحسن : يجد عندها قوتها ، وكان رزقها يأتيها من الجنة ، فيقول لها زكريا من أين لك هذا ؟. فتقول : هو من عند الله .

« قال الحسن : وكانت وهي صغيرة يأتيها رزقها » .

فما معنى ذلك كله ؟.

معناه أن زكريا عليه السلام في عجب من ذلك الأمر الذي كان يفاجئه كلما دخل على مريم المحراب !.

ما من مرّة يدخل عليها صومعتها .. إلا وجد عندها رزقاً ..

كل مرة .. يفاجأ بذلك الرزق العجيب .. عند مريم !.

ما بال هذه الراهبة العذراء .. ومن أين لها تلك الفاكهة العجيبة التي ليست من فاكهة الدنيا ؟!

وهتف زكريا .. ذلك الهتاف الخالد ..

: يا مريم .. أنى لكِ هذا ؟!.

سؤال ألقاه زكريا النبي ..

على مريم .. الصدّيقة ..

فماذا كان جوابها ؟.

هُو ... من عند الله ؟!

« قالت » قالت مريم .. ردا على سؤال زكريا ..

« هو من عند الله » أرادت من الجنة .

أو : مما رزقنيه هو .. لا بواسطة البشر .. فلا تعجب .. ولا تستبعد ..

وقيل : تكلمت بذلك صغيرة كعيسى عليه الصلاة والسلام ..

وقد جمع من تكلم كذلك فبلغوا أحد عشر نفساً ..

وقد نظمهم الجلال السيوطي فقال :

تكلم في المهد النبي (محمد) .

(ويحيى ، وعيسى ، والخليل ، ومريم) .

ومبرى (جريج) ثم (شاهد يوسف) .

(وطفل لذي الأخدود) يرويه مسلم .

(وطفل) عليه مرّ بالأمة التي

يقال لها تزنى ولا تتكلم .

وماشطة في عهد فرعون (طفلها) .

وفي زمن الهادي (المبارك) يختم .

عجائب الذين تكلموا ... في المهد ؟!

« عن أبي هريرة .

« عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« لم يتكلم في المهد ، إلا ثلاثة .

« عيسى .

« وكان في بني اسرائيل رجل ، يقال له « جُريجٌ » .

« كان يُصلي ، جاءته أمّه ، فدعته .

« فقال : أجيبُها أو أُصلي ؟

« فقالت : اللهم ، لا تمته حتى تريه وجوه المومسات .

« وكان « جريج » في صومعته .

« فتعرضت له امرأةٌ ، وكلمته ، فأبى .

« فأتت راعياً ، فأمكنته من نفسها .

« فولدت غلاماً .

« فقالت : من جريج .

« فأتوه ، فكسروا صومعته ، وأنزلوه ، وسبّوه .

« فتوضّأ ، وصَلى .

« ثم أتى الغلام ، فقال : مَن أبوك يا غلام ؟

« قال : الرّاعي .

« قالوا : نبني صومعتك من ذهب .

« قال : لا ، إلا من طين .

« وكانت امرأة تُرضع ابناً لها ، من بني اسرائيل .

« فمر بها رجل راكب ، ذو شارة .

« فقالت : اللهم ، اجعل ابني مثله .

« فترك ثديها ، وأقبل على الراكب .

« فقال : اللهم ، لا تجعلني مثله .

« ثم أقبل على ثديها يمصه .

« قال أبو هريرة : كأني أنظر الى النبي صلى الله عليه وسلم يمص اصبعه .

« ثم مُرَّ بأمَةٍ : فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه .

« فترك ثديها .

« فقال : اللهم اجعلني مثلها .

« فقالت : لم ذاك ؟

« فقال : الراكب جبَّارٌ من الجبابرة ، وهذه الأمة ، يقولون : سرقت ، زنيت ، ولم تفعل » .

[أخرجه البخاري]

« لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة » المعنى لم يتكلم إلا ثلاثة على ما أوحى اليه .

وإلا فقد تكلم من الأطفال سبعة .

منهم شاهد يوسف صلى الله عليه وسلم .

رواه أحمد والبزار والحاكم وابن حبان ، من حديث ابن عباس : لم يتكلم في المهد إلا أربعة ، فذكر شاهد يوسف صلى الله عليه وسلم .

ومنهم الصبي الرضيع الذي قال لأمه وهي ماشطة بنت فرعون لما أراد فرعون القاء أمه في النار : اصبري يا أماه ، فإنا على الحق .

ومنهم الصبي الرضيع ، في قصة أصحاب الأخدود .

ان امرأة جيء بها لتلقى في النار فتقاعست فقال لها : يا أماه اصبري فإنك على الحق .

ومنهم يحيى صلى الله عليه وسلم .

أخرج الثعلبي في تفسيره عن الضحاك أن يحيى صلى الله عليه وسلم تكلم في المهد .

« جاءته أمه » وفي رواية مسلم : كان جريج يتعبد في صومعته فأتته أمه .

وفي رواية لأحمد : فأتته أمه ذات يوم فنادته فقالت : أي جريج أشرف علي أكلمك أنا أمك .

« أجيبها أو أصلي » ؟ وفي رواية فأبى أن يجيبها .

وفي حديث : انها جاءته ثلاث مرات تناديه في كل مرة ثلاث مرات .

وفي رواية : فقال أمي وصلاتي لربي ، أؤثر صلاتي على أمي .

« حتى تريه وجوه المومسات » وفي حديث : فغضبت فقالت : اللهم لا يموتن جريج حتى ينظر في وجوه المومسات .

وهي جمع مومسة وهي الزانية .

وفي رواية : فذكر بنو اسرائيل عبادة جريج .

« فقالت بغي منهم : ان شئتم لأفتننه .

» قالوا : قد شئنا .

« فأتته ، فتعرضت له ، فلم يلتفت اليها .

« فأمكنت نفسها من راع كان يؤوي غنمه الى أصل صومعة جريج » .

فذهبوا الى الملك فأخبروه ، فقال : أدركوه فائتوني به .

« وكسروا صومعته » وفي رواية : فأقبلوا بفؤوسهم ومساحيهم الى الدير ، فنادوه فلم يكلمهم ، فأقبلوا يهدمون ديره .

« فسبوه » وفي رواية : وضربوه ، فقال : ما شأنكم ؟

« قالوا : انك زنيت بهذه » !

وفي حديث عمران : فجعلوا يضربونه ويقولون : مراء تخادع الناس بعملك !

وفي رواية : فلما مروا به نحو بيت الزواني خرجن ينظرن فتبسم .

فقالوا : لم يضحك حتى مرّ بالزواني !

« وتوضّأ وصلى » وفي رواية : فلما أدخـــل على ملكهم قال جريج : أين الصبي الذي ولدته ؟

« فأتى به ، فقال له : مَن أبوك ؟

« قال : فلان ، وسمّى أباه » .

فإن قلت : ما وجه الجمع بين اختلاف هذه الروايات ؟

(قلت) : لا مانع من وقوع الكل ، فكل روى بما سمع .

« نبني صومعتك من ذهب قال : لا إلا من طـــين » . وفي رواية « نبني ما هدمناه من ديرك بالذهب والفضة . قال : لا ، ولكن أعيدوه كما كان . ففعلوا » .

اشعاعات الحديث الخالد ؟!

قالوا : فيه إيثار إجابة الأمم على صلاة التطوع .

لأن اجابة الأمم واجبة ، فلا تترك لأجل النافلة .

وفيه قوة يقين « جُريج » وصحة رجائه لأنه استنطق المولود مع كون العادة انه لا ينطق ، ولولا صحة رجائه بنطقه لما استنطقه .

وفيه عظم بر الوالدين وإجابة دعائهما، ولو كان الولد معذوراً، لكن يختلف الحال في ذلك بحسب المقاصد .

وفيه اثبات الكرامة للأولياء .

ووقوع الكرامة لهم باختيارهم وطلبهم .

وفيه جواز الأخذ بالأشد في العبادة لمن يعلم من نفسه قوة على ذلك .

وفيه أن الفزع في الأمور المهمة الى الله تعالى يكون بالتوجه اليه في الصلاة .

المعاني الكبرى في القصة الأخرى ؟!

قوله « وكانت امرأة » الى آخره .. قضية أخرى .. تشبه قضية جريج ..

« فمر بها رجل » عن أبي هريرة : فارس متكبر .

« ذو شارة » ذو حسن وجمال .

أو : صاحب هيئة وملبس حسن يتعجب منه ، ويشار اليه .

وفي رواية : ذو شارة حسنة .

« ثم مرّ بأمَة » وفي رواية أحمد : بأمة تضرب .

وفي رواية : انها كانت حبشية زنجية ، وإنها ماتت فجروها حتى ألقوها .

« فقالت : لم ذلك » ؟ أي : قالت الأم لإبنها : لم قلت هكذا ؟

حاصله أنها سألت منه عن سبب ذلك .

« فقال » أي : الإبن : الراكب جبار .

وفي رواية أحمد : فقـــال : يا أمتاه ، أما الراكب ذو الشارة فجبار من الجبابرة .

« سرقت زنيت » وفي رواية أحمد : يقولون سرقت ولم تسرق ، وزنيت ولم تزن ، وهي تقول : حسبي الله » .

وفي رواية الأعرج : يقولون لها : تزني ، وتقول : حسبي الله ، ويقولون لها: تسرقي ، وتقول : حسبي الله » .

« ولم تفعل » أي : والحال انها لم تسرق ولم تزن » .

الى هنا .. انتهى سرد البدائع التي أوردها الإمام العيني .. في شرحه لذلك الحديث من صحيح البخاري ..

وقد تعمدنا اثبات أكثره .. لنضع أمام الناس جميعاً .. صوراً .. من عطاء الله تعالى لمن شاء من أوليائه .

فها هو « جريج » قد أنطق رضيعاً .. فقال : « الراعي » !

وواضح جداً .. أن نطق الرضيع .. كان كرامة أكرم الله تعالى بها .. ذلك الراهب الصالح المسمى « جُريج » .

ثم ها هو رضيع آخر .. تتمنى أمه أن يكون مثل ذلك الفارس الذي أعجبها اخراجه وجماله وهو يختال على فرسه ..

والنساء دائماً وأبداً معجبات بفارس أحلامهن !.

فيدع الطفل ثديها ويهتف : اللهم لا تجعلني مثله !.

ومرة أخرى تمر أمه على أمَة مسكينة ، يُعبث بها وتضرب ..

فتدعو الله : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه !

فترك الرضيع ثديها مرة أخرى وهتف : اللهم اجعلني مثلها !.

ثم تتعجب الأم مما رأت من رضيعها ، وتسأله : لم ذلك ؟

فيقول الطفل الخالد : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمَة ، يقولون : سرقت ، زنيت ، ولم تفعل !.

ان الرضيع يكشف حقائق المظاهر الخداعة التي تخدع الناس دائماً !.

كانت أمه تتمنى أن ترى ابنها فارساً كذلك الفارس الجميل ..

بينما حقيقة ذلك الجميل . أنه مجرم من كبار المجرمين .. جبار من الجبابرة !

وكانت تشمئز أن ترى ابنها مثل تلك الرقيقة المستضعفة ..

بينما حقيقتها أنها انسانة طيبة مظلومة .. تُتهم ظلماً بالسرقة والزنى .. وهي بريئة !.

فالطفل اختار أن يكون نقيّاً كهذه .. ولا يكون مجرماً كفارس أعجبها !

هذه نماذج قليلة مما يكرم الله به مَن شاء من عباده ..

فإذا قرأنا في كتاب الله تعالى قوله « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً » ..

فلا يأخذنا العجب ..

فإن الله تعالى يكرم من شاء .. بما شاء .. كيف شاء ..

وإنما تثير الكرامة دائماً عقول أهل الحجاب ..

بأنها شيء يخرق العادة المألوفة لعموم الناس .

والحقيقة أن الكرامة ثابتة لأولياء الله تعالى ..

تثبتها هذه الآية التي نحن بصددها .

ويثبتها غيرها كثير من الآيات ..

وكثير من صحاح الأحاديث ..

وتثبتها التجارب التي مرت .. وتمر على عباد الله الصالحين ..

فإن صاح أهل الظلام : أنى للأولياء هذا ؟!

كان الجواب الخالد .. الحق .. ما قالته العذراء الخالدة : هو من عند الله .

ان الله يرزق من يشاء ... بغير حساب ؟!

« ان الله يرزق من يشاء » من عباده ، أن يرزقه .

« بغير حساب » بغير حساب الحاسبين ، وتقدير المقدرين ..

والجملة تعليل لكونه من عند الله .

والظاهر أنها من كلام مريم ..

أخرج أبو يعلى ، عن جابر :

« أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقام أياماً ، لم يطعم طعاماً ، حتى شق ذلك عليه .

« فطاف في منازل أزواجه ، فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً .

« فأتى فاطمة ، فقال : يا بنية ، هل عندك شيء آكله ، فإني جائع ؟

« فقالت : لا ، والله .

« فلما خرج من عندها ، بعثت اليها جارة لها برغيفين ، وقطعة لحم .

« فأخذته منها ، فوضعته في جفنة لها .

« وقالت : لأوثرن بهذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

« فرجع اليها .

« فقالت له : بأبي أنت وأمي ، قد أتى الله تعالى بشيء ، قد خبأته لك .

« قال : هلمي يا بنية بالجفنة .

« فكشفت عن الجفنة .

« فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً .

« فلما نظرت اليها بُهتت .

« وعرفت أنها بركة من الله تعالى .

« فحمدت الله تعالى ، وقدمته الى النبي صلى الله عليه وسلم .

« فلما رآه ، حمد الله تعالى .

« وقال : من أين لك هذا يا بنية ؟

« قالت : يا أبتي ، هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .

« فحمد الله سبحانه ، ثم قال : الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني اسرائيل .

« فإنها كانت إذا رزقها الله تعالى رزقاً ، فسئلت عنه قالت : هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .

« ثم جمع علياً ، والحسن والحسين ، وجمع أهل بيته حتى شبعوا .

« وبقي الطعام كما هو .

« فأوسعت فاطمة رضي الله تعالى عنها على جيرانها » .

هنالك ... دعا زكريا ... ربه ؟!...

قالوا :

لما رأى زكريا عليه السلام ، أن الله يرزق مريم الفاكهة في غير حينها .

« قال : ان الله الذي قدَر على أن يؤتي مريم بالفاكهة في غير حينها ، من غير سبب ، ولا فعل أحد ، لقادر على أن يصلح زوجتي ، ويهب لي ولداً على الكبر .

« فطمع في الولد .

« وكان أهل بيته قد انقرضوا ، وزكريا قد شاخ ، وآيس من الولد .

« فهنالك ، أي : فعند ذلك دعا زكريا ربه « قال : رب هب لي » أي : أعطني « من لدنك ذرية طيبة » نسلاً نقياً صالحاً رضياً « انك سميع الدعاء فنادته الملائكة » يعني : جبريل .

« وذلك أن زكريا كان الحَبر الكبير الذي يقرب القربان ، ويفتح باب المذبح ، فلا يدخل أحد حتى يأذن له بالدخول .

« فبينا هو في محرابه عند المذبح ، قائم يصلي ، والناس ينتظرون أن يأذن لهم بالدخول ، اذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففزع منه ، فناداه وهو جبريل عليه السلام « يا زكريا ان الله يبشرك بيحيى » ..

هذه ملامح مبثوثة في كتب الأقدمين .. تصور هذا المشهد من القصة ..

ذكرناها .. لتلقي ضوءاً خافتاً .. يكشف شيئاً من الأمر ..

أما الإشماع القوي الباهر .. فنلتمسه دائماً .. من كتاب الله تعالى ..

فماذا قال الله سبحانه ؟!

هب لي ... من لدنكَ ؟!

قال عز من قائل :

« هنالك دعا زكريا ربه قال : رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انــــك سميع الدعاء » .

[آل عمران ٣٨]

قصة مستقلة ، سيقت في أثناء قصة مريم ، لكمال الارتباط ، مع ما في ايرادها من تقرير ما سيقت له .

« هنالك » في ذلك المكان .. حيث هو قاعد عند مريم في المحراب ..

وتقديم الظرف للإيذان بأنه أقبل على الدعاء من غير تأخير ..

أو : من تلك الحال دعا زكريا .. كما تقول : من ههنا قلت كذا .. ومن هنالك قلت كذا .. أي : من ذلك الوجه ، وتلك الجهة ..

عن الحسن : لما وجد زكريا عند مريم ثمر الشتاء في الصيف ، وثمر الصيف في الشتاء يأتيها به جبريل .

« قال لها : أنى لكِ هذا في غير حينه ؟.

« قالت : هو رزق من عند الله ، يأتيني به الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .

« فطمع زكريا في الولد فقال : ان الذي أتى مريم بهذه الفاكهة في غير حينها ، لقادر على أن يصلح لي زوجتي ، ويهب لي منها ولداً .

« فعند ذلك دعا ربه .

« وذلك لثلاث ليال بقين من المحرم ، قام زكريا ، فاغتسل ، ثم ابتهل في الدعاء الى الله تعالى » .

« قال » شرح للدعاء ، وبيان للكيفية .

« ربّ هب لي من لدنك » أعطني من عندك .

وجاء الطلب بلفظ الهبة لأن الهبة إحسان محض ليس في مقابله شيء .

وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد لكبر سنه ، ولا للوالدة لكونها عاقرة لا تلد .

فكأنه قال : أعطني ذرية من غير وسط معتاد .

« ذرية طيبة » مباركة .. صالحة .. تقية .. نقية العمل ..

والذرية : النسل ..

والمراد ها هنا : ولد واحد .

« انك سميع الدعاء » أراد : كثير الإجابة لمن يدعوك من خلقك .

وهو تعليل ، وتحريك لسلسلة الإجابة .

وفي ذلك اقتداء بجده الأعلى ابراهيم عليه السلام إذ قال : (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل وإسحاق ان ربي لسميع الدعاء) .

قيل : قد ذكر الله تعالى فيه كيفية دعائه ثلاث صيغ .

إحداها هذه ..

والثانية (اني وهن العظم مني) الخ ..

والثالثة (رب لا تذرني فرداً) الخ ..

وفيه منع ظاهر لجواز أن تكون الصيغ الثلاث حكاية لدعاء واحد .

مرة على سبيل الايجاز .

وتارة على سبيل الإسهاب .

وأخرى على سبيل التوسط ..

وقيل : ويدل على أنه دعاء واحد متعقب بالتبشير ، العطف بالفـــاء في قوله تعالى :

(فنادته الملائكة) وفي قوله سبحانه :

(فاستجبنا له ووهبنا له يحيى) .

وظاهر قوله جل شأنه في (مريم) : (إنا نبشرك) اعتقاب التبشير الدعاء لا تأخره عنه .

هناك إذاً رأيان ..

رأي يقول : أن زكريا دعا ربه ثـــلاث مرات كل مرة بصيغة .. هذه احداهن ..

ورأي يقول : أنه دعاء واحد .. ذكره القرآن من زوايا مختلفة ..

فلننظر دعاء زكريا في المواضع الأخرى من كتاب الله .. لنتبين أي الرأيين أهدى سبيلاً ؟

لا تذرني فرداً ؟!

قال تعالى :

« وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين .

« فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » .

[الأنبياء ٨٩ و ٩٠]

« وزكريا » واذكر خبر زكريا عليه السلام ..

« إذ نادى ربه : رب لا تذرني فرداً » وحيداً بلا ولد يرثني ..

« وأنت خير الوارثين » وأنت خير حي يبقى بعد ميت ..

وفيه مدح له تعالى بالبقاء ، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء ..

وفي ذلك استمطار لسحائب لطفه عزّ وجلّ .

« فاستجبنا له » دعاءه ..

« ووهبنا له يحيى » قدم هبة يحيى مع توقفهـــا على إصلاح الزوج للولادة لأنها المطلوب الأعظم ..

« وأصلحنا له زوجه » أصلحناها له عليه السلام برد شبابها اليها ، وجعلها ولوداً ، وكانت لا تلد ..

« إنهم كانوا يساوعون في الخيرات » تعليل لمـا فصّل من فنون إحسانه المتعلقة بالأنبياء المذكورين سابقاً عليهم السلام ..

والمعنى : انهم كانوا يجدون ويرغبون في أنواع الأعمال الحسنة ..

« ويدعوننا رغباً ورهباً » راغبين في نعمنا ، وراهبين من نقمنا ..

أو : راغبين في قبول أعمالهم ، وراهبين من ردها ..

« وكانوا لنا خاشعين » مخبتين ، متضرعين ، دائمي الوجل ..

« وحاصل التعليل : أنهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة .

هذه هي الصيغة الثانية من دعاء زكريا ..

فلننظر الآن .. الصيغة الثالثة ؟

إني وهن العظم مني ؟!

قال تعالى :

« ذكر رحمت ربك عبده زكريا .

« إذ نادى ربه نداءً خفياً .

« قال : رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقيا .

« وإني خفت المَوالِيَ من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليّاً .

« يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيّاً » .

[مريم ٢ – ٦]

« إذ نادى ربه » إذ دعا ربه ..

« نداء » دعاء ..

« خفيّاً » مستوراً عن الناس ، لم يسمعه أحد منهم ، حيث لم يكونوا حاضريه ..

وكان ذلك – على ما قيل – في جوف الليل .

وإنما أخفى دعاءه عليه السلام لأنه أدخل في الإخلاص ، وأبعد عن الرياء ، وأقرب الى الخلاص من لائمة الناس على طلب الولد .

لتوقفه على مبادي لا يليق به تعاطيها في أوان الكبر والشيخوخة ، وعن غائلة مواليه .

ولا منافاة بين النداء وكونه خفياً ، بل لا منافاة بينهما أيضاً إذا فسر النداء برفع الصوت ..

لأن الخفاء غير الخفوت ، ومن رفع صوته في مكان ليس بمرأى ولا مسمع من الناس فقد أخفاه ..

وكان سنه حينئذ اثنتين وتسعين سنة ..

وقيل مائة وعشرين .. وهو أوفق بالتعليل المذكور ..

« قال : رب اني وهن العظم مني » أي : ضعف ..

وإسناد ذلك الى العظم لما أنه عماد البدن ودعام الجسم ، فإذا أصابه الضعف والرخاوة تداعى ما وراءه وتساقطت قوته ..

أو : لأنه أشد أجزائه صلابة وقواماً وأقلها تأثراً من العلل فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ..

« واشتعل الرأس شيباً » شبه الشيب في البياض والإنارة بشواظ النار ، وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها ..

وما أفصح هذه الجملة وأبلغها !.

« ولم أكن بدعائك رب شقيا » لم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت من أوقات هذا العمر الطويل ، بل كلما دعوتك استجبت لي ..

وهذا توسل منه عليه السلام بما سلف منه تعالى من الاستجابة عن كل دعوة ، إثر تمهيد ما يستدعي الرحمة من كبر السن وضعف الحال ..

فإنه تعالى بعدما عوّد عبده الإجابة دهراً طويلاً ، لا يكاد يخيبه أبداً لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره ..

وفي هذا التوسل من الإشارة الى عظم كرم الله عز وجل ما فيه ..

« وإني خفتُ الموالي » الورثة ..

والموالي : من يلي أمره من ذوي قرابته مطلقاً .

وكانوا شرار بني اسرائيل فخاف عليه السلام أن لا يحسنوا خلافته في أمته ..

« من ورائي » من بعد موتي ..

« أي : خفت الذين يلون الأمر من ورائي ..

« وكانت امرأتي عاقراً » لا تلد من حين شبابها الى شيبها ..

فالعُقر : العقم .

ويقال : عاقر للذكر والأنثى .

« فهب لي من لدنك » أعطني من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة ، بطريق الاختراع ، لا بواسطة الأسباب العادية ..

أو : أعطني من فضلك كيف شئت .. « وليّاً » ولداً ، من صلبي ..

طلب من يقوم مقامه ويرثه ولداً كان أو غيره .

وقيل : انه عليه السلام أيس أن يُولد له من امرأته فطلب من يرثه ويقوم مقامه من سائر الناس ..

« يرثني » يرث النبوة ..

« ويرث من آل يعقوب » آل الرجل خاصته الذين يؤول اليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين ..

أي : ويرث أنوار آبائه الأنبياء من لدن يعقوب ..

فكأنه طلب أن يكون ولده عالماً عاملاً ..

« واجعله رب رضيًا » مرضيا عندك قولاً وفعلا ..

وقيل : راضيا ..

أو : اجعله مرضيا بين عبادك ..

أي : متبعاً ..

فليس قصده عليه السلام من مسئلة الولد سوى اجراء أحكام الله تعالى ، وترويج الشريعة ، وبقاء النبوة في أولاده ، فإن ذلك موجب لتضاعف الأجر، الى حيث شاء الله تعالى من الدهر ..

الإعجاز دائماً فوق العقول !؟

هذه هي المواضع الثلاث .. التي سجل القرآن فيها دعاء زكريا ..

فهل هو دعاء واحد .. ذكر منه في كل مرة بعضاً منه ؟

أم هن دعوات ثلاث .. مختلفات ، وقعت من زكريا .. في مواطن ثلاث ؟

الحق أن أحداً لا يتجاسر على الفصل في القضية في بساطة ..

لأن اعجاز القرآن دائماً فوق العقول ، ووراء الإدراك ..

وإنما الذي ينبغي أن نعلمه دائماً أن كل أولئك قاله زكريا في دعائه ..

سواء في ثلاث أو في دعاء واحد ..

لقد ناداه عندما شاهد عجائب الكرامات مريم ..

ولقد ناداه ألا يتركه فرداً لا وارث له ..

ولقد شكا اليه ضعف العظام واشتعال الرأس شيباً ..

وشكا اليه خوفه من اجرام القائمين على أمر بيت المقدس من بعده ..

وسأله أن يهبه ولداً طيباً .. يرث النبوة وأعباءها ..

ويقوم في بني اسرائيل بالحق .. « واجعله رب رضياً » .. الذي ترضاه ..

وكما كانت مريم .. هي الصورة العملية .. لاستجابة دعاء امرأة عمران ..

كان يحيى .. هو الصورة العملية .. لاستجابة دعاء زكريا ..

لقد حددت امرأة عمران .. ملامح شخصية مريم ..

حين كان دعاؤها : رب ، اني نذرت لـــك ، ما في بطني ، محررا ، فتقبل مني ..

فجاءت مريم .. راهبة .. محررة من الدنيا .. متفرغة لعبادة ربهـــا .. وخدمة بيته ..

وكذلك حدد زكريا .. ملامح شخصية يحيى ..

حين كان دعاؤه : رب ، هب لي من لدنك ، ذرية طيبة .

« و « فهب لي من لدنك وليًا . يرثني ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا » .

فجاء يحيى : « وحناناً من لدُنا وزكاة وكان تقياً » ..

تماماً كما حدد ملامح شخصيته .. زكريا .. في دعائه !.

ومن قبل نادى ابراهيم ربه : ربَّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

[البقرة ١٢٩]

فحدد ابراهيم . ملامح الشخصية التي يطلبها ..

فجاء محمد صلى الله عليه وسلم.. استجابة دعوة أبيه ابراهيم.. عليه السلام!.

كذلكم .. أولئكم .. الأنبياء .. العظماء .. الذين لا ينطقون عن الهوى ..

إذا نادوا ربهم .. جاء نداؤهم نوراً .. مستقيماً ..

تتلألأ فيه حقائق الأمور ..

فاستجاب لهم ربهم .. كما سألوه ..

لأنهم به تعالى نطقوا ..

وبما علّمهم .. سألوا !.

ما الذي حرّك زكريا نحو الدعاء ؟!

فيما يبدو لي .. أن سر ذلك مكنون في قوله سبحانه :

« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً » ..

لقد شاهد زكريا بعينيه .. بدائع العطاء الرباني ..

وكيف أكرم الله تعالى تلك الصغيرة .. اليتيمة .. وأعطاها .. وآواها .. ورعاها ؟!

ولم يشهد ذلك مرة أو مرتين أو ثلاث ..

وإنما دائماً .. وكل يوم .. وكل مرة يدخل عليها المحراب ..

وذلك كله واضح في قوله تعالى « كلما » ..

كلما .. دخل عليها زكريا المحراب .. وجد عندها رزقا ..

باستمرار .. وكل مرة .. يفاجأ بمفاجآت شتى .. وإكرامات شتى !.

وأنا لا أميل إلى حصر تلك الإكرامات التي حرّكت توجهات زكريا .. فيما يقولون من أنه كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ..

كلا .. فليس ذلك بالأمر الذي يثير مكنونات أحاسيس زكريا ..

فإن وجود بعض الفواكه الدنيوية أو الأخروية عند مريم في غير وقتها .. ليس أمراً خطيراً .. يعبر عنه كتاب الله بقوله « رزقاً » ..

وإنما أميل الى اطلاق تلك الكرامات كما أطلقها الله تعالى حين قال « رزقاً » فلم يحدد ذلك الرزق ..

والتنوين للتفخيم ..

والتفخيم .. يدل على أن الله كان يكرمها بإكرامات شتى ..

رزقاً .. روحياً .. كان يفيض عليهـــا من عطاياه السنية .. ويمدها بإمداداته البهية ..

رزقا .. علميا .. كان يعلمها من لدنه علما .. وراء العقول والمدارك ..

وتجد ذلك مكنونا .. في قولها « هو من عند الله » !.

كل ما ترى يا زكريا .. وتعجب منه .. هو من عنده هو !.

رزقا .. وراء عقولنا .. باطنا وظاهرا ..

أكرمها اكرامات شتى .. وخصّها بعطايا شتى ..

وكلما دخل عليها زكريا المحراب .. وجـــد عندها رزقا .. نوعاً من العطايا الإلهية ..

وتجد ذلك مكنونا في قولها « ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » ..

بغير حساب ؟!.

كأنها تريد أن تقول له : لا تعجب مما ترى .. ومن تعدد اكراماته .. انما هذا هو شأنه تعالى دائما .. اذا أعطى بغير حساب الحاسبين !.

هنالك دعا زكريا ربه ؟!

من هنا .. مما شاهد من عجائب قدرتنا ..

مما لمس من باهر عطايانا ..

اهتزت من زكريا أعماق فؤاده ..

وانهمرت دموعه .. وماج قلبه بالنور موجا : هَب لي مِن لدنك وليا ؟!

فكانت الاستجابة ؟!.

فنادته ... الملائكة ؟!...

ما هي الملائكة ؟!

الملائكة ؟!.

كلمة ترد كثيراً في الكتب السماوية.. وأكثر ما ترد في آخر كتاب سماوي.. ذلك الذي اسمه « القرآن » !.

فما هي هذه الملائكة ؟!

هل هي ذكور ؟. كلا .. انها لا توصف بذكورة ولا أنوثة ..

هل هي إناث ؟. كلا .. بل ان القرآن لينهى عن تسميتهم تسمية الأنثى !.

فما هي إذاً ؟!

يتحتم هنا القاء العقل جانباً .. والخشوع بين يدي ما أنزل الله تعالى في كتابه .. أو ما قاله رسوله صلى الله عليه وسلم .. لنستطيع أن ندرك شيئاً ما عن هذا العالم المسمى بالملائكة !.

فماذا قال الأقدمون ؟

قالوا : الملائكة : جمع مَلَك .

« والملائكة أجسام لطيفة هوائية ، تقدر على التشكل بأشكال مختلفة .

« مسكنها السماوات .

ويقال : جوهر بسيط ذو نطق وعقل مقدس عن ظلمة الشهوة وكدورة الغضب .

« (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

« طعامهم التسبيح ، وشرابهم التقديس ، وأنسهم بذكر الله تعالى .

« خلقوا على صور مختلفة ، وأقدار متفاوتة لإصـــلاح مصنوعاته ، واسكان سماواته » .

مقام جبريل ؟!

ومن حديث الإسراء ..

« ... فانطلقتُ مع جبريل .

« حتى أتينا السماء الدنيا .

« قيل : مَن هذا ؟

« قال : جبريل .

« قيل : ومَن معك ؟

« قيل : محمدٌ .

« قيل : وقد أُرسلَ اليه ؟

« قال : نعم .

« قيل : مرحباً به ، ولنعم المجيء جاء .

« فأتيت على آدم ، فسلمت عليه .

« فقال : مرحباً بك من ابنٍ ، ونبيٍّ .

« فأتينا السماء الثانية .

« قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

« قيل : ومن معك ؟

« قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

« قيل : أرسل اليه ؟

« قال : نعم .

« قيل : مرحباً به ، ولنعم المجيء جاء .

« فأتيت على عيسى ، ويحيى .

« فقالا : مرحباً بك من أخ ، ونبي .

« فأتينا السماء الثالثة » ..

إلى آخر الحديث ..

[أخرجه البخاري]

وفيه ذكر جبريل صريحاً .. وهو من الكروبيين ، وهم سادة الملائكة ..

قوله « قال : جبريل » يعني قال : أنا جبريل ..

قوله « قال : محمد » أي : قال جبريل : معي محمد .

قوله « وقد أرسل اليه ؟. أي : أطلب وأرسل اليه ؟

وفي رواية أخرى : وقد بعث اليه للإسراء وصعود السماوات ؟!

قالوا : وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة ، فإن ذلك لا يخفى عليه الى هذه المدة ..

وقيل : كان سؤالهم للاستعجاب بما أنعم الله عليه ..

أو للاستبشار بعروجه ، إذ كان من البين عندهم أن أحداً من البشر لا يترقى الى أسباب السماوات من غير أن يأذن الله له ، ويأمر ملائكته بإصعاده .

وأن جبريل عليه الصلاة والسلام لا يصعد بمن يرسل اليه ، ولا يفتح له أبواب السماء ..

مرحباً به ؟!

قوله « مرحباً به » .

أي : بمحمد .. ومعناه : لقى رحباً وسعة .

وقيل : معناه : رحب الله به مرحبا .

قوله : ولنعم المجيء جاء .

تقديره : جاء ، فلنعم المجيء مجيئه !

فأتيت على آدم ؟!

قوله « فأتيت على آدم ، فسلمت عليه » .

وفي رواية : وأمر بالتسليم عليهم .

أي : على الأنبياء الذين لقيهم في السماوات ، وعلى خزان السماوات وحراسها .

لأنه كان عابراً عليهم .. وكان في حكم القيام ، وكانوا في حكم القعود .. والقائم يسلم على القاعد .. وإن كان أفضل منه ..

يصلي فيه ... كل يوم سبعون ألف مَلَك ؟!

وفي نهاية حديث الإسراء هذا .. الذي أخرجه البخاري :

« .. فرُفِـع لي البيت المعمُور .
« فسألت جبريل .
« فقال : هذا البيت المعمور .
« يُصـَلي فيه كل يوم سبعون ألف مَلـَك .
« إذا خرجوا لم يعودوا اليه ، آخر ما عليهم » ..
« فرفع لي البيت المعمور » أي : كشف لي ، وقرب مني ..
والرفع : التقريب والعرض ..
وقالوا : الرفع : تقريبك الشيء .
وقد قيل في قوله « وفرش مرفوعة » أي : مقربة لهم ..
وكأنه أراد أن البيت المعمور ظهر له كل الظهور ..
والبيت المعمور : بيت في السماء ، حيال الكعبة ..
وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة ..
« لم يعودوا » على تقدير : ذلك آخر ما عليهم من دخوله ..

الملائكة أنواع ... لا يحصي عددهم إلا الله ؟!

قالوا : والملائكة أنواع .. لا يحصي عددهم إلا الله تعالى ..
وساداتهم الأكابر أربعة : جبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، واسرافيل .
ومنهم الروح .. قال الله تعالى (يوم يقوم الروح) ..
ومنهم الحفظة .. ومنهم الملائكة الموكلون بالقطر ، والنبات ، والرياح ، والسحاب .

ومنهم ملائكة القبور .

ومنهم سياحون في الأرض يبتغون مجالس الذكر ..

ومنهم كروبيون ، وروحانيون ، وحافون ، ومقربون ..

ومنهم ملائكة تقذف الشياطين بالشهاب ..

ومنهم حملة العرش ..

ومنهم موكلون بصخرة بيت المقدس ..

ومنهم موكلون بالمدينة ..

ومنهم موكلون بتصوير النطف ..

ومنهم ملائكة يبلغون السلام الى النبي صلى الله عليه وسلم من أمته ..

ومنهم من يشهد الحروب مع المجاهدين ..

ومنهم أبواب السماء ..

ومنهم الموكلون بالنار ..

ومنهم ملائكة يسمون الزبانية ..

ومنهم من يغرسون أشجار الجنة ..

ومنهم من يصوغون حلي أهل الجنة ..

ومنهم خدم أهل الجنة ..

ومنهم من نصفه ثلج ونصفه نار !.

عندما ينادي جبريل ... في أهل السماء ؟!

« عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا أحب الله العَبد نادى جبريل : ان الله يحب فلانا فأحببه .

« فيحبه جبريل .

« فينادي جبريل ، في أهل السماء : ان الله يحب فلانا فأحبوه .

« فيحبه أهل السماء .

« ويوضع له القبول في الأرض » .

[أخرجه البخاري]

« ويوضع له القبول في الأرض » يعني عند أكثر من يعرفه من المؤمنين ، ويبقى له ذكر صالح ..

أو : يلقى في قلوب أهلها محبته مادحين مثنين عليه ..

وفيه أن كل من هو محبوب القلوب ، فهو محبوب الله ، بحكم عكس القضية ..

من هو روح القدس ؟!

« عن سعيد بن المُسيَّب قال :

« مر عمر في المسجد وحسان ينشد .

« فقال : كنت أنشد فيه ، وفيه من هو خير منك .

« ثم التفت إلى أبي هريرة فقال : أنشدك بالله ، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أجب عني ، اللهم أيِّده بروح القدُس ؟

« قال : نعم » .

[أخرجه البخاري]

« روح القدس » جبريل عليه الصلاة والسلام .

« في المسجد » أي النبوي ..
« أجب عني » قل جواب هجو الكفار عن جهتي .

الملائكة لها القدرة على التشكل ؟!

« عن عائشة رضي الله عنها .
« أن الحارث بن هشام قال : سأل النبي صلى الله عليه وسلم :
كيف يأتيك الوحي ؟
« قال : كلُّ ذاك .
« يأتي المَلَك أحياناً في مثل صلصلة الجرس ، فيَفْصم عني ، وقد وعيت ما قال ، وهو أشدُّه عليَّ .
« ويتمثل لي المَلَك أحياناً رجلاً .
« فيكلمني ، فأعِي ما يقول » .

[أخرجه البخاري]

وفي هذا الحديث إثبات أن الملك يتشكل أو يتمثل ..
وإنما أوردنا ذلك النص .. لما له من الأهمية القادمة .. عندما ندخل الى باب خطير من « حياة مريم » .. هو قوله تعالى :
« فتمثل لها بشراً سوياً » .!.

لماذا تمثّل جبريل لمريم ... ولم يتمثل لعائشة ؟!

« عن عائشة رضي الله عنها .

« أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : يا عائشة ، هذا جبريل ، يقرؤ عليك السلام .

« فقالت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته .

« ترى ما لا أرى !

« تريد النبي صلى الله عليه وسلم » .

[أخرجه البخاري]

« يا عائشة » وروى : يا عائش بالترخيم .. فيجوز في الشين الضم والفتح .

« يقرؤ » ويروى : يقرئك .

وفيه منقبة عظيمة لعائشة رضي الله تعالى عنها ..

فإن قلت :

هلا واجهها جبريل ، كما واجه مريم عليها السلام ؟

قلت :

وجه ذلك انه لما قدر وجود عيسى عليه السلام ، لا من أب ، نصب جبريل ليعلمها بكونه قبل كونه ..

لتعلم انه يكون بالقدرة ..

فتسكن في زمن الحمل ..

ثم بعث اليها عند الولادة لكونها في وحدة فقال : لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا .

فكان خطاب الملك لها في الحالتين ، لتسكن ولا تنزعج ..

وجواب آخر :

أن مريم كانت خالية من زوج فواجهها بالخطاب ..

وأم المؤمنين احترمت لمكان سيد الأمة ، كما احترم الشارع[1] قصر عمر رضي الله تعالى عنه الذي رآه في المنام خوفاً من الغيرة !.

وهذا أبلغ في فضل عائشة ، لأنها اذا احترمها جبريل عليه الصلاة والسلام الذي لا شهوة له حفظاً لقلب زوجها سيد الأمة ..
كان عما قيل فيها في الإفك أبعد .

وجواب آخر :
أنه خاطب مريم لكونها نبية ، على قول ، وعائشة لم يذكر عنها ذلك .
وفيه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يرى الملك ولا يراه من معه .
وفيه جواز سلام الأجنبي على الأجنبية إذا لم يخش ترتب مفسدة ، والأولى تركه في هذا الزمان[2] !.

وما نتنزّل إلا بأمر ربك ؟!

« عن ابن عباس رضي الله عنه قال :
« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ؟
« قال : فنزلت : وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا – الآية – » .

[أخرجه البخاري]
« فنزلت » نزلت الآية التي أولها (وما نتنزل إلا بأمر ربك) الى آخره .

(١) يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٢) هذا رأيهم في زمانهم ... ترى : ماذا كان يكون رأيهم الآن ؟!

دوريات الملائكة ؟!

« قال النبي صلى الله عليه وسلم : الملائكة يتعاقبون .

« ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار .

« ويجتمعون في صلاة الفجر والعصر .

« ثم يعرج اليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم .

« فيقول : كيف تركتم عبادي ؟

« فيقولون : تركناهم يصلـُّون وأتيناهم يصلون » .

[أخرجه البخاري]

عندما تدعو لك الملائكة ؟!

« عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ان أحدكم في صـــلاة ، ما دامت الصلاة تحبسه .

« والملائكة تقول : اللهم اغفر له ، وارحمه .

« ما لم يقم من صلاته ، أو يُحدِث » .

[أخرجه البخاري]

ملَكُ الجبال ينادي : يا محمد ؟!

« قالت عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟

« قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت .

« وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة .

« إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني الى ما أردت .

« فانطلقت وأنا مهموم ، على وجهي .

« فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب .

« فرفعت رأسي .

« فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني .

« فنظرت ، فإذا فيها جبريل ، فناداني ، فقال :

« ان الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردّوا عليك .

« وقد بعث اليك مَلَكَ الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم .

« فناداني ملك الجبال ، فسلم عليّ .

« ثم قال : يا محمد .

« فقال : ذلك فيما شئت ، ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ؟

« فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً » .

[أخرجه البخاري]

« يوم أحد » يوم غزوة أحد ..

« يوم العقبة » هي التي تنسب اليها جمرة العقبة وهي بمنى ..

« إذ عرضت نفسي » حين عرضت نفسي .. كان ذلك في شوال في سنة عشر من المبعث .. وأنه كان بعد موت أبي طالب ، وخديجة رضي الله تعالى عنها ..

« على وجهي » على الجهة المواجهة لي ..

« بقرن الثعالب » موضع بقرب مكة ..

« ملك الجبال » بعث الله اليك ملك الجبال ، وهو الملك الذي سخر الله له الجبال وجعل أمرها بيده ..

« ذلك » أي : ذلك كما قال جبريل ، أو : كما سمعت منه .

« فيما شئت ان شئت » ان شئت لفعلت .

« أن أطبق » لفعلت بإطباق الأخشبين عليهم ..

« والأخشبان : هما جبلا مكة أبو قبيس والذي يقابله قيقعان ..

وسميا بذلك لصلابتها وغلظ حجارتها .

يقال : رجل أخشب ، إذا كان صلب العظام ، عاري اللحم ..

والمراد من قوله .. أن أطبق عليهم أن يلتقيا على من بمكة فيصيران كطبق واحد عليهم ..

هناك إذاً مَلَكٌ للجبال !.

صورة جبريل ... التي خلقه الله عليها ؟!

« عن عائشة رضي الله عنها قالت :

« من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم .

« ولكن قد رأى جبريل ، في صورته ، وخلقه .

« ساداً ما بين الأفق » .

[أخرجه البخاري]

« فقد أعظم » دخل في أمر عظيم ..

« في صورته » في هيئته وحقيقته .

« وخلقه » وخلقته التي خلق عليها .

« سادا » مطبقا بين افق السماء .

وقال أحمد ، بإسناده عن أبي وائل ، عن ابن مسعود قال :

« رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل في صورته .

« وله ستمائة جناح .

« كل جناح منها قد سد الأفق .

« يسقط من جناحه من التهاويل ، والدر ، والياقوت ، ما الله به عليم » .

والتهاويل : الألوان المختلفة .

وقال ابن الكلبي : سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم جبريل أن يأتيه في صورته التي خلقه الله عليها .

« فقال : لا تستطيع أن تثبت .

« فقال : بلى .

« فظهر له في ستمائة جناح ، سد الأفق جناح منها .

« فشاهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمراً عظيماً ، فصعق .

« وذلك معنى قوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى) .

وقد ثبت أن جبريل عليه الصلاة والسلام كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي ..

وتارة كان يأتيه في صورة أعرابي .

وأتاه مرتين في صورته التي خلق عليها ..

مرة منهبطاً من السماء ..

ومرة عند سدرة المنتهى ..

وجبريل هو أمين الوحي .. وخازن القدس ..

ويقال له : الروح الأمين .. وروح القدس .. والناموس الأكبر .. وطاوس الملائكة ..

ومعنى جبر : عبد .

وإيل : اسم من أسماء الله تعالى .

ومعناه : عبد الله

ثم اعلم أن انكار عائشة رضي الله تعالى عنها الرؤية لم تذكرها رواية .

إذ لو كان معها رواية فيه لذكرته ، وإنما اعتمدت على الاستنباط من الآيات .

وعن ابن عباس : أنه رآه بعينيه ، روى ذلك عنه بطرق .

وروى ابن مردويه في تفسيره عن الضحاك وعكرمة عنه في حديث طويل وفيه :

« فلما أكرمني ربي برؤيته ، بأن أثبت بصري في قلبي ، اجد بصري لنوره نور العرش » .

وذكر ابن اسحاق ان ابن عمر ارسل الى ابن عباس يسأله : هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ؟

« فقال : نعم » .

وروى عنه : ان الله تعالى اختص موسى عليه الصلاة والسلام بالكلام .

« وإبراهيم عليه الصلاة والسلام بالخُلّة .

« ومحمدا بالرؤية » ..

لمــــاذا هذا ؟!

قد يسأل سائل : لماذا هذه الإفاضة في ذكر الملائكة ؟

والجواب : لتكتمل أمام العيون صورة لعجائب عالم الملائكة ..

وأنهم خلقوا من النور .. وأنهم يملأون السماوات والأرض ..

وأن حياتنا متداخلة معهم تداخلاً أوتوماتيكياً ونحن لا نشعر ..

فهناك ملائكة تقوم بتصويرنا ونحن أجنة في بطون أمهاتنا ..

فمن أول لحظة تلقح فيهـــا بويضة الأنثى .. يباشر ملائكة الأرحام عملهم فوراً ..

وهناك ملائكة تنفخ الروح في الجنين ..

وهذا بالذات له أهمية خاصة في هذا الكتاب .. لأنه سوف يفسر لنا كيف نفخ جبريل في مريم .. فحملت فوراً !.

وليس ذاك بأعجب .. من تلك العملية التي تجري يوميــــاً .. بالملايين .. في أرحام النساء في كل لحظة في هذه الحياة !.

ولذلك تفصيل سوف يأتي .. ان شاء الله ..

وهناك ملائكة تسوق الأمطار بإذن ربها ..

وهناك ملائكة يتعاقبون فينا بالليل والنهار ..

وهناك ملائكة يقومون بحفظ الإنسان من الهلاك ..

وهناك ملائكة يقبضون الأرواح وهو ما نسميه بالموت ..

وهناك ملائكة تستقبل الروح عند موتهـــا .. وتبشره .. أو تضرب وجهه ودبره !.

وكل ذلك ثابت في صريح القرآن ..

ولولا أن المجال ليس مجال أبحاث في عالم الملائكة .. لمضينا نسرد الآيات التي تسجل ذلك كله ..

وهناك .. وهناك .. عجائب وعوالم من الملائكة ..

وقد أفضنا في ذكر عجائب جبريل .. بالذات ..

لأن لجبريل في حياة مريم دوراً خطيراً ..

كما هو دائماً في حياة جميع الأنبياء ..

ورأينا كيف كان يراه النبي صلى الله عليه وسلم ولا يراه أصحابه ..

وكيف كان يتمثل له أحياناً في صورة أحد أصحابه ..

وكيف رآه صلى الله عليه وسلم مرتين على صورته الحقيقية الرهيبة !.

وإذا كان جبريل قد بلغ من الضخامة والفخامة أن أفق السماء لم يسع جناحاً واحداً من أجنحته .. فكيف به كله في حقيقته ؟!

وإنما نريد بذلك .. أن نهز تلك العقول التي تزلزلت .. حين حملت مريم .. بابنها .. من غير أن يمسسها بشر ..

وقالوا : أنى هذا .. إلا أن يكون ابنا لله ؟!.

ولو أنهم تفكروا قليلاً في عجائب الملائكة ..

وأنها تستطيع أن تنفخ الروح بإذن ربها ..

لقالوا : انما المسيح آية من آيات الله .. ليس إلا !.

فماذا عن الملائكة في حياة زكريا ؟

إن الله يبشرك بيحيى ؟!

قال عز من قائل :

« فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيّداً وحصوراً ونبياً من الصالحين .

« قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء .

« قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم النـــاس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبّح بالعشيّ والإبكار » .

[آل عمران ٣٩ — ٤١]

هذا هو النص المقدس .. العزيز .. الكريم .. الذي هـــو أصدق كلام في هذا السبيل ..

فلننظر الآن .. عجائب التجربة .. التي دخلها زكريا .. وغرائب المفاجأة؟!

فنادته الملائكة ؟!

« فنادته الملائكة » المراد من الملائكة جبريل عليه السلام ..

وقيل : الجمع على حاله ، والمنادى كان جملة من الملائكة ..

« وهو قائم يصلي » المراد بالصلاة ذات الأقوال والأفعال كما هو الظاهر ..

وقيل : المراد بها الدعاء ..

« في المحراب » في المسجد .. في موقف الامام منه ..

وبلغة أهل الكتاب : في الهيكل ..

« أن الله يبشرك بيحى » بأن الله .

وقرىء : إنّ .

أي : ان الله يبشرك بولادة غلام اسمه يحيى ..

ووجه تسميته بذلك :

بأن الله تعالى أحيا به عقر أمه ..

أو : بأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان ..

أو : لأنه علم الله سبحانه أنه يستشهد والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

أو : لأنه يحيا بالعلم والحكمة اللتين يؤتاهما ..

أو : لأن الله يحيي به الناس بالهدى ..

وفي إنجيل متى : أنه كان يدعى يوحنا المعمداني لمـــا أنه كان يعمد الناس في زمانه ..

« مصدقاً بكلمة من الله » المراد بالكلمة عيسى عليه السلام ..

وعليه أجلة المفسرين ..

وإنما سمى عيسى عليه السلام بذلك لأنه وجد بكلمة — كن — من دون توسط سبب عادي ..

فشابه البديعيات التي هي عالم الأمر ..

أي : بكلمة كائنة منه تعالى ..

وأريد بهذا التصديق الإيمان ..

وهو أول من آمن بعيسى عليه السلام ، وصدق أنه كلمة الله تعالى وروح منه في المشهور ..

عن ابن عباس : « كان يحيى وعيسى ابني خالة .

« وكانت أم يحيى تقول لمريم : إني أجـــد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك » .

فذلك تصديقه له ..

وكان أكبر من عيسى بستة أشهر ..

« وسيدا » وكريماً .. وتقياً .. وشريفاً .. وفقيهاً ..

وأصل معنى السيد : من يسود قومه ، ويكون له أتباع ..

ثم أطلق على كل فائق في دين أو دنيا ..

ويجوز أن يراد به هنا : الفائق في الدين حيث أنه عليه السلام لم يهم بمعصية أصلا كما ورد ذلك من طرق عديدة .

أخرج ابن أبي حاتم ، وابن عساكر ، عن أبي هريرة :

« أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« كل ابن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه .

« يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه .

« إلا يحيى بن زكريا » .

وجوز أن يراد ما هو أصل معناه ، فإنه عليه السلام كان سيد قومه ، وله أتباع منهم ..

« وحصوراً » معناه : الذي لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك .

أو : أن يراد بالحصور المبـــالغ في حصر النفس وحبسها عن الشهوات ، مع القدرة ..

وقد كان حاله عليه السلام أيضاً كذلك ..

« ونبياً من الصالحين » ناشئاً منهم .. أو معدوداً في عدادهم ..

أو : المراد من الصلاح ما فوق الصــلاح الذي لا بد منه في منصب النبوة ألبتة ، من أقاصي مراتبه .

أنى يكون لي غلام ؟!

« قال : رب أنى يكون لي غلام » ؟!. كأنه قيل : فــماذا قال زكريا عليه السلام حينئذ ؟

فقيل : (قال : رب) الخ .

وخاطب عليه السلام ربه سبحانه ولم يخاطب الملَك المنادى طرحـــاً للوسائط ، مبالغة في التضرع ، وجدا في التبتل ..

وأنى : بمعنى : كيف ؟!

أو : من أين ؟!

« وقد بلغني الكبر » وقد أدركني الكبر ، وأثر فيّ ؟

عن ابن عباس : أنه كان له عليه السلام – حين بشر بالولد – مائة وعشرون سنة ، وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة !.

« وامرأتي عاقر » وزوجتي عقيم ، لم تلد طيلة حياتها ؟!

وإنما قال ذلك عليه السلام مع سبق دعائه بذلك ، وقوة يقينه بقدرة الله تعالى عليه .

لا سيا بعد مشاهدته عليه السلام الشواهد السالفة .

استفساراً عن كيفية حصول الولد : أيعطاه على ما هـــو عليه من الشيب ونكاح امرأة عاقر أم يتغير الحال ؟

وقيل : اشتبه عليه الأمر ، أيعطى الولد من امرأته العجوز ، أم من امرأة أخرى شابة ؟ فقال ما قال ..

وقيل : قال ذلك على سبيل الاستعظام لقدرة الله تعالى والتعجب الذي يحصل للإنسان عند ظهور آية عظيمة .

كذلك ... الله يفعل ما يشاء ؟!

« قال » قال الرب ..

« كذلك الله يفعل ما يشاء » أي : يفعل الله ما يشاء أن يفعله من الأفعال العجيبة الخارقة للعادة .. فعلاً مثل ذلك الفعل العجيب .. والصنع البديع .. الذي هو خلق الولد مع الحالة التي يستبعد معها الخلق بحسب العادة ..

أو : يفعل الله الفعل كائناً مثل ذلك ..

أو : كهذا الشأن العجيب شأن الله تعالى ..

أو : الأمر (كذلك) .. الله يفعل ما يشاء ..

أو : كأنه قال : رب على أي حال يكون لي الغلام ؟

فقيل له : كما أنت يكون الغلام لك .

اجعل لي آية ؟!

« قال » زكريا . .

« اجعل لي آية » اجعل لي معجزة ..

اجعل لي علامة تدلني على وقوع الحمل ..

وإنما سألها استعجالاً للسرور ..

أو : ليتلقى تلك النعمة بالشكر حين حصولها ، ولا يؤخر حتى تظهر ظهوراً معتاداً ..

« قال » الله ..

« آيتك ألا تكلم الناس » أن لا تقدر على تكليمهم .. من غير آفة ..

والآية فيه عدم منعه من الذكر والتسبيح ..

وعدم التكليم اضطراري ..

وقيل : انه اختياري ..

والمعنى : آيتك أن تصير مأموراً بعدم التكلم إلا بالذكر والتسبيح .

أو : كناية عن القيام لأنهم كانوا إذ ذاك إذا صاموا لا يكلموا أحداً ..

« ثلاثة أيام » متوالية ..

والمراد : ثلاثة أيام ولياليها ..

وإنما جعل عقل اللسان آية العلوق لتخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاء لحق النعمة .

كأنه قيل له : آية حصول النعمة أن تمنع عن الكلام إلا بشكرها ..

« إلا رمزاً » إلا إيماء .. إلا إشارة ..

عن ابن عباس : الإشارة باليد ، والوحي بالرأس ..

والرمز : الاشارة والافهام من دون كلام ..

واذكر ربك كثيراً ؟!

« واذكر ربك » في أيام الحبسة شكراً لتلك النعمة ..

كما يشعر به التعرض لعنوان الربوبية ..

ويحتمل أن يكون الأمر بالذكر شكراً للنعمة مطلقاً لا في خصوص تلك الأيام ، وأن يكون في جميع أيام الحمل لتعود بركاته عليه ..

والمنساق إلى الذهن هو الأول ..

« كثيراً » ذكراً كثيراً .. وزماناً كثيراً ..

« وسبح بالعشي » من العصر الى ذهاب صدر الليل ..

« والإبكار » من الفجر الى الضحى ..

أي : ووقت الإبكار ..

اشعاعات الآيات ؟!

قالوا في الآيات :

ان زكريا عليه السلام كان شيخاً هرماً ، وكان مرشداً للناس ..

فلما رأى ما رأى تحركت غيرة النبوة فطلب من ربه ولداً حقيقيــاً يقوم مقامه في تربية الناس وهدايتهم ..

فقال : (هب لي من لدنك ذرية طيبة) .

أي : مطهرة من لوث الاشتغال بالسوي ، منفردة عن ارادتها ..

مقدسة من شهواتها ..

(فنادته الملائكة وهو قائم) على ساق الخدمة .

(يصلي في المحراب) وهو محل المراقبة ومحاربة النفس .

(إن الله يبشرك بيحيى) وسمى به لأن من شاهد الحق في جمال نبوته يحيا قلبه من موت الفترة ..

أو : لأنه هو يحيا بالنبوة والشهادة (مصدقاً بكلمة من الله) وهو ما ينزل به الملك على القلوب المقدسة ..

(وسيداً) وهو الذي غلب عليه نور هيبة عزة الحق ..

وقال الصادق : هو المباين للخلق وصفاً وحالاً وخلقاً ..

وقال الجنيد : هو الذي جاد بالكونين طلباً لربه ..

وقال ابن عطاء : هو المتحقق بحقيقة الحق ..

وقال ابن منصور : هو من خلا عن أوصاف البشرية ، وحلى بنعوت الربوبية .

وقال محمد بن علي : هو من استوت أحـــواله عند المنع والإعطاء ، والرد والقبول ..

(وحصوراً) وهو الذي حصر ، ومنع عن جميـــع الشهوات ، وعصم بالعصمة الأزلية ..

وقال الاسكندراني : هو المنزه عن الأكوان وما فيها ..

(ونبياً) أي مرتفع القدر بهبوط الوحي عليه ..

ومعدوداً (من الصالحين) وهم أهل الصف الأول من صـــفوف الأرواح المجندة المشاهدة للحق في مرايا الخلق ..

قال استعظاماً للنعمة : (أنى يكون لي غلام) ..

والحال (قد بلغني الكبر) وهو أحد الموانع العادية ..

(و امرأتي عاقراً) وهو مانع آخر ..

(قال : كذلك ، الله يفعل ما يشاء) حسبما تقتضيه الحكمة ..

(قال : رب اجعل لي آية) على العلوق لأشكرك على هذه النعمة ..

إذ شكر المنعم واجب ، وبه تدوم المواهب الإلهية ..

(قال : آيتك ألا تكلم الناس) بأن يحصر لسانك عن محادثتهم ..

ليتجرد سرك لربك ..

ويكون ظاهرك وباطنك مشغولاً به ..

(إلا رمزاً) تدفع به ضيق القلب عند الحاجة ..

وحقيقة الرمز عند العارفين ، تعريض السر إلى السر ..

وإعلام الخاطر للخاطر ..

بنعت تحريك سلسلة المواصلة بين المخاطب والمخاطب ..

(واذكر ربك كثيراً) بتخليص النية عن الخطرات ..

وجميع الهموم بنعت تصفية السر في المناجاة ..

وتحير الروح في المشاهدات ..

(وسبح) أي نزّه ربك عن الشركة في الوجود ..

(بالعشي والإبكار) بالفناء والبقاء ..

* * *

ومن تلك الأعالي العليا .. بل هو أعلى ..

تخلق الطفل الذي اسمه « يحيى » .. ليخرج الى الحياة ..

نوراً يسعى في صورة بشر !.

كيف سجّل الإنجيل هذه القصة ؟!

مررنا مرّاً عاجلاً بشيء مما سجله كتاب الله تعالى عن ذلك المشهد ..

وها نحن ننقل هنا ما سجله الإنجيل في هذا السياق ..

وسوف نلمس من خلاله .. أن ما سجله القرآن .. سبق ذكره في الإنجيل !.

وصدق الله تعالى : « وإنه لفي زُبُرِ الأوَّلين » !.

[الشعراء ١٩٦]

أي : وإن ما أنزل اليك سبق ذكره في كتاب الأولين ..

جاء في إنجيل لوقا .. ما نصه :

« كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيّا وامرأته من بنات هرون واسمها اليصابات[1] .

« وكانا كلاهما بارّين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب ، وأحكامه بلا لوم .

« ولم يكن لهما ولداً إذ كانت اليصابات عاقراً وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما .

« فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله .

« حسب عادة الكهنوت أصابته القرعة أن يدخل الى هيكل الرب ويبخّر .

« وكان كل جمهور الشعب يُصلون خارجاً وقت البخور .

« فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور[2] .

« فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف .

« فقال له الملاك لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا[3] .

---

(١) أو اليزابيث .

(٢) نفس ما سجله كتاب الله .. القرآن الكريم .. حيث قال : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب » !..

(آل عمران ٣٩)

(٣) نفس ما ورد في كتاب الله .. « ان الله يبشرك بيحيى » ..

(آل عمران ٣٩)

وقوله سبحانه « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى » ..

[مريم ٧]

« ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته .

« لأنه يكون عظيماً أمام الرب وخمراً ومسكراً لا يشرب .

« ومن بطن أمّه يمتلىء من الروح القدس .

« ويرد كثيرين من بني اسرائيل الى الرب إلهم .

« ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرُد قلوب الآباء إلى الأبناء والعصاة الى فكر الأبرار لكي يُهيِّىء للرب شعباً مستعداً[1] .

فقال زكريا للملاك : كيف أعلم هـــذا لأني أنا شيخٌ وامرأتي متقدمة في أيامها[2] ؟.

« فأجاب الملاك وقال له : أنا جبرائيل الواقف قُــدّام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا[3] .

« وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته .

---

(١) هذه المعاني كلها .. بجملة اجمالاً تاماً في قوله سبحانه : « مصدقاً بكلمة من الله ، وسيداً ، وحصوراً ، ونبياً ، من الصالحين » .

(آل عمران ٣٩)

(٢) نفس ما سجله كتاب الله : « قال : رب أنى يكون لي غلام وقــد بلغني الكبر وامرأتي عاقر » ؟..

(آل عمران ٤٠)

(٣) هذه المعاني مكنونة في قوله تعالى المعجز : « ... كذلك الله يفعل ما يشاء » !..

(آل عمران ٤٠)

(٤) تجد ذلك كله في قوله سبحانه : « ... قال : آيتك ألا تكلم النـــاس ثلاثة أيام إلا رمزاً » !..

(آل عمران ٤١)

« وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه في الهيكل .

« فلما خرج لم يستطيع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل . فكان يومىء اليهم وبقي صامتا[1] .

« ولما كملت أيام خدمته مضى الى بيته .

« وبعد تلك الأيام حبلت اليصابات امرأته وأخفت نفسها خمسة أشهر قائلة:

« هكذا قد فعل بي الربُّ في الأيام التي فيهـــا نظر إلي لينزع عاري بين الناس » .

* * *

هذه فقرات نقلناها من إنجيل لوقا .. وذكرنا ما يماثلهـــا من كتاب الله الأخير .. القرآن العظيم ..

ليتبين لكل إنسان : كيف أن إعجاز القرآن بلغ حداً .. جعله مهيمناً على ما سبق عليه من الكتب !.

فهو يذكر أهم ما فيها .. في شمول .. وإحاطة .. وتفصيل .. وإجمال .. في كمال .. ما بعده من كمال !.

وإنما يعتبر كتاب الله الأخير .. القرآن العظيم .. أصدق .. وأعلى .. وأكمل .. وأشمل .. مرجع .. في الدين والدنيا .. لأن الله تعالى يتكلم فيه .. مباشرة . .

ومن أصدق من الله قيلا ؟!.

---

(١) تجد ذلك كله .. واضحاً .. في قوله سبحانه : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » .

(مريم ١١)

وإذ قالت الملائكة ... يا مريم ...
إن الله اصطفاك ؟!...

أبدع ...

وأعجب .. وأغلى .. وأعلى .. فصول هذا الكتاب ..

هذا الفصل الذي ندخل اليه الآن !.

ففيه ذلك الوسام الأسمى .. الذي تفضل الله تعالى به .. على تلك الفتاة .. العذراء .. اليتيمة .. المنطقة لعبادته ..

فصارت من لحظتها .. أفضل نساء العالمين ..

وذلك الوسام .. هو قوله سبحانه : « وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » .

[آل عمران ٤٢]

هذه هي الآية العظمى .. التي أعلنت ..

أن مريم .. قمة .. قمم نساء العالم !.

« وإذ » واذكر أيضاً من شواهد اصطفاء آل عمران .. وقت قول الملائكة عليهم السلام ..

« قالت الملائكة » المراد من الملائكة رئيسهم جبريل عليه السلام ..

أو : جملة من الملائكة ..

« يا مريم » ماري .. ماري .. أيتها العذراء ماري ..

هنالك التفتت مريم ..

فماذا كان هناك ؟!

هناك جبريل .. الأمين .. ذلك الملاك العظيم ..

أو هناك .. جمع من الملائكة .. على من أخذ بظاهر قوله تعـــالى « وإذ قالت الملائكة » !.

وجعل جبريل يقول لها ..

أو : وجعلت الملائكة تقول لها !.

« ان الله اصطفاك » ان الله اختارك .. من أول الأمر .. ولطف بك .. وميزك على كل محرَّر .. وخصك بالكرامات السنية .

والتأكيد اعتناء بشأن الخبر ..

وقول الملائكة لها ذلك كان شفاهاً على ما دامت عليه الأخبار ، ونطقت به الظواهر ..

وفي بعض الآثار ما يقتضي تكرر هذا القول من الملائكة لها ..

وعلى هذا يكون التكليم من باب الكرامة التي يمنّ بهـــا الله سبحانه على خواص عباده ..

واستدل بهذه الآية من ذهب الى نبوة مريم ..

لأن تكليم الملائكة يقتضيها ..

ومن الناس من استدل على عدم استنباء النساء بالإجماع ..

وبقوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً) .

ولا يخفى ما فيه !

أما أولاً فلأن حكاية الإجماع في غاية الغرابة .

فإن الخـــلاف في نبوة نسوة ، كحواء ، وآسية ، وأم موسى ، وسارة ، وهاجر ، ومريم .. موجود .

خصوصاً مريم .. فإن القول بنبوتها شهير ..

بل مال الشيخ تقي الدين السبكي ، وابن السيد الى ترجيحه .

وذكر أن ذكرها مع الأنبياء في سورتهم قرينة قوية لذلك .

وأما ثانياً فلأن الاستدلال بالآية لا يصح ، لأن المذكور فيها الإرسال ، وهو أخص من الاستنباء على الصحيح المشهور .

وطهّرك ؟!

وسام آخر .. يوضع على جبين .. تلك الخالدة .. التي اسمها « مريم » !.

« وطهّرك » ان الله طهرك .

أي : طهرك من الأقذار الحسية ، والمعنوية ، والقلبية ، والقالبية .

أو : طهرك بالإيمان عن الكفر ، وبالطاعة عن المعصية .

أو : نزهك عن الأخلاق الذميمة ، والطباع الرديئة ..

والأولى : الحمل على العموم ..

ما معنى : « وطهرك » ؟!

مكنون فيها بحار .. من أنوار .. تتلالى .. وتتعالى ..

طهر قلبك .. عن الالتفات الى ما سواه ..

وطهر سرك .. عن مناجاة غيره ..

وطهر روحك .. عن الظلمات ..

وطهر ظاهرك . من المعاصي ..

وطهر جوارحك .. من خدمة غير الله ..

فهي نور تخلّق .. في أنثى ..

أو أنثى تخلقت .. من نور !.

واصطفاك ؟!

يحتمل أن يراد بهذا الاصطفاء غير الاصطفاء الأول .

وهو ما كان آخراً .. من هبة عيسى عليه السلام لها .. من غير أب ..

ولم يكن ذلك لأحد من النساء .

وجعلها وإياه ، آيةً للعالمين ..

ويحتمل أن يراد به الأول .. وكرر للتأكيد ، وتبين من اصطفاها عليهن .

وعلى الأول أن يكون تقديم حكاية هذه المقاولة على حكاية بشارتها بعيسى عليه السلام .. للتنبيه على أن كلا منهما مستحق للاستقلال بالتذكير .

وعلى الثاني لا إشكال في الترتيب .. وتكون حكمة تقدم هذه المقاولة على البشارة ، الإشارة إلى كونها عليها السلام قبل ذلك مستعدة لفيضان الروح عليها. بما هي عليه من التبتل والانقياد حسب الأمر ..

على نساء العالمين ؟!

ما المراد من نساء العالمين ؟!

قيل : جميع النساء في سائر الأعصار ..

واستدل به على أفضليتها على فاطمة ، وخـــديجة ، وعائشة ، رضي الله تعالى عنهن ..

وأيد ذلك بما أخرجه ابن عساكر ، في أحد الطرق ، عن ابن عباس أنه قال:

« قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران .

« ثم فاطمة .

« ثم خديجة .

« ثم آسية امرأة فرعون » .

وبما أخرجه ابن أبي شيبة عن مكحول .

وقريب منه ما أخرجه الشيخان ، عن أبي هريرة قال :

« قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« خير نساء ركبن الإبل نساء قريش .

« أحناه على ولد في صغره .

« وأرعاه على بعل في ذات يده .

« ولو علمت أن مريم ابنة عمران ركبت بعيراً .

« ما فضلت عليها أحداً » .

وبما أخرجه ابن جرير ، عن فاطمة صلى الله تعالى على أبيها وعليها وسلم ، أنها قالت :

« قال لي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

« أنت سيدة نساء أهل الجنة .

« إلا مريم البتول » .

وقيل المراد نساء عالمها . .

فلا يلزم منه أفضليتها على فاطمة رضي الله تعالى عنها .

ويؤيده ما أخرجه ابن عساكر ، من طريق مقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال :

« أربع نسوة ، سادات عالمهن .

« مريم بنت عمران .

« وآسية بنت مزاحم .

« وخديجة بنت خويلد .

« وفاطمة بنت محمد – صلى الله عليه وآله وسلم –

« وأفضلهن عالماً فاطمة » .

وما رواه الحرث بن أسامة في مسنده بسند صحيح لكنه مرسل .

« مريم خير نساء عالمها » .

وإلى هذا ذهب أبو جعفر رضي الله تعالى عنه .

وهو المشهور عن أئمة أهل البيت .

قال الألوسي ، صاحب التفسير :

« والذي أميل اليه ،أن فاطمة البتول أفضل النساء المتقدمات والمتأخرات.

« من حيث أنها بضعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

« ومن حيثيات أخر أيضاً .

« ولا يعكر على ذلك الأخبار السابقة ، لجواز أن يراد بها أفضلية غيرها عليها من بعض الجهات ، وبحيثية من الحيثيات .

« وبه يجمع بين الآثار .

« وهذا سائغ على القول بنبوة مريم أيضاً .

« إذ البضعية من روح الوجود ، وسيد كل موجود ، لا أراها تقابل بشيء .

« وأين الثريا من يد المتناول .

« ومن هنا يعلم أفضليتها على عائشة رضي الله تعالى عنها ، الذاهب إلى خلافها الكثير » . .

إلى أن قال :

« وبعد هذا كله الذي يدور في خلدي .

« أن أفضل النساء فاطمة .

« ثم أمها .

« ثم عائشة .

« بل لو قال قائل : ان سائر بنات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل من عائشة .. لا أرى عليه بأساً .

« وعندي بين مريم وفاطمة توقف ، نظراً للأفضلية المطلقة .

« وأما بالنظر إلى الحيثية فقد علمت ما أميل اليه .

« وقد سئل الإمام السبكي عن هذه المسألة فقال :

« الذي نختاره ، وندين الله تعالى به أن فاطمة بنت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل .

« ثم أمها .

« ثم عائشة .

« ووافقه في ذلك البلقيني .

« وبعضهم لما رأى تعارض الأدلة في هذه المسألة توقف فيها .

« وإلى التوقف مال القاضي أبو جعفر .

« وذهب ابن جماعة إلى أنه المذهب الأسلم » .

هذا قليل .. من تفصيل .. ذلك البحث الجميل ..

: هل مريم أفضل النساء على الإطلاق ؟!.

: أم فاطمة ؟!.

: أم هما سواء ؟!.

: أم أن كل واحدة منهما سيدة نساء زمانها ؟!.

: أم أن كل واحدة منهما سيدة نساء أمتها ؟!.

اسجدي ... واركعي ... مع الراكعين ؟!...

حمل اليها البشرى ..

أحلى .. وأغلى .. بشرى ..

أعظم الملائكة مقاماً .. ذلك المسمى « جبريل » !.

وناداها : يا مريم .. ان الله اصطفاك .. وطهرك .. واصطفاك .. على نساء العالمين .

كأن جبريل يريد أن يقول لهـــا : ان الله هو الذي اختارك .. وهو أعلم بعباده ..

: وهو الذي تولى تطهيرك .. ظاهراً وباطناً ..

لمـــاذا ؟ !

: لأنه هو سبحانه قد اختارك من دون النساء جميعاً ..

: لتكوني موضــــع أعجب تجربة .. في تاريخ الجنس البشري كله .. إلى يوم القيامة ..

: تجربة تغيير الناموس الطبيعي .. وإحداث خلق إنسان من غير أب .. من غير تلقيح !.

كأن شيئاً من هذا .. تجده مكنونا في ثنايا كلام جبريل .. اليها ..

وسمعت مريم ..

أحلى .. وأجمل .. ما يمكن أن تسمعه أنثى الى يوم القيامة .. « واصطفاك على نساء العالمين » !.

مجد .. عظمة .. رُقي .. سمو .. فضل .. عطاء .. بهاء .. جمال ..
قل ما شئت .. كل ذلك قد آتاها ربها ..
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء !.

يا مريم اقنتي !؟...

« يا مريم » تكرير النداء .. للإشارة إلى الاعتناء بما يرد بعد ..
كأنه هو المقصود بالذات ، وما قبله تمهيد له ..
والظاهر أنه من مقول الملائكة أيضاً ..

وصّوها بالمحافظة على الصلاة ، بعد أن أخبروها بعلو درجتها ، وكال قربتها إلى الله تعالى ، لئلا تفتر ولا تغفل عن العبادة ..

« اقنتي » القنوت إطالة القيام في الصلاة ..
أو : ادامة الطاعة ..
أو : الإخلاص في العبادة ..

« لربك » التعرض لعنوان الربوبية للاشعار بعلة وجوب امتثال الأوامر .
كان ذلك شيئاً من توجيه جبريل .. أو الملائكة .. لمريم ..
قال تعالى : « يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » .
[آل عمران ٤٣]

لماذا أمروها بذاك ؟!
لماذا نادتها الملائكة : يا مريم ، اقنتي لربك ؟!
تربية لها .. وتحطيماً لرؤية النفس من أعماقها !.

قالوا : وكأن أمرها بذلك حفظاً لهـــا من الوقوع في مهاوي التكبر والاستعلاء بما لها من علو الدرجة !.

ولكن ما هو هذا القنوت الذي يأمرها به جبريل ؟!

مكنونة .. فيما يبدو لي هو الآتي ..

يا مريم .. اتجهي بقلبك دائماً .. اليه هو وحده ..

يا مريم .. سيري اليه .. في مقامات النور سيراً ..

يا مريم .. اطوي .. الأكوان .. واذهبي الى ربك ..

يا مريم .. هـــو الذي تقبل نداء أمك .. إذ نادت : رب اني نذرت لك ما في بطني محرّراً فتقبل مني ..

فتكونتِ من إشعاعات أنوار قلبها إذ نادت ربها ..

يا مريم .. هو الذي أنبتك نباتاً حسناً ..

وها هو سبحانه يبعثني اليك لأبشرك أنه تعالى اصطفاك .. وطهرك .. واصطفاك على نساء العالمين ..

يا مريم .. ما أعظم نعمته تعالى عليك ..

فحقٌ .. أن تتجهي اليه بقلبك دائماً ..

ذلك شيء مما أراه مكنوناً .. في قول الله تعالى « اقنتي لربك » !.

واسجدي ... واركعي ؟!...

أمواج .. شعشعانياتها .. توشك من جمالهـــا الأخاذ الجذّاب .. أن تذهب بالأبصار !.

اسمع أيها القارىء .. الى ربك العظيم .. الكريم .. يأمر مريم :

« واسجدي .. واركعي .. مع الراكعين » !.

تالله .. وبالله .. ووالله ..

ان هذا لهو كلام الله ..

ويستحيل أن يقول هذا أحد إلا الله !.

لماذا هذا ؟!

لأن جلال الألوهية .. وجمـــال الربوبية .. يتشمشعان من أنوارها .. بعيداً بعيداً !.

اسجدي ؟ ! .

واركعي ؟!.

مع الراكعين ؟ ! .

من هم أولاء « الراكعين » الذين يأمرها الله تعالى أن تكون معهم ؟!

هم عباده الأعلون .. هم أنبياؤه ورسله ..

هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين .. والصديقين .. والشهداء .. والصالحين .

تماماً كما قال سبحانه .. لآخر النبيين :

« وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك حين تقوم . وتقلبك في الساجدين ».

[الشعراء ٢١٧ — ٢١٩]

أي : سيري يا مريم بقلبك الينا .. سيراً عظيماً .. سريعاً ..

ولتكن جوارحك تعبيراً صادقاً .. لحقيقة ما في قلبك ..

فاسجدي دائماً .. واركعي دائماً .. مع الراكعين !.

وذلك مقام من مقامات مريم العُلى ..

إنها تنادى بما يناسب عظمة مقامها ..

يا مريم .. سيري الينا .. باطناً ..

وسيري الينا .. ظاهراً .. بإدامة السجود والركوع .. بإدامة الصلاة ..

ولمريم .. في ذلك النداء الموجه اليها .. مفاهيم .. فوق ما نفهم جميعاً ..

فسبحان من آتاها .. وأعطاها .. واصطفاها .. على نساء العالمين !.

وللقلوب ركوع .. والركوع نصف السجود .. ومقدمة له ..

وللقلوب سجود .. والسجود تمام الركوع ..

انه يأمرها .. أن تسير في موكب أهل النور ..

لتأخذ مقامها .. في مقدمة النساء أجمعين !.

قالوا : لعل تقديم السجود على الركوع لأنه أفضل أركان الصلاة ، وأقصى مراتب الخضوع ..

وفي الخبر : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » .

وفي قوله تعالى « .. واسجد واقترب » .

[العلق ١٩]

ما يشير الى حقيقة ما ورد في الحديث .. من أن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ..

والمراد بالسجود في باطنه : سجود القلب لله ..

وفي ظاهره : سجود المساجد لله ..

وهي السبع المساجد التي أمرنا أن نسجد عليها ..

وهي الوجه والكفين والركبتين والقدمين ..

فهل امتثلت مريم ما أمرت ؟!

لقد كانت قانتة ، ساجدة ، راكعة ..

فلما نوديت .. وأمرت : اقنتي .. واسجدي .. واركعي ..

ازدادت قنوتاً .. وسجوداً .. وركوعاً ..

أخرج ابن جرير ، عن الأوزاعي : « وكانت تقوم حتى يسيل القيح من قدميها » !

وأخرج ابن عساكر في الآية ، عن أبي سعيد قال :

« كانت مريم تصلي حتى تورم قدماها » !.

وكذلكم دائماً .. هؤلاء الذين اصطفاهم رب العالمين !

يؤدون ما عليهم نحو ربهم .. كأعلى .. وأرقى .. وأخلص .. وأشد .. ما يمكن أن يتحمله بشر ..

وسلام على عباده الذين اصطفى !.

يا مريم ... إن الله يبشرك ...
بكلمة منه ... اسمه المسيح ؟!...

كانت ...

البشريات الأولى .. إذ ناداها جبريل : « يا مريم إن الله اصطفاك، وطهرك، واصطفاك على نساء العالمين » .

[آل عمران ٤٢]

وإذا ناداها :

« يا مريم اقنتي لربك ، واسجدي ، واركعي مع الراكعين » .

[آل عمران ٤٣]

كانت تلك البشريات .. إلى مريم وهي صغيرة ..

الأولى لإعلامها .. حقيقة مقامها .. عند الله .. ولتعلم أن الله اصطفاها على نساء العالمين ..

فتزداد إدراكاً لعظمة شخصيتها .. وسمو درجتها ..

والثانية .. تربية لها .. وكسراً لرؤية النفس من تكوينها ..

فلما تم التمهيد بذلك .. لتحتمل ما هو أشق ..

جاءها جبريل .. عليه السلام .. ذات يوم .. ليبشرها بأعجب بشرى تسمعها أنثى في حياتها !.

بكلمة ... منه ؟!

قال تعالى :

« إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين .

« ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين » .

[آل عمران ٤٥ و ٤٦]

« إذ قالت الملائكة » شروع في قصة عيسى عليه السلام ..

والمراد بالملائكة جبريل عليه السلام على المشهور ..

والقول شفاهي ..

« يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه » إطلاق الكلمة على من أطلقت عليه باعتبار أنه خلق من غير واسطة أب ..

بل بواسطة « كُن » فقط ..

على خلاف أفراد بني آدم .. فكان تأثير الكلمة في حقه أظهر وأكمل ..

وعلى ذلك أكثر المفسرين .. وأيدوا ذلك بقوله تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) .

« اسمه » الذي يعرف به ، ويميز به عما سواه ..

« المسيح » لقبه عليه السلام ..

وهو له من الألقاب المشرفة كالفاروق ..

واختلفوا في وجه اطلاقه على عيسى عليه السلام ..

عن ابن عباس : لأنه كان لا يمسح ذا عاهة بيده إلا برىء .

وقالوا : جعل لقب تشريف له عليه السلام .. كالخليل لإبراهيم ..

« عيسى » هو عيسى ..

و (عيسى) معرب أيشوع .. ومعناه السيد ..

« ابن مريم » إنما قيل : (ابن مريم) مع كون الخطاب لها تنبيهاً على أنه يولد من غير أب ، ولو كان له أب لنسب اليه ..

وفي ذلك رمز إلى تفضيل الأم أيضاً ..

وجيهاً ... في الدنيا ... والآخرة ؟!

« وجيهاً » الوجيه ذو الجاه .. والشرف .. والقدر ..

أي : شريفاً .. عظيماً ..

« في الدنيا والآخرة » وجاهته في الدنيا بالنبوة والتقدم على الناس ..

وفي الآخرة بقبول شفاعته وعلو درجته ..

وقيل : وجاهته في الدنيـــا بقبول دعائه بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص .

وقيل : بسبب أنه كان مبرءاً من العيوب التي افتراها اليهود عليه ..

: وفي الآخرة ما تقدم ..

« ومن المقربين » عند الله يوم القيامة ..

وقيل : هو إشارة الى رفعه إلى السماء وصحبته الملائكة ..

وقيل : من المقربين من الناس بالقبول والإجابة ..

أي : ومقرباً من جملة عظماء المقربين ..

ويكلم الناس في المهد ؟!

« ويكلم الناس في المهد وكهلا » المقصود التسوية بين الكلام في حال الطفولية وحال الكهولة ..

وإلا فالكلام في الثاني ليس مما يختص به عليه السلام وليس فيه غرابة ..

وقيل : ان كلا منهما حال .. والثاني تبشير ببلوغ سن الكهولة وتحديد لعمره ..

والمهد : مقر الصبي في رضاعه ..

وكان كلامه (في المهد) ساعة واحدة بما قص الله تعالى لنا ، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام .. قاله ابن عباس ..

وقالوا : « ان مريم لما أتت قومها بعيسى أخذوا الحجارة وأرادوا أن يرجموها .

« فلما تكلم عيسى تركوها ..

« ثم لم يتكلم بشيء بعدها ، حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان » .

وقيل : كان يتكلم دائماً .. وكان كلامه فيه تأسيساً لنبوته ، وإرهاصاً لها .

وجوز أيضاً أن يكون ذلك كرامة لمريم ، دالة على طهارتها ، وبراءة ساحتها ، مما نسبه أهل الإفك اليها ..

والقول : بأنه معجزة لها بعيد .. وإن قلنا بنبوتها ..

قالوا : « وزعمت النصارى أنه عليه السلام لم يتكلم (في المهد) ولم ينطق ببراءة أمه صغيراً ، بل أقام ثلاثين سنة واليهود تقذف أمه بيوسف النجار .

« واعترضوا بأن كلامه في المهد من أعجب الأمور .

« فلو كان لنقل ، ولو نقل لكان النصارى أولى الناس بمعرفته .

« وأجيب بأن الحاضرين إذ ذاك لم يبلغوا مبلغ التواتر .

« ولما نقلوا كذبوا ، فسكتوا .

« وبقي الأمر مكتوماً الى أن نطق القرآن به ..

« وهذا قريب على قول ابن عباس : إنه لم يتكلم إلا ساعة من نهار .

« وعلى القول الآخر ، وهو أنه بقي يتكلم ، يقال : ان الناس اشتغلوا بعد بنقل ما هو أعجب من ذلك من أحواله كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، والإخبار عن الغيوب ، والخلق من الطين كهيئة الطير ، حتى لم يذكر التكلم منهم إلا النزر ، ولا زال الأمر بقلة حتى لم يبق مخبر عن ذلك .

« وبقي مكتوماً إلى أن أظهره القرآن » .

والكهل ما بين الشاب والشيخ .

ومنه الكهَل النبت اذا طال وقوى .

فما معنى هذا ؟

معناه أن المسيح عليه السلام .. سينطلق .. ويكلم الناس كلاماً محكماً .. لا يصدر إلا عن الأنبياء .. وهو في المهد .. وهو مولود لساعته ..

وتلك معجزة خاصة به ..

وأنه سيكلم الناس كهلا .. أي رجلا عاقلا عظيماً .. أي نبيـــاً يدعوهم إلى ربهم ..

فمعنى « يكلم الناس » أي يدعوهم إلى ربهم .. يبتغهم رسالات ربهم ..

ليس مجرد الكلام .. وإنما كلام النبوة .

وقد كلمهم في المهد وقال لهم « .. إني عبد الله .. آتاني الكتاب .. وجعلني نبيا .

« وجعلني مبـــاركا أين ما كنت .. وأوصاني بالصلاة والزكاة .. ما دمت حيا .

« وبرا بوالدتي .. ولم يجعلني جبارا شقيا .

« والسلام علي .. يوم ولدت .. ويوم أموت .. ويوم أبعث حيا » .
[مريم ٣٠ - ٣٣]

والمعجزة في هذا أنه صدر عن طفل لم يمض على ولادته ساعات !.

والمعجزة الأخرى فيه أنه كلام لا يتكلم به إلا الأنبياء .. لمـــا فيه من الإحكام .. والإنباء بالغيوب !.

ثم تكلم عليه السلام .. كلامه العريض .. حتى صار كهلا .. في الثلاثين .. ووقف يدعو الناس إلى ربهم ..

وتلألأت منه عليه السلام إذ ذاك عجائب النبوة وآياتها !.

« ومن الصالحين » ومعدوداً في عدادهم ..

أي : ومن الذين بلغوا غاية مقامات الصلاح ..

تلك هي البشرى العجيبة .. التي شافه بهـــا جبريل عليه السلام .. مريم عليها السلام ..

بشرى .. هزت كيانها كله هزّاً ؟.

إن الله يبشرك بكلمة منه .. بأمر منه .. بمولود ذكر يولد بأمره .. يقول له « كن .. « فيكون » ..

اسمه المسيح .. يشتهر بهذا اللقب .. لأنه دائماً يسبح في الأرض .. وإذا مسح ذا عاهة برىء فوراً !.

عيسى بن مريم .. ويشتهر بهذا الاسم .. منسوبا اليك .. لأنه لا أب له ..

وجيهاً في الدنيا .. عظيماً في الحياة الدنيا ..

والآخرة .. وعظيماً في الحياة الآخرة ..

ومن المقربين .. ومن صفوة عبادنا المقربين .

ويكلم الناس في المهد .. سننطقه بكلام الأنبياء رضيعاً .

وكهلا .. ونبعثه الى الناس نبياً في الثلاثين يدعوهم الى ربهم .

ومن الصالحين .. ونجعله في أعلى درجات الصالحين .

وهكذا .. كانت البشرى التي نقلها جبريل عليه السلام .. الى مريم .. عن ربه تبارك وتعالى ..

خبراً عريضاً .. ونبأ هائلا عميقاً ..

هناك طفل سيولد منك يا مريم .. وسيكون « بكلمة منه » بأمر مباشر منه تعالى .. لا بواسطة أب ..

وسيكون ذلك الطفل عظيماً .. في هذه الحياة .. وفي الحياة الآخرة ..

وسوف تكون منه عجائب .. ومعجزات ..

وأوحى جبريل .. الى مريم ما أوحى ..

فكيف تلقت مريم تلك الأنباء الخطيرة ؟!.

أنى يكون لي ولد ... ولم يمسسني بشر ؟!...

نحن ...

الآن أمام حوار .. من أعجب وأغرب .. ما دار بين انسان .. وبين الله!.

وسوف نرى أعماقاً .. بعيدة .. سحيقة .. في ذلك الحوار ..

تكشف للبشر جميعاً .. آفاقاً .. من المعرفة ..

ما كانوا .. بقادرين على إدراكها .. لولا أن أوحاها الله تعالى .. الى رسله . في كتبه ..

ولنسمع أولاً .. الى النص المعجز .. ماذا يقول ؟

قال عز من قائل :

« قالت : رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ، قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون » .

[آل عمران ٤٧]

وسوف نسوق شيئاً من التفسير المألوف .. المتعارف عليه .. في مراجع التفسير ..

ثم نخلص منه .. الى اشعاعات الآية المحكمة .. لنستكشف منها أنوارها وأغوارها ..

« قالت » كأنه قيل : فماذا كان منها حين قالت لها الملائكة ذلك ؟

فقيل : قالت مريم ..

« رب » يا رب ..

وخاطبت عليها السلام ربها سبحانه مباشرة ، ولم تخاطب الملك طرحاً للوسائط ، مبالغة في التضرع ، وجدا في التبتل ..

« أنى يكون لي ولد » كيف يكون لي مولود ؟!.

أو : من أين يكون لي مولود ؟!.

يحتمل أن يكون الاستفهام مجازياً ، والمراد التعجب من ذلك والاستبعاد العادي .

ويحتمل أن يكون حقيقياً ، على معنى أنه يكون بتزوج أو غيره ؟

ويحتمل أن يكون استفهاماً عن أنه من أي شخص يكون ؟

« ولم يمسسني بشر » المسيس هنا كناية عن الوطء ..

وهذا نفي عام للتزوج وغيره ..

والبشر يطلق على الواحد والجمع ، والتنكر للعموم ..

والمراد عموم النفي لا نفي العموم ..

« قال » قيل : ان الله تعالى قال لها ذلك بلا واسطة مَلَك ..

وقيل : القائل جبريل عليه السلام .. وهو مبني على أنه تعالى لم يكلم غير الأنبياء ، بل غير خاصتهم عليهم الصلاة والسلام ..

« كذلك الله يخلق ما يشاء » أي : يخلق الله ما يشاء أن يخلقه من الخلق العجيب .. الخارق للعادة .. خلقاً مثل ذلك الخلق العجيب .. والصنع البديع .. الذي هو خلق الولد .. مع الحالة التي يستحيل معها الخلق بحسب العادة ..

أو : يخلق الخلق كائناً مثل ذلك .

أو : كهذا الشأن العجيب شأن الله تعالى .

وقد مر عليك الكلام في مثل هذه الجملة في قوله تعالى (**كذلك الله يفعل ما يشاء**) .

خلا أن التعبير هنـــا - بيخلق - وهناك - بيفعل - لاختلاف القصتين في الغرابة ..

فإن الثانية أغرب ..

فالخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بها ..

ولهذا عقبه بيان كيفيته فقال سبحانه :

« إذا قضى أمراً » إذا أراد شيئاً ..

فالأمر : واحد الأمور ..

والقضاء في الأصل : الإحكام .. وأطلق على الإرادة الإلهية القطعية المتعلقة بإيجاد المعدوم ، وإعدام الموجود ..

وسميت بذلك لإيجابهـــا ما تعلقت به ألبتة ، ويطلق على الأمر ، ومنه (وقضى ربك) .

« فإنما يقول له كن فيكون » أي : فهو يكون ..

أي : يحدث ..

وهذا عند الأكثرين - تمثيل لتأثير قدرته في مراده ، بأمر المطاع للمطيع ، في حصول المأمور من غـــير امتناع وتوقف ، وافتقار الى مزاولة عمل واستعمال آلة ..

فالممثل الشيء المكون بسرعة من غير عمل وآلة ..

والممثل به أمر الآمر المطاع لمأمور به مطيع على الفور ..

وهذا اللفظ مستعار لذلك منه ..

ويجوز أن يكون حقيقة بأن يراد تعلق الكلام النفسي بالشيء الحادث ، على أن كيفية الخلق على هذا الوجه ..

وعلى كلا التقديرين ، المراد من هذا الجواب بيان أن الله تعالى لا يعجزه أن يخلق ولداً بلا أب ..

لأنه أمر ممكن في نفسه ، فيصح أن يكون متعلق الإرادة والقدرة .

كيف لا وكثيراً ما يشاهد حدوث كثير من الحيوانات على سبيل التولد ؟!

كن ... فيكون ؟!

ذلك هو الحوار الذي دار بـين الإنسان .. ممثلا .. في واحدة منه .. اسمها « مريم » .. وبين الله ..

والحوار لو تأمله أي انسان .. لوجد فيه أعماقاً .. تسكن اليهـا النفس الحائرة .. في عجائب هذا الكون العجيب !

ولوجد فيه رداً .. على كل سؤال يدفعه الى الشك .. والتزلزل في حقائق الألوهية وعجائب صنعها !

جبريل .. ذلك الملَك العظيم .. الذي أرسله الله تعالى الى مريم .. واختصه بالسفارة بينه وبين رسله وأنبيائه ..

قال لها : يا مريم ، ان الله يبشرك بكلمة منه .. اسمه المسيح عيسى ابن مريم !.

عذراء .. تعيش في صومعة .. لا يخطر ببالها على الإطلاق ذلك الأمر ..

وها هو ملاك الرب .. يفجأها تلك المفاجأة ..

فذاب من هول المفاجأة عقلها.. وغاب !.

فكان هتافها هتافاً صادراً من أعماق فؤادها :

رب .. أنى يكون لي ولد ؟!

كيف يحدث هذا ؟!.

كيف يكون لي مولود ؟!.

ان عقل الفتاة عاجز تماماً عن إدراك الصورة التي سوف تحدث !.

انها لا تدري : كيف يتم تنفيذ هذا الأمر !.

ولم يمسسني بشر ؟!

استعرضت مريم .. الحياة البشرية من لدن آدم .. إلى عصرها الذي تعيش فيه .. وجعلت تفكر : هل حدث أن وُلد طفل بغير أب ؟!.

هل حدث أن حملت فتاة من غير تلقيح ؟!

فلم تجد من البشر أحداً .. منذ كان هناك انسان .. خلق من غير تلقيح !

وجعلت تفكر : كيف إذاً يحدث هذا الذي يبشرها به جبريل ؟!

إلا أن عقلها توقف تماماً .. ولم تستطع أن تتصور ما سوف يكون !

فجأرت الى ربها مباشرة : **رب ، أنى يكون لي ولد .. ولم يمسسني بشر ؟!**

وقولها : ولم يمسسني بشر .. يصور لنا الى أي مدى ذهب العجب بعقلها ؟!

انها لا تستطيع أن تتصور حدوث حمل من غير مسيس بشر .. من غير تلقيح .. فهي تستفهم : أنى يكون مولود .. كيف يحدث ذلـــك .. دون تلقيح ؟!.

لقد كانت مريم .. هي الإنسان الذي تجرى فيه التجربة الإلهية الجديدة !.
فكان اهتزاز عقلها اهتزازاً رهيباً !.

ماذا قال الله ... لمريم ؟!

يعجبني قول القائل .. في تفسير قوله سبحانه : « **قال كذلك الله يخلق ما يشاء ، اذا قضى أمراً ، فانما يقول له كن فيكون** » ..

ان الله تعالى قال لها ذلك بلا واسطة مَلَك ..

يعجبني ذلك المذهب .. في تفسير الآية ..

لسبب بسيط .. أن مريم اتجهت اليه تعالى مباشرة .. ونادته سبحانه : « **رب ، أنى يكون لي ولد ، ولم يمسسني بشر** » ؟!

فهي تناديه هو سبحانه .. مباشرة ..

تريد أن تفهم عنه تعالى مباشرة .. وأن تسمع منه سبحانه بلا واسطة .. لأن الأمر يتعلق بكيانها كله .. وحياتها كلها ..

لأن الأمر الذي سيجري في تكوينها أمر جديد .. لم يسبق اجرائه في بشر من قبلها ..

فالمناسب هنا أن يكون الرد عليها من الله مباشرة ..

بدون توسط جبريل .. ليبلغها عن ربها ..

فماذا قال لها الله تعالى ؟!.

« **كذلك** » كهذا الشأن العجيب .. شأني ..

« **الله يخلق ما يشاء** » الله يبدع ما يشاء من المخلوقات !.

« **اذا قضى أمراً** » اذا أراد شيئاً ..

اذا أراد تنفيذ أمر .. اذا أراد وقوع أمر ..

« فإنما يقول له : كن : فيكون » َقعْ .. فيقع فوراً .. وحتماً .. كما أراد !.

ذلك ما قال الله تعالى .. لمريم .. حين سألت سؤالها الخالد : **أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ؟!.**

وهو جواب لا يعلم أسراره إلا الله تعالى ..

لأن قوله سبحانه « اذا قضى أمراً ، فانما **يقول له : كن .. فيكون »** .. حق مكنون .. لا يعلم سره إلا هو سبحانه ..

كن فيكون ؟!.

بها .. كان كل شيء .. ويكون ..

ولكن : كيف يكون ؟!

ومتى يكون ؟!

ولماذا يكون ؟!

وما هو السر الذي يجعله يكون ؟!

ولماذا لا يستطيع شيء أن لا يكون إذا قيل له : كن ؟!

ولماذا لا يستطيع شيء أن يكون إلا إذا قيل له : كن ؟!

كل أولئك .. كان علمه عنده سبحانه ..

ولقد سمعت مريم الجواب .. جواب سؤالها ..

من الله مباشرة ..

فسرى في كيانها كله .. روحاً ..

وأدركت منه .. ما لا نستطيع نحن أهل الحجاب أن ندرك ..

نجد ذلك مكنوناً في قوله تعالى :

« ومريم ابنت عمران الـــتي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

[التحريم ١٢]

وصدّقت بكلمات ربها ؟!

كلماته تعالى .. اليها مباشرة !.

نادته : رب ، أنى يكون لي ولد ، ولم يمسسني بشر ؟!.

فقال الله تعالى لها مباشرة : كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمراً ، فانما يقول له كن فيكون ..

فصدّقت بكلمات ربها ..

فاشتعل فؤادها بكلمات ربها نوراً ..

فأدركت من الحقائق الإلهية .. وأسرارها .. ما لم تدرك من قبل ..

وعلمت منه تعالى .. ما لم تك تعلم .. كما سجل حقيقتها ربهـــا سبحانه : « .. وأمّه صدّيقة »..

[المائدة ٧٥]

والتصديق هنا .. هو النور الذي لا يشوبه أدنى ظلام !.

جبريل يعلن اليها ... الخطوط العريضة
من شخصية المسيح ؟!...

وواصل ...

جبريل .. بشرياته .. بإذن ربه .. الى مريم ..

وكأنه بما يسوق الى مريم .. خلال حديثه ..

يرسم الخطوط العريضة .. من شخصية الطفل الذي يبشرها بولادته ..

ويخط من لوحة القدر .. ملامح الشخصية .. شخصية المسيح ..

فلننظر ماذا قال جبريل لمريم ؟!

قال جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه :

« ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل .

« ورسولا الى بني اسرائيل اني قد جئتكم بآية من ربكم اني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأُحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين .

« ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعونِ .

« ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

[آل عمران ٤٨ — ٥١] .

هذه هي النصوص التي سجلت حديث جبريل لمريم ..

وقد كان حـــديثاً متصلاً .. يسوق فيه جبريل .. ما سوف يحدث من عجائب .. آيات ربه ..

فالأعجوبة الأولى .. يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه ..

فحددت هذه الأعجوبة .. الخط العام في شخصية عيسى عليه السلام .. أنه سوف يُخلق بكلمة من الله .. بكن فيكون .. بأمر مباشر من الله تعالى .. بلا توسط أب كما هو عادة الناس ..

الأعجوبة الثانية .. اسمه المسيح عيسى بن مريم ..

وهذا هو الخط الثاني .. في صورة الشخصية .. سوف يسمى المسيح .. عيسى بن مريم ..

لقد تحددت كيفية خلقه .. وتحدد لقبه .. واسمه !.

الأعجوبة الثالثة .. وجيهاً في الدنيا ..

هذا هو الخط الثالث .. من الشخصية .. سيكون عظيما في الدنيا .. شريفاً.

عظيما في حياته .. ومن ذا الذي بلغ من العظمة ما بلغه المسيح في عصره ؟

وعظيما بعد مماته .. في الدنيا كذلك .. ويكفي أن العالم المسيحي كله .. في أنحاء الكرة الأرضية .. الى يومنا هذا .. وإلى ما شاء الله .. يعظم تلك الشخصية تعظيماً كبيراً !.

الأعجوبة الرابعة .. والآخرة .. هذا هو الخط الرابع .. من خطوط الشخصية .. سوف يكون عظيما يوم البعث .. لما له من مقام عظيم ..

الأعجوبة الخامسة .. ومن المقربين .. وهذا هو الخط الخامس من الشخصية .. سوف يكون من قمم المقربين ..

كيف لا وهو أحد الخمسة .. أولي العزم من الرسل ؟!

الأعجوبة السادسة .. ويكلم الناس في المهد .. سوف ينطق وهو مولود لساعته .. وهذا هو الخط السادس من الشخصية ..

الأعجوبة السابعة .. وكهـــلا .. وسوف ينطق بأنوار النبوة .. في تلك السن .. وهذا هو الخط السابع ..

الأعجوبة الثامنة .. ومن الصالحين .. وهو دائماً من قمم الصالحين .. وهذا هو الخط الثامن من الشخصية ..

هذه خطوط عريضة .. ألقاها جبريل .. الى مريم .. تحدد ملامح ذلك الطفل العجيب الذي سوف يولد من مريم ..

ثم ها هو يواصل القاء تلك الخطوط اليها .. لتكتمل لديها صورة لما سوف يكون عليه ذلك الغلام .. صغيراً وشاباً وكبيراً ..

فماذا قال جبريل ؟!

ويعلمه الكتاب ؟!

ما هو هذا الكتاب الذي سوف يعلمه الله ذلك الغلام ؟

« ويعلمه الكتاب » أي: ان الله (يبشرك بكلمة) ويعلم ذلك، المولود المعبر عنه بالكلمة (الكتاب) .

أو : كذلك الله يخلق ما يشاء ، ويعلمه .

أو : يبشرك بكلمة مكلما الناس ، ومعلمًا الكتاب .

قالوا : (الكتاب) بمعنى الكتابة ، أي : يعلم الخط باليد .

أو : المراد بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه عليهم السلام سوى التوراة والإنجيل مثل الزبور وغيره ..

أو : المراد جنس الكتب الإلهية .

وقرىء : ونعلمه ..

والذي أميل اليه .. هو أن الله تعالى سوف يعلم ذلك الغلام القراءة والكتابة .. حتى يبرع فيها ويتفوق على غيره من الغلمان ..

وسوف يعلمه جميع الكتب الإلهية التي سبقت عليه .. وهي كتب العهد القديم .. الذي تقدم بعثته ..

فلا يغيب عنه شيء منها ..

« والحكمة » أي : الفقه وعلم الحلال والحرام .

أو : جميع ما علمه من أمور الدين .

أو : سنن الأنبياء عليهم السلام .

أو : الصواب في القول والعمل .

وأقول : الحكمة هي عبقرية التطبيق للتعاليم السماوية التي جاء بها من عند الله ..

وقد كان المسيح عبقريا في سياسة النفوس .. أو علاج الخراف الضالة !

« والتوراة » التي أنزلت على موسى .. لأنها شريعة بني اسرائيل .

« والإنجيل » الذي أوحى اليه عليه السلام ..

أفرادا بالذكر لوفور فضلها ، وسمو شأوهما على غيرهما .

وتعليمه ذلك قيل : بالإلهام .

وقيل : بالوحي .

وقيل : بالتوفيق والهداية للتعلم .

عن ابن عباس : لما بلغ سبع سنين أسلمته أمه الى المعلم .

لكن الروايات متضافرة أنه جعل يسأل المعلم كلما ذكر له شيئاً عما هو بمعزل عن أن ينبض فيه ببنت شفة .

وذلك يؤيد أن علمه محض موهبة إلهية ، وعطية ربانية .

وذكر الإنجيل لكونه كان معلوماً عند الأنبياء والعلماء متحققاً لديهم أنه سينزل .

هذه خطوط جديدة .. سجلتها هذه الآية .. من الشخصية التي سوف تلدها مريم ..

الخط الأول .. ويعلمه الكتاب .. سوف يعلمه الله تعالى علماً من لدنه .. يجعله قارئاً وكاتباً .. وعالماً بجميع ما في كتب العهد القديم كلها ..

الخط الثاني .. والحكمة .. سوف يعلمه علماً من لدنه مباشرة .. كيف يطبق ما أوحى اليه تطبيقاً مستقيماً في مجتمعه ..

الخط الثالث .. والتوراة والإنجيل .. سوف يكون عالماً بدقائق التوراة .. وسوف يؤتيه الله تعالى كتاباً جديداً هو الإنجيل ..

وهذه الخطوط الثلاثة .. تنضم الى الخطوط الثمانية السابقة ..

وتشكل ملامح عريضة .. من شخصية المسيح عليه السلام ..

فهل وقف جبريل عند ذلك الحد ؟

كلا .. وإنما ذهب يذيع عليها .. مخلصاً بارعاً .. شاملاً .. كاملاً .. لحياة المسيح القادمة ..

فماذا قال لمريم عن حياة ابنها ؟

ورسولاً إلى بني إسرائيل ؟!

أي : ونجعله رسولاً ..

« الى بني اسرائيل » الى كلهم ..

واليهود في عيسى فرقتان :

فرقة ترميه – وحاشاه – بأقظع ما رمت به أمة نبيها .. وهم أكثر اليهود

وفرقة يصدقونه في مواعظه وإشاراته ويقولون : انه لم يخالف التوراة ألبتة ، بل قررها ودعا الناس اليها ، وإنه من المستجيبين لموسى عليه السلام ، ومن بني اسرائيل المتعبدين وليس برسول ولا نبي ..

ويقولون : ان سائر اليهود ظلموه حيث كذبوه أولاً ، ولم يعرفوا مدعاه وقتلوه آخراً ، ولم يعرفوا مرامه ومغزاه .

ومن اليهود فرقة ، يزعمون : ان الله تعالى رسولاً بعد موسى عليه السلام يسمى المسيح ، إلا أنه لم يأت بعد !

ويدعون أن له خمسة من الرسل يأتون قبله ، واحداً بعد واحد !

وأن صاحبهم هذا أحد رسله !

هذا واختلف في زمن رسالته عليه السلام ..

والقول المشهور : أن الوحي أتاه بعد البلوغ ، وهو ابن ثلاثين سنة ..

فكانت نبوته ثلاث سنين ..

قيل : وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ..

ثم رفع الى السماء ..

هذا خط جديد في الصورة .. ورسولاً الى بني اسرائيل ..

ان المسيح سوف ينادي جميع بني اسرائيل الى ربهم ..

ثم واصل جبريل .. رسم خطوط الصورة ..

فأنفخ فيه ... فيكون طيراً ... بإذن الله ؟!...

هذه هي الأعجوبة الثالثة عشر .. من شخصية المسيح .. وان شخصيته كلها لأعاجيب !.

قال تعالى : « .. اني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله » ..

أعجوبة عجيبة .. وغريبة .. حقاً .. سوف تكون من ذلك الغلام !.

ان الخلق من اختصاص الله وحـــده .. فكيف يعطى المسيح القدرة على الخلق ؟!

لنسمع الى تسلسل الأمور .. لنصل الى بدائعها !

« أني قد جئتكم » ورسولاً الى بني اسرائيل ناطقاً : انيقد جئتكم .

أو مخبراً بأني ..

« بآية » محتجاً بآية .. متلبساً بآية ..

والتنوين للتفخيم ..

أي : بمعجزة فخمة عظيمة تحار فيها العقول ..

وقرىء : بآيات ..

« من ربكم » التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين .. لتأكيد ايجاب الامتثال لما سيأتي من الأوامر .

« أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير » .

المعجزة هي أني أخلق لكم ..

وقرىء : إني أخلق لكم ..

والمراد بالخلق التصوير والإبراز على مقدار معين ، لا الايجاد من العدم ، كما يشير اليه ذكر المادة ..

والهيئة بمعنى : المهيأ ..

وفسروها : بالجسم ..

والمعنى : أني أقدر – لأجل تحصيل إيمانكم ودفع تكذيبكم إياي – من الطين شيئاً مثل الطير المهيأ ، أو : هيئة كائنة كهيئته ..

وقرىء : الطائر .

« فأنفخ فيه » في هذا التمثال ..

« فيكون طيراً » حيا طيارا كسائر الطيور ..

« بإذن الله » بأمر الله ..

وأشار بذلك إلى أن إحياءه من الله تعالى ولكن بسبب النفخ ..

وليس ذلك لخصوصية في عيسى عليه السلام ، وهو تكونه من نفخ جبريل عليه السلام وهو روح محض – كما قيل –

بل لو شاء الله تعالى الاحياء بنفخ أي شخص كان لكان من غير تخلف ولا استعصاء ..

قيل : وفي هذه المعجزة مناسبة لخلقه من غير أب ..

واختلف هل كان ذلك بطلب واقتراح أم لا ؟

فذهب المعظم الى الأول ، قالوا : ان بني اسرائيل طلبوا منه على سبيل التعنت جريا على عادتهم مع أنبيائهم أن يخلق لهم خفاشاً فلما فعل قالوا : ساحر !

وقيل : خلق أنواعاً من الطير ..

هذا هو التسجيل الرباني للمعجزة ..

ان الله تعالى قد أذن للمسيح أن يخلق الطير ..

انه يتناول من الطين .. ويصنع منه تمثال طائر .. ثم ينفخ في هذا التمثال.. فيكون لفوره طيراً يطير .. بإذن الله !.

وهذا خط آخر أذاعه جبريل .. من خطوط شخصية المسيح ..

وأبرىء الأكمه ... والأبرص ؟!...

« وأبرىء الأكمه » اني أشفي الذي وُلد أعمى ..

أستطيع أن اذهب عنه ذلك الداء .. وأرد اليه بصره ..

« والأبرص » وهو الذي به الوضح المعروف ..

وتخصيص هذين الأمرين لأنهما أمران معضلان ، أعجزا الأطباء ، وكانوا في غاية الحذاقة مع كثرتهم في زمنه .

ولهذا أراهم الله تعالى المعجزة من جنس الطب .

كما أرى قوم موسى عليه السلام المعجزة بالعصا واليد البيضاء حيث كان الغالب عليهم السحر ..

والعرب المعجزة بالقرآن حيث كان الغالب عليهم في عصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البلاغة ..

والاقتصار على هذين الأمرين لا يدل على نفي ما عداهما ..

فقد روى أنه عليه السلام أبرأ أيضاً غيرهما ..

عن وهب : ربما اجتمع على عيسى عليه السلام من المرضى خمسون ألفاً ، من أطاق منهم أن يبلغه بلغه .

« ومن لم يطق ذلك منهم أتاه عيسى عليه السلام ، فمشى اليه .

« وكان يداويهم بالدعاء الى الله تعالى بشرط الإيمان ..

ما هذا ؟!.

هذا خط آخر عريض جداً .. من خطوط شخصية المسيح ..

انه اوتى القدرة على اذهاب جميـــع أمراض المرضى .. أيّاً ما كانت .. مستعصية .. أو مزمنة .. أو عارضة ..

وسواء في ذلك الأمراض البدنية .. أو النفسية ..

وفي الأناصل تفاصيل .. عن أعاجيب المسيح في شفاء المرضى .. والمجانين والذين بهم أرواح شريرة .. والمشلولين .. والمقعدين .. الى غير ذلك ..

معجزة عريضة .. سوف تكون من ابنك يا مريم ..

وسوف تخلد في التاريخ .. ويتحدث بها الناس .. وتسجلها كتب السماء !.

فهل انتهت عند ذلك خطوط الشخصية ؟.

كلا .. وإنما واصل جبريل رسم صورة شخصية المسيح لمريم عليها السلام !.

وأحيي الموتى ... بإذن الله ؟!

« وأحيي الموتى بإذن الله » وقيـــد الإحياء .. كما فعل في الأول .. لأنه خارق عظيم .. يكاد يتوهم منه ألوهية فاعلة ..

لأنه ليس من جنس أفعال البشر .

وكان احياؤه بالدعاء ..

وقيل : انه كان اذا أراد أن يحيي ميتاً ضرب بعصاه الميت ، أو القبر ، أو الجمجمة ، فيحيا بإذن الله تعالى ..

وتلك معجزة أعجب وأعجب .. سوف تكون من المسيح .. عندما يرسله ربه رسولاً الى بني امرائيل ..

سوف يحيي الموتى .. من قبورهم .. بإذن الله ..

وذلك خط عريض .. رهيب .. من خطوط الصورة !.

ثم خط آخر ؟.

وأنبئكم بما تأكلون ... وما تدخرون ؟!

قال تعالى : « **وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين** » .

« وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون » أي بما تأكلونه وما تدخرونه ..

وقد كان هذا الإخبار بعد النبوة ..

والمراد الإخبار بالمغيبات، إلا أنه قد اقتصر على ذكر أمرين منها ..

ولعل وجه تخصيص الإخبار بأحوالهم لتيقنهم بها ، فلا يبقى لهم شبهة ..

والسر في ذكر هذين الأمرين بخصوصها أن غالب سعي الإنسان وصرف ذهنه لتحصيل الأكل الذي به قوامه ، والادخار الذي يطمئن به أكثر القلوب ويسكن منه غالب النفوس ، فليفهم .

« ان في ذلك » المذكور من الخوارق الأربعة العظيمة ..

وهذا من كلام عيسى عليه السلام حكاه الله تعالى عنه .

« لآية » لمعجزة .. وقرىء : لآيات .

« لكم » دالة على صحة الرسالة دلالة واضحة ، حيث لم يكن ذلك بتخلل آلات وتوسط أسباب عادية ، كما يفعله الأطباء والمنجمون ..

« ان كنتم مؤمنين » ان كنتم موقنين للإيمان .

أو : ان كنتم مصدقين .

وهذا خط جديد .. في صورة الشخصية القادمة ..

خط يرسمه جبريل .. ويذيعه على مريم !.

ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ؟!

قال تعالى : « ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حُرِّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعونِ » .

هذه خطوط جديدة .. سوف تكون في شخصية المسيح ..

انه سوف يقول لبني اسرائيل : « ومصدقاً لما بين يدي من التوراة » معنى تصديقه عليه السلام للتوراة : الإيمان بأن جميع ما فيها حكمة وصواب .

ويوشك أن يكون هذا الكلام من المسيح .. هو ما سجله الإنجيل ..

حيث قال المسيح :

[لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الانبياء[1] .

« ما جئت لأنقض بل لأكمّل] .

« ولأُحل لكم » وجئتكم لأحل لكم .

« بعض الذي حرم عليكم » في شريعة موسى عليه السلام ..

ومعنى التكميل ضم السياسة الباطنة التي جاء بها الى السياسة الظاهرة التي جاء بها موسى عليه السلام ..

---

(١) إنجيل متى .

أو نسخ بعض أحكام التوراة بأحكام هي أوفق بالحكمة ، وأولى بالمصلحة ، وأنسب بالزمان ..

« وجئتكم بآية من ربكم » محتجاً بمعجزة باهرة ..

أو بمعجزات خارقة ظاهرة أنها من ربكم ..

وقرىء : بآيات ..

« فاتقوا الله » في عدم قبول ما جئتكم به .

« وأطيعون » فيما آمركم به وأنهاكم بأمر الله تعالى ..

وهكذا .. كانت هذه خطوط أخرى .. في شخصية المسيح ..

ثم كان مسك الختام .. ذلك الخط العام .. الذي يشمل الشخصية كلها .. حيث قال :

ان الله ربي وربكم فاعبدوه ؟!

قال تعالى : « ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

بيان للآية المأتى بها ..

على معنى : هي قولي : (ان الله ربي وربكم) .

ولما كان هذا القول مما أجمع الرسل على حقيته ، ودعوا الناس اليه ، كان آية دالة على رسالته .

وليس المراد بالآية على هذه المعجزة ، ليرد أن مثل هذا القول قد يصدر عن بعض العوام ..

بل المراد أنه بعد ثبوت النبوة بالمعجزة كان هذا القول لكونه طريقة الأنبياء عليهم السلام ، علامة لنبوته تطمئن به النفوس ..

ويقال : ان حصـــول المعرفة والتوحيد والاهتداء للطريق المستقيم في الاعتقادات والعبادات عمن نشأ بين قوم غيروا دينهم وصرفوا كتب الله تعالى المنزلة وقتلوا أنبياءهم ، ولم يكن ممن تعلم من بقيايا أخبارهم، من أعظم المعجزات وخوارق العادات ..

أو يقال : من الجائز أن يكون قد ذكر الله تعالى في التوراة : اذا جاءكم شخص من نعته كذا وكذا يدعوكم الى كيت وكيت فاتبعوه فإنه نـــبي مبعوث اليكم .

فإذا قال: أنا الذي ذكرت بكذا وكذا من النعوت كان من أعظم الخوارق.

أو : (جئتكم بآية) بعد أخرى ممـــا ذكرت لكم من خلق الطير ، وإبراء الأكمه ، والأبرص ، وإحياء الموتى ، والإنباء بالخفيات ، ومن ولادتي بغير أب، ومن كلامي في المهد ونحو ذلك ..

وقوله « ان الله ربي وربكم » اشارة إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد ..

وقوله « فاعبدوه » إشارة الى استكمال القوة العملية فإنه ملازمة الطاعة التي هي الاتيان بالأوامر والانتهاء عن النواهي ..

وتعقيب هذين الأمرين بقوله سبحانه :

« هذا صراط مستقيم » تقرير لمـــا سبق ببيان أن الجمع بين الأمرين .. الاعتقاد الحق ، والعمل الصالح .. هو الطريق المشهود له بالاستقامة .

هذه هي الخطوط التي أعلنها جبريل عليه السلام .. إلى مريم ..

فتحددت بها شخصية المسيح عليه السلام .. تحديداً دقيقاً ..

فهو .. كلمة منه .. كن فيكون ..

ولقبه .. المسيح ..

واسمه .. عيسى بن مريم ..

ومركزه الاجتماعي .. وجيهاً في الدنيا ..

ومقامه في الآخرة .. وجيهاً .. في الآخرة ومن المقربين ..

ومعجزاته هي .. يكلم الناس في المهد .. وكهلا .. ويعلمه الكتاب .. والحكمة .. والتوراة .. والإنجيل ..

ومهمته هي .. رسولاً الى بني اسرائيل .

ومعجزاته التي تؤيد رسالته هي .. أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله .. وأبرىء الأكمه والأبرص .. وأحيي الموتى بإذن الله .. وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون ..

وطابع رسالته .. مصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذي حُرم عليكم ..

وملخص رسالته العام .. ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ..

وبذلك .. الذي أعلنه جبريل .. إلى مريم .. حين ناداها : يا مريم ، ان الله يبشرك ..

إلى قوله : « هذا صراط مستقيم » .. اكتملت خطوط الصورة .. صورة شخصية المسيح .. أمام الفتاة العذراء الطاهرة .. التي اصطفاها الله تعالى .. لتكون أمّاً .. لذلك القادم العظيم !.

فنفخنا ... فيها ... من روحنا ؟!...

هـذه ...

أخطر منطقة .. من حياة مريم ..

ذلك انها سبب الفتنة الكبرى .. التي افتتن بها ملايين من الناس ..

من لدن مريم ..

وما زالوا يفتتنون .. الى يوم القيامة ..

فتنة دفعت ملايين من البشر .. الى الاعتقاد بأن مريم « أم الإله » ..

وأن ابنها .. الذي حملته .. هو « ابن الله » !.

وما زالوا يعتقدون .. وما زالوا يؤمنون !.

من أجل ذلك .. كان حتما .. أن يبين الله تعالى .. للنـــاس كافة .. الى يوم القيامة . .

حقيقة هذا الأمر ..

حقيقة خلق « عيسى » ..

وكيف خُلق في جوف « مريم » ..

وكيف كان ذلك ؟!

وإلى العالم أجمع .. نقدم أعلى .. وأغلى ..

وأشمل .. وأكمل ..

وأصدق .. وأحكم ..

ما أنزل الله تعالى .. في هذا السبيل ..

وأدعوهم أن يتفكروا فيه جيداً .. بقلوب واعية .. وعقول غير لاهية ..

فنفخنا ... فيها ... من روحنا ؟!

قال تعالى :

« والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيهـــا من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » .

[الأنبياء ٩١]

« والتي » المراد بالموصول : مريم عليها السلام .

وعبر عنها بما ذكر لتفخيم شأنها ، وتنزيهها عما زعموه في حقها ..

« أحصنت » الاحصان بمعناه اللغوي ، وهو المنع مطلقاً ..

« فرجها » والفرج في الأصل : الشق بـــين الشيئين ، كالفرجة .. وما بين الرجلين ..

ويكنى به عن السوأة .. وكثر حتى صار كالصريح في ذلك .. وهو المراد به هنا عند جماعة ..

أي : منعت فرجهـــا من النكاح بقسميه ، كما قالت (ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا) .

وكان التبتل إذ ذاك مشروعاً للنساء والرجال .

وقيل : الفرج هنا : جيب قميصها ، منعته من جبريل عليه السلام لما قرب منها لينفخ حيث لم تعرفه ..

« فنفخنا فيها » نفخ الروح عبارة عن الإحياء ، وليس هناك نفخ حقيقة ..

ثم هذا الإحياء لعيسى عليه السلام ، وهو لكونه في بطنها صح أن يقال : نفخنا فيها .. فإن ما يكون فيما في الشيء يكون فيه ..

أو : الكلام على تقدير مضاف ، أي : فنفخنا في ابنها ..

« من روحنا » المراد من الروح معنـــاه المعروف ، والإضافة الى ضميره تعالى للتشريف ..

ويجوز أن يكون المراد من الروح جبريل عليه السلام ..

كما قيل في قوله تعالى (فأرسلنا اليها روحنا) ..

وهناك نفخ حقيقة وإسناده اليه تعالى مجاز ..

أي : فنفخنا فيها من جهة روحنا ..

وكان جبريل عليه السلام قد نفخ من جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها ، فصح أن النفخ فيها ، من غير غبار يحتاج الى النفخ !

« وجعلناها وابنها » وجعلنا قصتها أو : حالها .

« آية للعالمين » فإن من تأمل حالتها ، تحقق كمال قدرته عز وجل ..

فالمراد بالآية ما حصل بها من الآية التامة ، مع تكاثر آيات كل واحد منهما .

وقيل : أريد بالآية: الجنس الشامل،ما لكل واحد منهما من الآيات المستقلة.

وقيل : المعنى : وجعلناها آية .. وابنهـــا آية .. فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ..

واستدل بذكر مريم عليها السلام مع الأنبياء في هذه السورة على أنها كانت نبية ، إذ قرنت معهم في الذكر ..

وفيه : أنه لا يلزم من ذكرها معهم كونها منهم .

ولعلها انما ذكرت لأجل عيسى عليه السلام ، وناسب ذكرهما هنا قصة زكريا وزوجه وابنهما يحيى للقرابة التي بينهم عليهم السلام ..

فنفخنا ... فيه ... من روحنا ؟!

قال تعالى : « ومريم بنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

[التحريم ١٢]

« ومريم ابنت عمران » أي : وضرب مثلاً للذين آمنوا حالتها وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة ، والاصطفاء ، مع كون أكثر قومها كفاراً ..

« التي أحصنت فرجها » صانته ومنعته من الرجال ..

وقيل : منعته عن دنس المعصية ..

والفرج : ما بين الرجلين ، وكنى به عن السوءة ، وكثر حتى صار كالصريح ، ومنه ما هنا عند الأكثرين ..

« فنفخنا فيه » النافخ رسوله تعالى وهو جبريل عليه السلام ..

أو : فنفخ رسولنا ..

وضمير (فيه) للفرج . .

واشتهر أن جبريل عليه السلام نفخ في جيبها ، فوصل أثر ذلك الى الفرج .

وقال الفراء : ذكر المفسرون أن الفرج جيب درعها ..

وهو محتمل ، لأن الفرج معناه في اللغة كل فرجة بين الشيئين ..

وموضع جيب درع المرأة مشقوق فهو فرج ..

وهذا أبلغ في الثناء عليها ، لأنها اذا منعت جيب درعها فهي للنفس أمنع .

وعن الفراء : أن المراد منعت جيب درعها عن جبريل عليه السلام ..

وكان ذلك – على ما قيل – قولها (اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) .

وأفاد كلام البعض أن أحصنت فرجها كناية عن العفة ، نحو قولهم : هو نقي الجيب طاهر الذيل .

وجوز في ضمير (فيه) رجوعه الى الحمل ، وهو عيسى عليه السلام المشعر به الكلام ..

أي : فنفخنا في الجنين من روحنا ..

وقرىء : (فيها) – كما في الأنبياء – فالضمير لمريم ..

« من روحنا » الإضافة للتشريف ..

والمراد من روح خلقناه ، بلا توسط أصل ..

« وصدّقت » وآمنت ..

« بكلمات ربها » بصحفه عز وجل المنزلة .

« وكتبه » بجميع كتبه والمراد بها ما عدا الصحف مما فيه طول .

أو : التوراة ، والإنجيل ، والزبور .

أو : أن يراد بالكلمات ما أوحاه الله تعالى الى أنبيائه عليهم السلام ..

وبالكتب ما عرف فيها مما يشمل الصحف وغيرها ..

وقيل : جميع ما كتب مما يشمل اللوح وغيره .

وأن يراد بالكلمات : وعده تعالى ووعيده ..

قلت : ويبدو لي أن المراد بالكلمات تلك الكلمات الخالدات التي نادتها بها الملائكة : « **ان الله يبشرك بكلمة منه** » .. الخ ..

وسوف نعود بتفصيل الى هذه الأمور ..

وقرىء : وصدقت .

أي : كانت صادقة بما أخبرت به من أمر عيسى ، وما أظهره الله تعالى لها من الكرامات ..

وقرىء : (بكلمة) أي بكلمة التوحيد .

أو : عيسى عليه السلام ، فقد أطلق عليه عليه السلام أنه كلمه الله ألقاها إلى مريم ..

« وكانت من القانتين » أي : من عداد المواظبين على الطاعة ..

فمن للتبعيض .. والتذكير للتغليب ، والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال ، حتى عدت من جملتهم ..

فهو أبلغ من قولنا : وكانت من القانتات ..

أو : وكانت من نسل القانتين ، لأنهـــا من أعقاب هارون أخي موسى عليهما السلام ..

ومدحها بذلك لما أن الغالب أن الفرع تابع لأصله ..

(والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً) .

وهي على ما في بعض الأخبار ، سيدة النساء ، ومن أكملهن ..

روى أحمد في مسنده : سيدة نساء أهل الجنة مريم ، ثم فاطمة ، ثم خديجة ، ثم آسية ، ثم عائشة .

وفي الصحيح :

« كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع .

« آسية بنت مزاحم امرأة فرعون .

« ومريم ابنة عمران .

« وخديجة بنت خويلد .

« وفاطمة بنت محمد – صلى الله تعالى عليه وسلم –

« وفضل عائشة من النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

وخص الثريد ، وهو خبز في مرق وعليه لحم ، لأن العرب لا يؤثرون عليه شيئاً ، حتى سموه بحبوحة الجنة ..

والسر فيه : ان الثريد مع اللحم جامع بين الغذاء واللذة والقـــوة وسهولة التناول وقلة المؤنة في المضغ وسرعة المرور في المريء .

« فضرب به مثلا ليؤذن بأنها رضي الله تعالى عنها أعطيت مع حسن الخلق حلاوة المنطق وفصاحة اللهجة وجودة القريحة ورزانة الرأي ورصانة العقل .

« والتحبب للبعل .

« فهي تصلح للبعل ، والتحدث ، والاستئناس بها ، والإصغاء اليها .

« وحسبك أنها عقلت من النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يعقل غيرها من النساء .

« وروت ما لم يرو مثلها من الرجال » .

وزعم نبوة مريم كزعم نبوة غيرها من النساء كهـــاجر ، وسارة .. غير صحيح ..

لاشتراط الذكورة في النبوة على الصحيح ، خلافاً للأشعري ..

وكلمته .. ألقاها .. إلى مريم .. وروح منه ؟!

قال تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم انما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الارض وكفى بالله وكيلا .

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبـــداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً » .

[النساء ١٧١ و ١٧٢]

وهذا نص مقدس .. يعتبر أصلاً عاماً في هذا الأمر الخطير .. أمر كيفية خلق المسيح عيسى ابن مريم !.

« يا أهل الكتاب » يا أهل الإنجيل .. يا أهل الكتاب السماوي ..

تجريد للخطاب ، وتخصيص له بالنصارى .. زجراً لهم عما هم عليه ..

« لا تغلوا » لا تتجاوزوا الحد .. ولا تفرطوا ..

« في دينكم » في عقائدكم .. في فهم دينكم .

والغلو : مجاوزة الحد ، والافراط ..

حيث قال بعضهم : عيسى عليه السلام ، ابن الله عز وجل ..

وبعضهم أنه الله سبحانه ..

وآخرون ثالث ثلاثة ..

« ولا تقولوا على الله إلا الحـــق » ولا تذكروا ، ولا تعتقدوا ، إلا القول الحق .. دون القول المتضمن لدعوى الاتحاد والحلول واتخاذ الصاحبة والولد ..

أو : المراد من الحق هنا تنزيهه تعالى عن الصاحبة والولد ..

« انما المسيح عيسى بن مريم » (ابن مريم) صفة له مفيدة بطلان ما زعموه فيه من نبوته عليه السلام له عز وجل ..

« رسول الله » أي أنه عليه السلام مقصور على رتبة الرسالة .. لا يتخطاها الى ما تقولون ..

« وكلمته » معنى كونه (كلمة) أنه حصل بكلمة (كن) من غـــير مادة معتادة ..

وقال الغزالي : لكل مولود سبب قريب وبعيد .

فالأول المني ، والثاني قول ُكن ..

ولما دل الدليل على عدم القريب في حق عيسى عليه السلام ، اضافة الى البعيد ، وهو قول ُكن ، اشارة الى انتفاء القريب ، وأوضحه بقوله سبحانه :

« ألقاها الى مريم » أي : أوصلها اليها ، وحصلها فيها .. فجعله كالمني الذي يلقى في الرحم ..

أو : معناه بشارة الله تعالى التي بشر بها مريم عليهـــا السلام على لسان الملائكة كما قال سبحانه : (إذ قالت الملائكة ان الله يبشرك بكلمة) ..

« وروحٌ منه » وسمى عليه السلام روحاً لأنه حدث عن نفخة جبرائيل عليه السلام بأمره سبحانه ..

وجاء تسمية النفخ روحاً في كلامهم ..

ومنه قول ذي الرمة في نار .

: وأحيها بروحك .

و (من) لابتداء الغاية لا تبعيضية كما ذهبت النصارى ..

يحكى أن طبيباً نصرانياً حاذقاً للرشيد ، ناظر علي بن الحسن الواقدي المروزي ذات يوم فقال له :

« ان في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى .

« وتلى هذه الآية :

« فقرأ الواقدي قوله تعالى : (وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعا منه) .

« فقال : إذن يلزم أن يكون جميع الأشياء جزءاً منه سبحانه وتعالى علوّاً كبيراً .

« فانقطع النصراني ، فأسلم .

« وفرح الرشيد فرحاً شديداً .

« ووصل الواقدي بصلة فاخرة » !.

وقيل : سمى روحاً لأن الناس يحيون به كما يحيون بالأرواح ..

وقيل : الروح هنا بمعنى الرحمة ، كما في قوله تعالى : (وأيدهم بروح منه) .

وقيل : أريد بالروح الوحي الذي أوحى الى مريم عليها السلام بالبشارة ..

وقيل : جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شيء بغاية الطهارة والنظافة قالوا : انه روح ، فلما كان عيسى عليه السلام متكوناً من النفخ ، لا من النطفة وصف بالروح ..

وقيل : أريد بالروح السر ، كما يقال : روح هذه المسألة كذا ..

أي : أنه عليه السلام سر من أسرار الله تعالى ، وآية من آياته سبحانه ..

وقيل : المراد ذو روح ..

والإضافة إلى الله تعالى للتشريف .

ونظير ذلك ما في التوراة ان موسى عليه السلام رجل الله ، وعصاه قضيب الله ، وأورشليم بيت الله ..

وقيل : المراد من الروح جبريل عليه السلام ..

والمعنى : ألقاها الله تعالى وجبريل إلى مريم ..

قالوا : ولا حجة للنصارى على شيء ممـــا زعموا في تشريف عيسى عليه السلام بنسبة الروح اليه ..

« إذ لغيره عليه السلام مشاركة له في ذلك .

« ففي إنجيل لوقا : قال يسوع لتلاميذه : إن أباكم السماوي يعطي روح القدس الذين يسألونه .

« وفي إنجيل متى : ان يوحنا المعمداني امتلأ من روح القدس وهـــو في بطن أمه .

« وفي التوراة : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : اختر سبعين من قومك حتى أفيض عليهم من الروح التي عليك فيحملوا عنك ثقل هذا النعت ، ففعل ، فأفاض عليهم من روحه فتنبئوا لساعتهم .

« وفيها في حق يوسف عليه السلام : يقول الملك : هل رأيتم مثل هذا الفتى الذي روح الله تعالى عز وجل حال فيه .

« وفيها أيضاً : ان روح الله تعالى حلت على دانيال .. الى غير ذلك » .

ولعل الروح في جميع ذلك أمر قدسي ، وسر إلهي يفيضه الله تعالى على من يشاء من عباده حسبما يشاء وفي أي وقت يشاء ..

« فآمنوا بالله » وخصوه بالألوهية .

« ورسله » أجمعين ، ولا تخرجوا أحـــداً منهم إلى ما يستحيل وصفه به من الألوهية .

« ولا تقولوا ثلاثة » أي : ولا تقولوا : الآلهة ثلاثة : الله سبحـــانه ، والمسيح ، ومريم ..

كما ينبىء عنه قوله تعالى : (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) ؟

إذ معناه : (إلهين) غير الله تعالى ، فيكونون معه ثلاثة ..

أو : الله — سبحانه — ثلاثة .

ان صح عنهم أنهم يقولون : الله تعالى جوهر واحد ، ثلاثة أقانيم .

« أقنوم الأب ، وأقنوم الإبن ، وأقنوم روح القدس .

« وأنهم يريدون بالأول : الذات ، أو الوجود .

« وبالثاني : العلم أي الكلمة .

« وبالثالث : الحياة .. كذا قيل » .

« انتهوا خيراً لكم » انتهوا عن القول بالتثليث .

« انما الله إله واحد » بالذات ، منزه عن التعدد بوجه من الوجوه .

« سبحانه أن يكون له ولد » أي : أسبحه تسبيحاً عن ، أو : من أن ، يكون له ولد ..

أو : سبحوه عن ، أو : من ذلك ..

لأن الولد يشابه الأب ، ويكون مثله ..

والله تعالى منزه عن التشبيه والمثل ..

وأيضاً الولد انما يطلب ليكون قائماً مقام أبيه إذا عدم ، ولذا كان التناسل.

والله تعالى باق لا يتطرق ساحته العلية فنـــاء ، فلا يحتاج الى ولد ، ولا حكمة تقتضيه .

« له ما في السماوات وما في الأرض » جملة مستأنفة مسوقة لتعليل التنزيه ..

وبيان ذلك أنه سبحانه مالك لجميع الموجودات علويها وسفليها ، لا يخرج من ملكوته شيء منها .

ولو كان له ولد لكان مثله في المالكية ، فلا يكون مالكاً لجميعهـــا ، وقوله تعالى :

« **وكفى بالله وكيلا** » إشارة إلى دليل آخر .

لأن الوكيل : بمعنى الحافظ .

فإذا استقل سبحانه وتعالى في الحفظ لم يحتج الى الولد ، فإن الولد يعين أباه في حياته ، ويقوم مقامه بعد وفاته .

والله تعالى منزه عن كل هذا ، فلا يتصور له ولد عقلا ، ويكون افتراؤه حمقاً وجهلا ..

لن يستنكف ... المسيح ... أن يكون عبداً لله ؟!

« لن يستنكف المسيح » استئناف مقرر لما سبق من التنزيه ..

روى أن وفد نجران ، قالوا لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم :

« يا محمد ، لم تعيب صاحبنا ؟

« قال : ومن صاحبكم ؟

« قالوا : عيسى عليه السلام .

« قال : وأي شيء أقول فيه ؟

« قالوا : تقول : انه عبد الله ورسوله .

« فنزلت » .

وفي الأساس : استنكف ونكف : امتنع وانقبض أنفاً وحمية .

وقال الزجاج : الاستنكاف : تكبر في تركه أنفه ، وليس في الاستكبار ذلك .

والمعنى : لن يأنف ، ولن يمتنع .

وعن ابن عباس : لن يستكبر المسيح .. « أن يكون عبداً لله » أي : عن، أو : من .. أن يكون عبداً لله تعالى ، مستمراً على عبادته تعالى ، وطاعته ، حسبما هو وظيفة العبودية .

كيف وأن ذلك أقصى مراتب الشرف ؟!

وقد أشار القاضي عياض إلى شرف العبودية بقوله :

وممـــا زادني عجباً وتيهـــاً
وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك : يا عبادي
وجعلك خيرَ خلقك لي نبيا

والاقتصار على ذكر عدم استنكافه عليه السلام عن ذلك .

مع أن شأنه عليه السلام المباهاة به ، كما تدل عليه أحواله ، وتفصح عنه أقواله لوقوعه في موضع الجواب عما قالوه ..

وهو السر في جعل المستنكف منه كونه عليه السلام عبداً له تعالى ، دون أن يقال : عن عبادة الله تعالى ، ونحو ذلك !

مع إفادته – كما قيل – فائدة جليلة !

هي كال نزاهته عليه السلام عن الاستنكاف بالكلية لاستمرار هذا الوصف ، واستتباعه وصف العبادة .

فعدم الاستنكاف عنه مستلزم لعدم استنكاف ذلك .

بخلاف وصف العبادة فإنها حالة متجددة غير مستلزمة للدوام ، يكفي في اتصاف موصوفها بها تحققها مرة ، فعدم الاستنكاف عنها لا يستلزم عنها عدم الاستنكاف عن دوامها .

ومما يدل على عبوديته عليه السلام من كتبهم :

قال مرقس في إنجيله : قال يسوع :

ان نفسي حزينة حتى الموت .

ثم خرّ على وجهه ، يصلي لله تعالى .

وقال : أيها الأب كل شيء بقدرتك أخر عني هذا الكأس ، لكن كما تريد لا كما أريد .

ثم خرّ على وجهه يصلي لله تعالى .

ووجه الدلالة في ذلك ظاهر .. إذ هو سائل ، والله تعالى مسئول .

وهو مصل ، والله تعالى مصلى له .

وأي عبودية تزيد على ذلك ؟

ونصوص الأناجيل ناطقة بعبوديته عليه السلام في غير ما موضع .

وفي ذلك قيل .. وهو من أجمل ما قيل في حقيقة شخصية المسيح عليه السلام :

هو عبد مقرب ونبي ورسول قد خصه مولاه

طهر الله ذاته وحباه ثم أتاه وحيه وهداه

وبكُن خلقه بدا كلمة الله إلى مريم البتول براه

هكذا شأن ربه خالك الخلق بكُن خلقهم فنعم الإله

والأناجيل شاهدات وعنه انما الله ربه لا سواه

كان لله خاشعاً مستكيناً راغباًراهباًيرجى رضاه

ليس يحيي وليس يخلق إلا أن دعاه وقد أجاب دعاه

إنما فاعل الجمع هو الله ولكن على يديه قضاه

ويكفي في إثبات عبوديته عليه السلام ما أشار الله تعالى اليه بقوله : **(ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام)** .

وفي التعبير بالمسيح ما يشعر بالعبودية أيضاً ..

« ولا الملائكة المقربون » أي : ولا يستنكف الملائكة المقربون ، أن يكونوا عبيداً لله تعالى .

أو : المعنى : لا يستنكف المسيح ، ولا من هو فوقه ، من الملائكة المقربين.

أي : لا هو ولا من هم أرقى منه ..

وسوق الآية ، وإن كان رداً على النصارى ، لكنه أدمج فيه الرد على عبَدة الملائكة ، المشاركين لهم ، في رفع بعض المخلوقين شن مرتبة العبودية الى درجة المعبودية ، وادعاء انتسابهم الى الله تعالى بما هو من شوائب الألوهية ..

وخص (المقربون) لأنهم كانوا يعبدونهم دون غيرهم ..

وقيل : ان غاية ما تدل عليه الآية تفضيل المقربين من الملائكة وهم الكروبيون الذين حول العرش ..

أو من هم أعلى رتبة منهم من الملائكة على المسيح من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ..

وذلك لا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً ..

وقال بعضهم : تفضيل الملائكة في القوة وشدة البطش وسعة التمكن والاقتدار ..

وهذا النوع من الفضيلة هو المناسب لسياق الآية ..

لأن المقصود الرد على النصارى في اعتقادهم ألوهية عيسى عليه السلام مستندين الى كونه أحيا الموتى ، وأبرأ الأكمه ، والأبرص ..

وصدرت على يديه آثار عظيمة خارقة ..

فناسب ذلك أن يقال : هذا الذي صدرت على يديه هذه الخوارق ، لا يستنكف عن عبادة الله تعالى ، بل من هو أكثر خوارقاً ، وأظهر آثاراً كالملائكة المقربين ، الذين من جملتهم جبريل عليه السلام .

وقد بلغ من قوته وإقدار الله تعالى له ان اقتلع المدائن واحتملها على ريشة من جناحه فقلبها عاليها سافلها ..

فيكون تفضيل الملائكة إذن بهذا الاعتبار ولا خـــلاف في أنهم أقوى وأبطش ، وأن خوارقهم أكثر .

وإنما الخلاف في التفضيل باعتبار مزيد الثواب والكرامات ورفع الدرجات في دار الجزاء .

وليس في الآية عليه دليل ..

وقد يقال : لما كان أكثر ما لبس على النصارى في ألوهية عيسى عليه السلام.

كونه موجوداً من غير أب .. أنبأ الله تعالى أن هذا الموجود من غير أب لا يستنكف من عبادة الله تعالى ، ولا الملائكة الموجودون من غير أب ولا أم..

فيكون تأخير ذكرهم لأن خلقهم أغرب من خلق عيسى عليه السلام ..

ويشهد لذلك أن الله تعالى نظر عيسى بآدم عليهما السلام ..

فنظر الغريب بالأغرب ، وشبه العجيب من آثار قدرته بالأعجب ..

إذ عيسى مخلوق من آدم عليهما الصلاة والسلام ..

وآدم عليه السلام من غير أب ولا أم ..

ولذلك قال سبحانه : (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) .

« ومن يستنكف عن عبادته » أي : طاعته .. فيشمل جميع الكفرة لعدم طاعتهم له تعالى .

« ويستكبر » أي : عن ذلك ..

وأصل الاستكبار : طلب الكبر من غير استحقاق ، لا بمعنى طلب تحصيله مع اعتقاد عدم حصوله ..

بل بمعنى : عدّ نفسه كبيراً واعتقاده كذلك ..

« فسيحشرهم اليه جميعاً » أي : المستنكفين ومقابليهم .. المدلول عليهم بذكر عدم استنكاف المسيح والملائكة المقربين عليهم السلام ..

وفيها عموم الحشر للخلائق أجمعين !

وروح ... منه ؟!

ولنسمع الآن الى المذهب الذي ذهب اليه الإمام البخاري .. وشارحو صحيحه في الآية التي مرت من قريب .. قالوا :

« لا تغلوا » من الغلو وهو الإفراط ومجاوزة الحد .. ومنه غلا السعر .

وغلو النصارى : قول بعضهم في عيسى هو الله .. وهم اليعقوبية ..

أو : ابن الله .. وهم النسطورية ..

أو : ثالث ثلاثة .. وهم المرقوسية ..

وغلو اليهود فيه قولهم : انه ليس برشيد ..

« ولا تقولوا على الله إلا الحق » أي : إلا القول الحق ..

أي : لا تفتروا عليه ، وتجعلوا له صاحبة وولداً ..

ثم أخبر عن عيسى عليه الصلاة والسلام فقال :

« إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله » فكيف يكون إلهاً ؟!.

« وروح منه » أي : عبد من عباد الله ، وخلق من خلقه ، قال له : كن فكان ، ورسول من رسله ..

وأضيف الروح اليه على وجه التشريف ، كما أضيفت الناقة والبيت الى الله .

« فآمنوا بالله ورسله » أي : آمنوا بهم جميعاً ..

ولا تجعلوا عيسى إلهاً ولا ابناً ولا ثالث ثلاثة ..

« انتهوا » عن هذه المقالة الفاحشة ..

« خيراً لكم » أي : اقصدوا خيراً لكم ..

« وكفى بالله وكيلا » أي : مفوضاً اليه القيام بتدبير العالم ..

وفسر أبو عُبيد قوله سبحانه (وكلمته) كن فكان ..

وعن قتادة مثله .

وقال غيره : (وروحٌ منه) : أحياه فجعله روحاً ..

وقال مجاهد : وروح منه : أي : رسول منه ، وقيل : محبة منه ..

« ولا تقولوا ثلاثة » أي : ولا تقولوا في حق الله وعيسى وأمه ثلاثة آلهة بل الله إله واحد منزه عن الولد والصاحبة ، وعيسى وأمه مخلوقان مربوبان ..

عيسى ... عبد الله ؟!

« عن عبادة رضي الله عنه .

« عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« من شهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له .

« وأن محمداً عبده ورسوله .

« وأن عيسى عبد الله ، ورسوله ، وكلمته ألقاها الى مريم ، وروح منه .

« والجنة حق .

« والنار حق .

« أدخله الله الجنة ، على ما كان من العمل » .

[أخرجه البخاري]

قال القرطبي : المقصود من هذا الحديث التنبيه على ما وقع من النصارى من الضلال في عيسي وأمه عليهما السلام .

إنما أنا عبده ؟!

عن ابن عباس ، سمع عمر رضي الله عنه ، يقول على المنبر :

« سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

« لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم .

« فانما أنا عبده .

« فقولوا عبد الله ورسوله » .

[أخرجه البخاري]

« لا تطروني » من الإطراء ، وهو المديح بالباطل ..

تقول : أطريت فلاناً : مدحته فأفرطت في مدحه ..

وقيل : الإطراء : مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه ..

« كما أطرت النصارى » أي : في دعواهم في عيسى بالالهية وغير ذلك ..

« فإنما أنا عبده » الى آخره .. من هضمه نفسه وإظهاره التواضع .

ليس بيني ... وبينه نبي ؟!

« قال أبو هريرة رضي الله عنه :

« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« أنا أولى الناس بابن مريم .

« والأنبياء أولاد علات .

« ليس بيني وبينه نبي » .

[أخرجه البخاري]

« أنا أولى الناس بابن مريم » أي : بعيسى بن مريم ..

أي : أخص الناس ، وأقربهم اليه .

لأنه بشر بأنه يأتي من بعدي رسول اسمه أحمد ..

وقيل : لأنه لا نبي بينهما ..

فكما أنه أولى الناس بإبراهيم ، كذلك هو أولى الناس بعيسى ، وذلك من جهة قوة الاقتداء به ، وهذا من جهة قرب العهد به .

« أولاد علّات » هم الاخوة لأب ، من أمهات شتى ..

كما أن الاخوة من الأم فقط : أولاد أخياف ..

والاخوة من الأبوين : أولاد أعيان ..

ومعناه : أن أصولهم واحدة ، وفروعهم مختلفة ..

يعني انهم متفقون فيما يتعلق بالاعتقادات المسماة بأصول الديانات ..

كالتوحيد وسائر مسائل علم الكلام .

مختلفون فيما يتعلق بالعمليات وهي الفقهيات ..

« ليس بيني وبينه نبي » أي : وبين ابن مريم .

أنا أولى الناس ... بعيسى بن مريم ؟!

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أنا أولى الناس بعيسى بن مريم .

« في الدنيا والآخرة .

« والأنبياء اخوة لعلات .

« أمهاتهم شتى .

« ودينهم واحد » .

[أخرجه البخاري]

« ودينهم واحد » أي : التوحيد .. دون الفروع ، للاختلاف فيها .. قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) ..

ويقال : دينهم : أي : أصول الدين وأصول الطاعة واحد ..

والكيفيات والكميات في الطاعة مختلفة ..

مَن هو ... روح القدس ؟!

قال البخاري .. وهو قمة رواة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحاح ..

« روح القدس » : جبريل عليه السلام ..

« نزل به الروح الأمين » .

وقال الشارحون :

أشار به الى قوله تعالى : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) الآية ..

وفسر روح القدس بقوله (جبريل عليه السلام) .

وروى الطبري : روح القدس جبريل عليه السلام ، وأضيف الروح الى القدس وهو الطهر ، كما يقال : حاتم الجود ، وزيد الخير ، والمراد الروح القدس.

وقال ابن الأثير : لأنه خلق من طهارة ..

والروح في الحقيقة ما يقوم به الجسد ، وتكون به الحياة ..

وقد أطلق على القرآن ، والوحي ، والرحمة ، وعلى جبريل عليه السلام ..

ما الروح ؟!

« عن عبد الله قال :

« بينا أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم .

« في خرب المدينة .

« وهو يتوكأ على عسيب معه .

« فمر بنفر من اليهود .

« فقال بعضهم لبعض :

« سلوه عن الروح .

« وقال بعضهم : لا تسألوه ، لا يجيء فيه بشي تكرهونه .

« فقال بعضهم : ولنسألنه .

« فقام رجل منهم ، فقال :

« يا أبا القاسم : ما الروح ؟

« فسكت .

« فقلت : إنه يُوحى اليه .

« فقمت .

« فلما انجلى عنه .

« فقال : ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتوا من العلم إلا قليلا .

« قال الأعمش : هكذا في قراءتنا » .

[أخرجه البخاري]

فيه التنبيه على أن علم الروح علم قد استأثر الله به ولم يطلع عليه أحداً !

« في خرب » جمع خربة .. والخراب ضد العمارة .. ويقال : دار خربة ..

« يتوكأ » يعتمد ..

« على عسيب » العسيب جريد النخل .. وهو عود قضبان النخل .. كانوا يكشطون خوصها ويتخذونها عصيا ..

« بنفر » عدة رجال من ثلاثة الى عشرة ..

« سلوه » أصله : اسألوه ، أي : النبي صلى الله عليه وسلم ..

« فقمت » أي : حتى لا أكون مشوشا عليه ..

أو : قمت حائلا بينه وبينهم .

« فلما انجلى » فحين انكشف الكرب الذي كان يتغشاه حال الوحي ..

« ويسألونك عن الروح » وسؤالهم عن الروح بقولهم: ما الروح.. مشكل.

إذ لا يعلم مرادهم ..

لأن الروح جاء في القرآن على معان .

قال الله تعالى (نزل به الروح الأمين) .

وقال (تنزل الملائكة والروح فيها) .

وقال (روحاً من أمرنا) (يوم يقوم الروح) .

فلو عينوا سؤالهم لأمكنه أن يجيبهم ..

قال هذا القائل : ويمكن أن يكون سؤالهم عن روح بني آدم ، لأنه مذكور في التوراة انه لا يعلمه إلا الله ، وقالت اليهود : ان فسر الروح فليس بنبي ، فلذلك لم يجيبهم ..

قال عياض وغيره : اختلف المفسرون في الروح المسؤل عنها .

فقيل : سألوه عن عيسى عليه الصلاة والسلام ..

فقال لهم : الروح من أمر الله . يعني : انما هو شيء من أمر الله تعالى ..

وكان ابن عباس يكتم تفسير الروح ..

وعن ابن عباس ، وعلي رضي الله عنهم : هو ملك من الملائكة يقوم صفاً وتقوم الملائكة صفاً .. قال تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) .

وقيل : جبرائيل عليه السلام .

وقيل : القرآن لقوله تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا) .

وقال أبو صالح : هـــو خلق كخلق بني آدم ، ليسوا ببني آدم ، لهم أيد وأرجل !.

ما هي روح بني آدم ؟!

وأما روح بني آدم ..

فقال المازري : الكلام على الروح مما يدق ، وقد ألفت فيه التآليف ..

وأشهرها ما قاله الأشعري : انه النفس الداخل والخارج ..

وقال القاضي أبو بكر : هو متردد بين ما قاله الأشعري وبين الحياة ..

وقيل : جسم مشارك للأجسام الظاهرة والأعضاء الظاهرة ..

وقيل : جسم لطيف ، خلقه الباري سبحانه ، وأجرى العادة بأن الحياة لا تكون مع فقده ، فإذا شاء الله موته ، أعدم هـــذا الجسم منه عند انعدام الحياة ..

هل الروح هي النفس ؟!

واختلف : هل الروح والنفس واحد ، أم لا ؟

والأصح انهما متغايران ..

فإن النفس الإنسانية هي الأمر الذي يشير اليه كل واحد منا بقوله أنا ..

وأكثر الفلاسفة لم يفرقوا بينهما .

قالوا : النفس : هو الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإراديه ويسمونها الروح الحيوانية ..

وهي الواسطة بين القلب الذي هو النفس الناطقة وبين البدن ..

وقال بعض الحكماء والغزالي : النفس مجردة ..

أي : غير جسم ولا جسماني ..

وقال الغزالي : الروح جوهر محدث قائم بنفسه ، غير متحيز ، وإنه ليس بداخل الجسم ولا خارجاً عنه ، وليس متصلاً به ولا منفصلاً عنه وذلك لعدم التحيز الذي هو شرط الكون في الجهات ..

وقيل : انه جوهر فرد متحيز ، وإنه خلاف الحياة القائمة بالجسم الحيواني ، وإنه حامل الصفات المعنوية ..

وقيل : انه صورة لطيفة على صورة الجسم لها عينان وأذنان ويدان ورجلان في داخل الجسم ..

يقابل كل جزء منه عضو نظيره من البدن ..

وقيل : انه جسم لطيف في البدن سار فيه سريان ماء الورد فيه ..

وعليه اعتمد عامة المتكلمين من أهل السُّنة ..

وقد كثر الاختلاف في أمر الروح بين الحكماء والعلماء المتقدمين ، قديماً وحديثاً .

وأطلقوا أعنة النظر في شرحه ، وخاضوا في غمرات ماهيته ..

فأكثرهم تاهوا في التيه ..

فالأكثرون منهم على أن الله تعالى أبهم علم الروح على الخلق ، واستأثره لنفسه ..

حتى قالوا : ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن عالماً به !.

قلت : جل منصب النبي صلى الله عليه وسلم وهو حبيب الله وسيد خلقه أن يكون غير عالم بالروح !

وكيف وقد من الله عليه بقوله (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) ؟!

وقد قال أكثر العلماء : ليس في الآية دليل على أن الروح لا يعلم ، ولا على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلمها .

ماذا بعد هذا ؟!

تلك هي بعض النصوص المقدسة .. التي أنزلها الله تعالى في كتابه الكريم .. أو رواها الرواة الثقات عن رسوله المعظم ..

فرشناها للناظرين ..

روضة من رياض الجنة .. يجوس خلالها من شاء .. من القراء .. ليتلمس بنفسه حقيقة هذا الأمر الخطير .. « فنفخنا فيها من روحنا » ..

وإنما تعمدت الإطناب .. لتكتمل أدوات الموضوع .. أمام العيون ..

فماذا نفهم بعد هذا ؟!

القرآن يفسر ... بعضه بعضاً ؟!

نقتطف هنا أمهات النصوص التي وردت في الموضوع ..

وننظر : هل اكتملت الحقيقة من خلالها ؟

قال تعالى : « والتي أحصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها ، آية للعالمين » .

[الأنبياء ٩١]

هنالك إذاً نفخ .. في مريم ..

هذه حقيقة عامة ..

وقال تعالى :

« ومريم ابنت عمران ، التي أحصنت فرجها ، فنفخنا فيه من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها ، وكتبه ، وكانت من القانتين » .

[التحريم ١٢]

وهنا .. تحدد مكان النفخ ..

انه في .. رحمها .. حيث يتكون الجنين ..

ولعل (الفرج) إشارة الى الرحم كله .. باعتبار أن الجهاز التناسلي .. عبارة عن تجاويف .. أو تجويف ، أي : فرج ..

ثم ماذا ؟!

ثم قال تعالى :

« .. انما المسيح عيسى بن مريم ، رسول الله ، وكلمته ، ألقاها الى مريم ، وروح منه » ..

[النساء ١٧١]

ها هنا حقائق جديدة خطيرة جداً ..

الأولى .. ان عيسى .. ابن مريم .. فقط ..

الثانية .. انه رسول الله .. ليس إلا .. ولا يتجاوز ذلك ..

الثالثة .. ان المسيح .. كلمة من كلمات الله .. « كن فيكون » .. أمر من أوامر الله .. ليس بأول كلمة ولا آخر كلمة .. وإنما كلمات الله تعالى لا تنفد .. ولا تحصى وما المسيح بن مريم .. إلا واحدة من هذه الكلمات التي لا تنفد !.

وهذه حقيقة خطيرة جداً جداً جداً !.

الحقيقة الرابعة .. « ألقاها الى مريم » .. أمر أن تنفذ في مريم .. فكان حتماً أن تنفذ ..

يريد الله أن يكون هناك طفل بغير أب .. بكلمة منه تعالى .. فكان !..

الحقيقة الخامسة .. « وروحٌ منه » .. انما المسيح عيسى ابن مريم .. روح منه .. روحانية فائقة .. كائنة منه تعالى مباشرة .. أعطاه روحانية فاقت روحانية كثير من الأنبياء والمرسلين ..

هذه حقائق جديدة .. في ذلك النص ..

ثم ماذا ؟

ثم يقول تعالى :

« **لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله** » .

[النساء ١٧٢]

الحقيقة الجديدة هنا .. ان المسيح يتشرف أن يكون عبداً لله .. وانه لن يستنكف .. لن يأنف أن يعيش عبداً لله .. ويموت عبـــداً لله .. ويبعث عبداً لله ..

ولا يشرف المسيح أن يجعلوه إلهاً من دون الله .. أو ابناً لله ..

إنما يسوؤه ذلك .. ويحزنه أشد الحزن ..

أن افتتن به أتباعه .. وجعلوه إلهاً ..

وإنما سروره الأعظم .. أن يكون مقامه عند الناس كما أراده الله تعالى ..

عبداً له سبحانه ..

تلك الحقيقة التي أعلنها المسيح .. بنفسه ..

وكانت أول كلمة أذاعها بفمه الرضيع .. وأول قطرات النور التي خرجت من فمه وهو مولود لساعته ..

حين أشارت أمه اليه ..

فقال على الفور : « ... إني عبد الله ، آتاني الكتاب ، وجعلني نبياً » .

[مريم ٣٠]

إني عبد الله ؟!.

أول كلمة نطق بها الرضيع ..

أول كلمة من المعجزة .. أعلن فيها أنه عبد الله !.

ذلك هو مقامه .. الطبيعي .. كما هو مقام .. كل كائن في الوجود ..

« ان كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً » .

[مريم ٩٣]

ذلك ما يسر المسيح .. عليه السلام ..

أن يكون عبداً لله ..

وذلك ما أعلنه بنفسه .. فور ولادته .. إلى العالم كله .. إلى يوم القيامة !.

وذلك هو مقامه الطبيعي ..

وذلك هو شرفه الأعظم ؟.

ثم ماذا ؟!

ثم يقول تعالى :

« .. فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا .

« قالت : اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا .

« قال : انما أنا رسول ربك ، لأهب لك غلاما زكيا .

« قالت : أنى يكون لي غلاما ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا ؟!

« قال : كذلك ، قال ربك ، هو علي هين ، ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا .

« فحملته ، فانتبذت به مكانا قصيا .

« فأجاءها المخاض الى جذع النخلة » ..

[مريم ١٧ – ٢٣]

ما هي الحقائق الجديدة في هذه النصوص العليا ؟!

قبل أن أذيع عجائبها ..

أهتف بأعلى صوت .. وددت لو أن الخلائق أجمعين .. سمعوه .. ورددوه معي ..

أهتف هتافاً .. عن يقين .. تلألأت أمامه أعجب حقائق مكنونة في كلامه تعالى ..

: اللهم إني أشهدك .. وأشهد حملة عرشك .. وملائكتك .. وجميع خلقك .. أن القرآن العظيم .. كتابك الحق .. وكلامك الحق .. أنزلته على نبيك الحق !.

وإليك عجائب .. كانت مكنونة في هذه الآيات الكريمات ..

فإذا بها مفاتيح .. لكل أمر .. حار فيه الأقدمون .. والمحدثون .. من أمور المسيح عليه السلام ..

سأل الأولون والآخرون ذلك السؤال الرهيب : ان الله تعالى يقول : « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ، ألقاها الى مريم » ..

فكيف كان ذلك الإلقاء ، ومن الذي قام بالتنفيذ ؟

الجواب العجيب : « فأرسلنا اليها روحنا ، فتمثل لها بشراً سوياً » .

وها هنا حقيقتان عظيمتان خالدتان تتلألآن .

الأولى .. أن الله أرسل اليها .. روح القدس .. الذي هو جبريل .. ليقوم بتنفيذ الكلمة التي ألقاها .. سبحانه اليها ..

الثانية .. أن جبريل تمثل .. أي تشكل لمريم .. في صورة إنسان جميل ..

والملائكة دائماً تتشكل في أجمل صور ..

ويسألون : هل كانت مريم تعلم حقيقة هذا الذي فاجأها ؟

الجواب : كلا .. حتى أعلمها جبريل بحقيقته « قال : انما أنا رسول ربك » .

ويسألون : هل بيّن لها مهمته ؟

الجواب : نعم .. والآيات تتولى ذلك حين تقول : « .. لأهب لك غلاماً زكياً » ..

لأمنحك طفلاً ذكراً طاهراً .. راقياً .. سامياً ..

ويسألون : كيف يكون طفل بلا أب ؟!.

الجواب : « .. هو عليّ هيّنٌ » ..

انها القدرة .. ولا عجب من أمر الله !.

ويسألون : وما هدف هذه التجربة العجيبة التي كانت سبباً في فتنة ألوف الملايين ؟!.

الجواب : « .. ولنجعله آية للناس » ..

معجزة لجميع الناس .. تتحدث أن الذي خلق النواميس .. يملك أن يغيرها متى شاء !.

ويسألون : فما معنى قوله سبحانه « .. وروح منه » .. ألا يُوهم ذلك أن المسيح من الله ؟!

الجواب : « .. ورحمة منا » ..

تأمل الإعجاز ؟!

ان قوله تعالى « ورحمة منا » هو هو .. عين قوله تعالى « وروح منه » !.

هذه تفسر تلك ..

ان المسيح روح منه تعالى .. أي : رحمة منه تعالى .. « ورحمة منا » ؟!

فلا بضعية هناك .. وإنما هو رحمة عظيمة منه تعالى للناس .

ويسألون : وما الدليل على أن قوله تعالى: « .. وكلمته ألقاها إلى مريم » .. ان ذلك بمعنى الأمر الذي سوف ينفذ ويكون حتما ؟!

الجواب : « وكان أمراً مقضياً » ..

حتما يقع .. وحتما يكون .. كن فيكون !.

ولذلك قال بعدها مباشرة « فحملته » ..

فوراً .. كان الحمل .. وفوراً وقع الأمر ..

انها كلمة .. انه أمر إلهي .. حتما يقع .. وحتما يكون !.

وأخيراً .. وبعد أن تلألأت الحقائق العليا ..

من أخطر قضية .. شغلت وما زالت تشغل الملايين .. على وجه الأرض ..

قضية : كيف كان المسيح .. وما هي حقيقته ؟!.

أهتف .. عن يقين لا شك فيه ..

وعن برهان .. لا ظلام فيه ..

وعن عقل .. موزون .. بميزان مستقيم ..

: أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له .

: وأن محمداً ، عبده ، ورسوله .

: وأن عيسى ، عبد الله ، ورسوله .

: وكلمته ، ألقاها إلى مريم ، وروح منه .

: والجنة حق .

: والنار حق !.

يا يحيى ... خذ الكتاب ... بقوة ؟!...

لا يوجد كتاب سماوي ..

ولن يوجد .. إلى يوم القيامة ..

مثل ذلك الكتاب .. الذي اسمه « القرآن » ..

الذي سجل بدائع .. وعجائب .. وغرائب .. مريم ..

تسجيلا رفيعاً .. عالياً .. عميقـاً .. صادقاً .. كاملا .. مكتملا .. شاملا .. مشتملا ..

كل أولئك .. في إعجاز بياني .. يموج بأمواج الموسيقى الشعشعانية ..

ويتلالى .. ويتعالى .. إلى آفاق .. وراء العقول .. ووراء الطبيعة .. ووراء الإدراك !.

ذلكم بأنه « كتاب الله » ..

وحين يتكلم الله .. الى عباده ..

يأتي كلامه .. وليس كمثله كلام ..

من أجل ذلك .. وحفاظاً على قدسية تلك النصوص السماوية المثلى ..

أحببت أن اثبت هنا .. مطلع سورة « مريم » ..

كما هو .. كما أنزله الله تعالى ..

ليتلألأ في القلوب .. كما شاء الله له أن يتلألأ ..

ذلك المطلع الصبوح .. الجميل .. الحلو ..

الذي لا يوجد مثله جمالاً .. ولا كمالاً .. ولا سمواً .. ولا علواً ..
حيث قال فيه سبحانه : « واذكر في الكتاب مريم » ..
أي .. واذكر في سجل الخلود .. وسجل الخالدات ..
تلك العظيمة .. الكريمة .. العالية .. مريم ..
وها نحن أولاء .. نوشك أن ندخل معاً .. الى الآيات المعجزات ..
فلنقرأ ..
ولنتأمل ..
ولنتفكر ..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

- ١ -

كهيعص

كاف ...
ها ...
يا ...
عين ...
صاد ...
حروف مسرودة على نمط التعديد من مثلها .. كان هذا القرآن العظيم ..
ولئن كان البعض فوض علم حقيقة ذلك الى حضرة علام الغيوب ..

إلا أن الآية القادمة .. تشير الى ذلك ..

- ٢ -

ذكر رحمت ربك عبده زكريا .

« ذكر رحمت ربك » أي هذا المتلو .. هذا القرآن العظيم .. المؤلف من جنس هذه الحروف المبسوطة .. ذكر .. رحمة ربك ..

ومعنى ذكر الرحمة بلوغها وإصابتها .

« عبده زكريا » وزكريا – عليه السلام – من ولد سليمان ، بن داود – عليهما السلام –

وكان من أبناء الأنبياء ، الذين يكتبون الوحي في بيت المقدس ..

وقرىء : ذَكَّرَ .

أي : ذكر القرآن الناس أن رحم سبحانه عبده ..

وقرىء : ذَكَرَ .

أي : ذكر رحمة ربك عبده زكريا .

- ٣ -

إذ نادى ربه نداءً خفياً .

« إذ نادى ربه » إذ دعا ربه .

« نداء » دعاء .

« خفياً » مستوراً عن الناس ، ولم يسمعه أحد منهم ، حيث لم يكونوا حاضريه .

وكان ذلك – على ما قيل – في جوف الليل .

وإنما أخفى دعاءه – عليه السلام – لأنه أدخل في الإخلاص ، وأبعد عن الرياء ، وأقرب الى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد على مبادىء لا يليق به تعاطيها في أوان الكبر والشيخوخة .

ولا منافاة بين النداء وكونه خفياً ، بل لا منافاة بينهما إذا فسر النداء برفع الصوت ، لأن الخفاء غير الخفوت ، ومن رفع صوته في مكان ليس بمرأى ولا مسمع من الناس فقد أخفاه .

والمقصود بالذات الإخلاص .

أي : نادى بصوت عالٍ ، وهو في المحراب ، بعيداً عن الناس ، خفيـــاً عن الخلق .

إشعاعات

ما هذا ؟!

هذه موجة رحمة .. وهذه بدايتها ..

« إذ نادى » .. إذ جأر زكريا .. رب .. رب ..

وجؤار الأنبياء .. فيه صفاء الالتجاء ..

إنه موجة من نور .. تصّاعد من قلوبهم المشرقة .. الى ربهم ..

وهم دائماً أعلم الناس بربهم .. وأعلمهم بالكيفية التي ينبغي أن ينادوه تعالى بها .

لقد كان زكريا – على ما قيل – ابن مائة وعشرين سنة ..

وليس له ولد .. ليس له ذرية .. وامرأته عاقراً ..

فهناك استحالة .. استحالة الكبر .. واستحالة العقم ..

ومع هذا .. صرخ زكريا .. واستغاث ربه ..

وكان نداؤه خفياً .. عن الناس .. في ظلمات السحر ..

- ٤ -

قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا .

« قال » زكرياء .

« رب إني وهن » ضعف .

« العظم مني » اسناد الضعف إلى العظم لما انه عماد البدن ودعام الجسم ، فإذا أصابه الضعف والرخاوة تداعى ما وراءه وتساقطت قوته .

أو : لأنه أشد أجزائه صلابة ، وقواماً ، وأقلها تأثراً من العلل ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن .

وقرىء : َوهِنَ .

وقرىء : َوهُنَ .

« واشتعل الرأس شيباً » شبه الشيب في البياض والإنارة بشواظ النار ، وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها .

« ولم أكن بدعائك رب » أي لم أكن بدعائي إياك .

« شقيا » خائباً في وقت من أوقات هذا العمر الطويل .. بل كلما دعوتك استجبت لي ..

وهذا توسل منه – عليه السلام – بما سلف منه تعالى من الاستجابة عند كل دعوة ، إثر تمهيد ما يستدعي الرحمة من كبر السن وضعف الحال ، فإنه تعالى بعد ما عود عبده الإجابة دهراً طويلاً ، لا يكاد يخيبه أبداً ، لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره ..

وفي هذا التوسل من الإشارة إلى عظم كرم الله عز وجل ما فيه .

والتعرض في الموضعين لوصف الربوبية ، المنبئة عن افاضة ما فيه صلاح المربوب ، مع الإضافة الى ضميره - عليه السلام - لا سيما توسيطه بين كان وخبرها ، لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التضرع .

وقد جاء : أن العبد إذا قال في دعائه : يا رب ، قال الله تعالى له : لبيك عبدي .

إشعـــاعات

انظر .. عبده .. زكريا .. يدعوه ؟!

انظر الى الأنبياء .: حين ينادون ربهم ؟!

ربي ؟!

التجاء .. خشوع .. صراخ .. أنين ..

فيها موجات .. عاليات .. من النور .. تتموج الى الله ..

ثم يبثه تعالى آلامه .. فيقول .. وما أجمل ما قال :

إني .. وهن .. العظم .. مني ؟!

اني قد ضعفت عظامي كلها .. وهذا نذير فنائي .. وقرب نهايتي ..

اني أوشك أن أموت .. هذا هو دبيب الفناء يسري في عظامي كلها ..

ثم يؤكد زكرياء .. قرب نهايته .. وحتمية موته .. فيقول :

« واشتعل الرأس شيباً » .. وهذا رأسي .. عبارة عن شعلة مضيئة من الشيب .. لم تعد فيها شعرة واحدة سوداء !.

ثم يتلألأ زكريا .. ويرسل أنواره .. الى ربه .. فيقول :

« ولم أكن » في يوم من الأيام ، ولا في وقت من الأوقات .

« بدعائك » بدعائي اياك .

« رب » فيها الجمال كله .. ربي .. ربي .. يكررها .. ويكررها ..

« شقيا » كلما دعوتك سعدت باستجابتك لي .

لقد كان زكريا .. نوراً .. يموج الى ربه ..

- ٥ -

وإني خفت المو'اليَ من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا.

« وإني خفت الموالي » هم عصبة الرجل .

أو : بنو العم ، وهم الذين يلونه في النسب .

أو : من يلي أمره من ذوي قرابته مطلقاً .

أي : الورثة .

وكانوا – على سائر الأقوال – شرار بني اسرائيل ، فخاف – عليه السلام – أن لا يحسنوا خلافته في أمته .

والجملة عطف على قوله (اني وهن العظم مني) مترتب مضمونها على مضمونه ، فإن ضعف القوى ، وكبر السن من مبادىء خوفه – عليه السلام – من يلي أمره بعد موته ، حسبما يدل عليه قوله :

« من وراءي » من بعد موتي .

أي : خفت فعل الموالي من ورائي .

أي : خفت الذين يلون الأمر من ورائي .

أو : معنى (من ورائي) من قدامي وقبلي . والمـــراد واني مات الموالي القادرون على اقامة مراسم الملة ومصالح الأمة وذهبوا قدامي ولم يبق منهم من

به تقوى ، واعتضاد ، فيكون محتاجاً الى العقب لعجز مواليه عن القيام بعده بما هو قائم به ، أو لأنهم ماتوا قبله فبقي محتاجاً الى من يعتضد به .

« وكانت امرأتي عاقراً » أي لا تلد من حين شبابها الى شيبها .

فالعُقر : العقم . ويقال : عاقر للذكر والأنثى .

« فهب لي لدنك » أعطني من محض فضلك الواسع ، وقدرتك الباهرة ، بطريق الاختراع لا بواسطة الأسباب العادية .

أو : أعطني من فضلك كيف شئت .

« ولياً » ولداً من صلبي ..

ويؤيده قوله تعالى – في سورة آل عمران – (**قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة**) .

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فإن ما ذكره – عليه السلام – من كبر السن ، وضعف القوى ، وعقر المرأة ، موجب لانقطاع رجائه – عليه السلام – عن حصول الولد بتوسط الأسباب العـــادية ، واستيهابه على الوجه الخارق للعادة .

إشعـــاعات

ما هـذا ؟

هذا بيان لقوله تعالى : (**هنالك دعا زكريا ربه**) .. في آل عمران ..

حين شاهد زكريا .. الخوارق الظاهرة في حق مريم ..

ازداد علماً بقدرته تعالى .. وشوقاً الى استمطار رحمته سبحانه ..

وليس من شهد بعينه .. كمن لم يشهد ..

فماجت الأنوار في قلبه .. وانفتحت لها أبواب السماء ..

« ف . . هب لي .. من لدنك .. وليا » ..

أنا أعلم أن هناك استحالة أن يكون لي ولد .. لأني شيخ كبير .. تهدمت عظامه .. ولأن امرأتي عاقراً طول حياتها .. فضلاً عن يأسها وشيخوختها ..

هناك استحالات ..

نواميسك لا تسمح بذلك ..

ولكن قدرتك تسمح ..

فهب لي .. هب لي بقدرتك وحدها ..

من لدنك .. من عندك أنت .. مما هو وراء النواميس .. من قدرتك ..

ولياً .. وارثاً .. يرث هذه النبوة .. وهـــذا النور الذى أعطيتنيه .. فلا يضيع ..

- ٦ -

يرثني ويرث من ءال يعقوب واجعله رب رضيا .

« يرثني » يرث النبوة التي أعطيتني .

« ويرث من آل يعقوب » ويرث تلك النبوة المتسلسلة فيمن اخترت من بني اسرائيل .. المتنقلة فيهم من يعقوب .. حتى انتهت إليّ ..

وآل الرجل خـــاصته الذين يؤول اليه أمرهم للقرابة ، أو الصحبة ، أو الموافقة في الدين ..

« واجعله رب رضيا » أي مرضيا عندك قولاً وفعلاً .

أو : راضياً .

كأنه طلب أن يكون ولده عالماً عاملاً .

وقيل : المراد جعله مرضياً بين عبادك أي متبعاً .

إشعـــاعات

ماذا يريد زكريا .. من الولد ؟

« يرثني » تنتقل اليه هذه الأنوار .. أنوار النبوة .. التي أعطيتنيها .. وإنها لأغلى ميرات .

وماذا فوق النبوة .. وماذا وراءها .. من النور .. والعطاء .. الذي يمكن أن يعطى لبشر في دنياه ؟

لا شيء ..

فهي أغلى .. وأعلى شيء ..

من أجل ذلك كان صراخ زكريا .. عميقاً .. عميقاً .. الى ربه .. أن يخرق له الناموس .. ويهب له من لدنه مباشرة .. وارثاً .. يرث هذه الأنوار ..

« ويرث من آل يعقوب » .. هـــذه النبوة التي انتقلت من ابراهيم .. الى اسحاق .. الى يعقوب .. الى يوسف .. إلى موسى .. إلى هارون .. إلى داوود .. إلى سليمان .. وأيوب .. ويونس .. واليسع .. وذا الكفل .. ثم إلى زكريا .. أخيراً ..

وآخرين .. وآخرين ..

لا نريد حصراً .. ولا ترتيباً .. وإنما مثالاً ..

هؤلاء الأنبياء .. هذه السلسلة من المصابيح .. من النور .. هم آل يعقوب .. الذين ورثوا النبوة والكتاب .. وانتقلت الأنوار من أحدهم إلى الآخر ..

هذا هو الميرات الذي يثير القلق والخوف .. من قلب زكريا ..

وهؤلاء هم بنو اسرائيل .. وقـــد انتشر فيهم الفساد .. ومالت قلوبهم

إلى الدنيا .. ولا يرى فيهم زكريا من يصلح ليرث هذا النور .. أو ليقوم بحمل الأمانة من بعده ..

ولقد كان زكريا – عليه السلام – يعلم علم اليقين أن النبوة لا تورث ..

وأنها فضل الله يؤتيه من يشاء ..

من أجل ذلك كان صراخه « هب لي من لدنك » .. أنت وحدك القادر على أن تحقق لي هاتين المعجزتين .

الأولى .. أن تهب لي ولداً رغم الاستحالات القائمة ..

الثانية .. أن تجعله نبياً .. صالحاً لحمل الرسالة .. مؤهلا قلبه لتجلي أنوارها قائماً برعاية حقوقك .

مؤهلا نفسياً وشخصياً .. لها .. وهذا يشير اليه قوله « واجعله رب رضيا » مرضيا عندك قولاً وفعلا ..

اجعله أنت .. يا قادر .. وحدك .. شيئاً رفيعاً عندك .. لأنه في نفسه شيء رفيع ..

وحين يدعو الأنبياء ربهم .. يدعونه بما يعلمون منه تعالى .. ومايعلمون أنفسهم. يعلمون منه تعالى ما لا نعلم نحن جميعاً ..

يعلمون أن النواميس الإلهية لا تبديل لها ولا تغيير ولا تحويل ..

هذا حق .. ولكن الذي خلق الناموس .. يملك أن يوقف ذلك الناموس .. أو يبدله .. متى شاء ..

« هنالك .. دعا زكريا ربه » .. حين شهد التجربة عملياً .. وآثر ذلك واقعياً ..

« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها .. رزقا .. قال : يا مريم أنى لك هذا ؟!. قالت : هو من عند الله .. ان الله يرزق من يشاء وبغير

حساب .. هنالك .. دعا زكريا .. ربه .. قال : رب هب لي من لدنك ذرية طيبة » ..

[آل عمران ٣٧ و ٣٨]

رأى .. زكريا .. وشهد بعينيه .. كيف حوّل الله الناموس الظاهر .. لمريم .. هنالك طمع زكريا في رحمته تعالى .. فناداه ..

وحين يدعو الأنبياء ربهم .. يدعونه بما يعلمون من أنفسهم .. وما لا نعلمه منهم ..

يعلمون من أنفسهم كثيراً .. من مقاماتهم العُلى مع ربهم ..

ولهم معه تعالى أحوالاً .. وأحوالاً .. هي فوق ما نتصور أو ندرك ..

ولو كان الطفل المولود لساعته يدرك شيئاً من أفكار أبيه الشيخ الكبير ..

لأمن لنا نحن .. الأطفال الصغار .. الى جوار الأنبياء .. أن ندرك شيئاً من أفكارهم .. ومشاعرهم .. وأحاسيسهم مع ربهم تبارك وتعالى ..

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ..

كان زكريا .. حين دعا ربه .. يعلم منه ما لا نعلم ..

وكان يدعوه وهو يعلم من الأنبياء ما لا نعلم ..

كان مقاماً خاصاً به .. مع ربه سبحانه وتعالى ..

فماذا كان ؟

- ٧ -

يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا .

« يا زكريا » قال الله تعالى : يا زكريا والمشهور أن هذا القول كان إثر الدعاء .. ولم يكن بين البشارة والولادة إلا شهر ..

ولم يخاطبه سبحانه وتعالى بذلك بالذات ، بل بواسطة الملك كما يدل عليه آية أخرى ..

« إنا نبشرك بغلام » بولد ذكر .

« اسمه يحيى » في تعيين اسمه – عليه السلام – تأكيد للوعد ، وتشريف له – عليه السلام –

« لم نجعل له من قبل سميا » شريكا له في الإسم ، حيث لم يسمَّ أحد قبله بيحيى .

أو (سميا) بمعنى شبيهاً .

أي : لم نجعل له شبيهاً ، حيث أنه لم يعص ولم يهم بمعصية .

« عن ابن عباس » أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ ، أو هم بخطيئة ، إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام ، لم يهم بخطيئة ولم يعملها » .

وقيل : لم يكن له شبيه لذلك ، ولأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر .

إشعـــاعات

ما هذا الجمال ؟! .

ان الله تبارك وتعالى .. وتقدست أسماؤه .. وتنزهت صفاته .. يتكلم .. فماذا قال ؟

« يا زكريا . إنا .. نبشرك بغلام .. اسمه يحيى .. لم نجعل له من قبل سميا » !.

لولا أنها في ألفاظ .. والألفاظ في حروف .. لقلت : انهـا بحار .. من

أنوار .. والأنوار .. لا يدرى أولها من آخرها .. ولا آخرها من أولها ..

« يا زكريا » .. انظر إلى جمال النداء .. يا زكريا ..

لقد كان زكريا أسعد انسان على ظهرها وهو يُنادى : يا زكريا ..

« إنا نبشرك » .. إنا نحن الله نبشرك ..

وحين يبشر الله عبداً .. فإنما بشراه حق واقع .. لا محالة ..

« بغلام » .. وأي غلام .. غلام يعدل أجيال .. مقاماً عظيماً .. مستوى آخر غير الناس ..

« اسمه يحيى » من الجمال الذي فيها .. ان الله تعالى يحدد له اسمه ..

وهذا دليل الألوهية من هذه البشرى ..

لأن العلم الإلهي قد أحاط بما سيكون .. حتى اسم الولد .. قد تحدد !.

وفيه ايحاء الى زكريا .. أن يسميه يحيى ..

لتتطابق الظواهر والبواطن .. والشهادة والغيب !.

« لم نجعل له من قبل سميا » .. لم نخلق له شبيهاً في صفاته ..

ما معنى هذا ؟

هل معناه أن يحيى ناموس وحده دون سائر الأنبياء .. أو انه خارج دائرة نواميس البشرية ؟!

كلا .. وإنما المراد أن الله تعالى اختصه بصفات عليا غلبت عليه ..

انه كان نوراً .. لا سلطـــان للهوى ، ولا للشهوات ، ولا للغرائز على عقله وقلبه ..

وهذا ما يشير اليه الأثر : « لم يهم بخطيئة ولم يعملها » .

أي لم يفكر اطلاقاً .. ولا حتى مجرد الفكرة العابرة في المعصية ..

وهذا تمهيد طبيعي .. للمسيح – عليه السلام – الذي سيأتي روحاً مطلقة من بعد ..

ولننظر الآن .. ماذا طلب زكريا .. وماذا أعطى واستجيب له ؟

طلب زكريا : هب لي من لدنك وليـــاً .. يرثني ويرث من آل يعقوب .. واجعله رب رضيا ..

وأعطى : مقابل : هب لي من لدنك وليا .. إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ..

ومقابل : يرثني ويرث آل يعقوب .. واجعله رب رضيا .. أعطى « لم نجعل له من قبل سميا » .. أي جعلناه نبياً .. واختصصناه بصفات لم نعطهـــا لنبي غيره !.

- ٨ -

قال رب أنى يكون لي غـــلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا .

« قال » كأنه قيل : فماذا قال – عليه السلام – حينئذ ؟. فقيل : قال :

« رب » ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعـــالى اليه بواسطة الملك للمبالغة في التضرع والمناجاة ، والجد في التبتل اليه عز وجل .

« أنى » كيف ، ومن أين ؟!

« يكون لي غلام » أي كيف ، أو : من أين يحدث لي غلام ؟!

« وكانت امرأتي عاقراً » أي كانت امرأتي عاقراً لم تلد في شبابها وشبابي ، فكيف وهي الآن عجوز ؟!

« وقد بلغت في الكبر عتيا » وقد بلغت أنا من أجـــل كبر السن يبسا وقحولا .

أو : قد بلغت حالة لا سبيل الى اصلاحها .

قيل : كان عمر امرأته ثماني وتسعين !.

والعتي : من عتى يعتو اليبس والقحول في المفاصل والعظام .

وقيل : هو حالة لا سبيل الى اصلاحها ، ومداواتها ، أو رياضتها .

قيل : طلب زكريا — عليه السلام — ولداً على الجملة ، وليس في الآية ما يدل أنه يوجد منه وهو هرم ، ولا إنه من زوجته وهي عاقر ، ولا أنه يعاد عليهما قوتها وشبابها كما فعل بغيرهما ، أو يكون الولد من غير زوجته العاقر ، فاستبعد الولد منها وهما بحالهما ، فاستخبر : أيكون وهما كذلك ؟!

« فقيل له : كذلك .

أي : يكون الولد وأنتما كذلك !.

إشعـــاعات

زكريا .. في مقام النور .. والقرب .. والسرور .

رجل .. يقول له الله تعالى .. ويبعث اليه ملائكته : « **فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى** » .

فيأخذه الطرب .. لبلوغ الارب .. فتتموج أحاسيس النور .. من قلبه الشريف .. وتتصاعد الى ربه :

« رب » .. فيها جمال النجوى .. وحـــين تنشعشع من نبي .. فهي شيء آخر .. فوق تصورنا وأوهامنا .

« أنى يكون لي غلام » .. فيها جمال عجيب ..

كأنه طفل صغير يبشره أبوه بشيء يسره .. فينظر الطفل إلى أبيه من شدة السرور .. ويسأله في لهفة : متى يأتيه بما وعد وكيف ؟!

وللأنبياء مع ربهم حالات من الصفاء. والصفو .. والمناجاة .. والمناغاة .. فوق عقولنا ..

ما كان ذلك من زكريا استبعاداً ..

ولكن كان استفهاماً .. كيف يا رب يحدث ذلك ..

وهناك استحالتان .. وكانت امرأتي عاقراً .

والاستحالة الثانية .. وقد بلغت من الكبر عتيا ..

فلا هي تصلح للولادة .. ولا أنا أصلح للإخصاب .. وقد بلغت من الكبر مبلغاً كبيراً .. أوهن عظامي .. وأيبسها ؟!

ان زكريا .. يرغب أن يعرف .. كيف تتم المعجزة ؟!

كيف تتحول النواميس من أجله ؟

كيف يبدل الله سنته .. ويغير قانونه الطبيعي .. من أجل عوينات زكريا ؟

وكان سروراً .. ما بعده من سرور !.

- ٩ -

قال كذلك قال قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا .

« قال » الرب عز وجل .

« كذلك » أي الأمر كذلك .

« قال ربك » قال ربك يا زكريا .

« هو عليّ هيّن » المراد أني كامل القدرة على ذلك إذا أردته كان ..

ثم لو كان الاقتصار في جواب زكريا – عليه السلام – على (هو علي هين) من دون اقحام (قال ربك) لكان مستقيماً لكن انما عدل اليه للدلالة على تحقق الوعد وإزالة الاستبعاد بالكلية .

« على منوال ما إذا وعد ملك بعد خواصه ما لا يجد نفسه يستأهل ذلك ، فأخذ يتعجب مستبعداً أن يكون من الملك بتلك المنزلة فحاول أن يحقق مراده ويزيل استبعاده .

« فإما أن يقول : لا يستبعد انه أهون شيء على ، على الكلام الظاهر .

« وإما أن يقول : لا تستبعد قد قلت انه أهون شيء عليَّ .. إشارة منه الى انه وعد سبق القول به وتحتم ..

« وأنه من جلالة القدر بحيث لا يرى في انجازه لباغيه ، كائناً من كان وقعاً ، فكيف لمن استحق منه لصدق قدمه في عبوديته إجلالاً ورفعاً » ؟!

والمقصود أن علو المكانة ، وسعة القدرة ، وكمال الجود يقضي بذلك ..

« وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » تقرير لما قبل ..

والشيء هنا بمعنى الموجود .

أي : ولم تك موجوداً ، بل كنت معدوماً .

إشعـــاعات

زكريا .. يسأل في سرور : أيكون ذلـــك وكانت امرأتي عاقراً .. وقد بلغت من الكبر عتيا ؟!.

والله تعالى يجيب : كذلك ..

ثم يؤكد .. ويؤكد : قال ربك ..

أمرَ ربك يا زكريا ..

« هو علي هين » .. ليس هذا الذي تتعجب منه بشيء في قدرتنا يذكر ..

« وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئـــاً » .. ماذا كنت يا زكريا قبل أن أخلقك ؟ .

هل كان لك وجود ؟

هل كنت شيئاً ؟

لا شيء .. كنت يا زكريا .. وقد خلقتك .. وأوجدتك من لا شيء ..

فكيف تعجب أن أخلق لك طفلاً من زوجة عاقر عجوز .. وزوج بلغ من الكبر عتيا ؟!

بل هذا في قياس العقول أهون .. لأن بعض الأسباب هنـــا موفورة .. وبعضها ممتنعاً ..

أما خلقك الأول فهو أعجب .. مما منه تعجب ..

فإن تخليق الطفل .. السوي .. الكامل التكوين .. بأجهزته الهضمية .. والنفسية .. والتناسلية .. والدموية .. والليمفاوية .. وغـــير ذلك .. من لا شيء .. يرى بالعين .. أو يذكر باللسان .. أعجب في الحقيقة من خلق طفل من أبوين مهما كان حال هذين الأبوين من الاستحالة .

ولكن جريان العادة بالتناسل يومياً .. جعل الناس يفهمون أن ذلك ليس بآية .. لأنه نظام طبيعي !.

فلما أن بشره الله بيحيى على كبر وعقر .. كان له عجباً .. وما كان ذلك في قدرة الله بأعجب من خلق ملايين الأطفال من لا شيء كل يوم !.

– ١٠ –

قال رب اجعل لي ءَاية قال ءَايتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا .

« قال : رب اجعل لي آية » أي علامة تدلـــني على تحقق المسؤل ، ووقوع الخبر .

« قال : آيتك ألا تكلم النـــاس » علامتك .. أن لا تقدر على تكليمهم بكلامهم المعروف في محاوراتهم .

روى : أنه لما حملت زوجته – عليه السلام – أصبح لا يستطيع أن

يكلم أحداً ، وهو مع ذلك يقرأ التوراة ، فإذا أراد مناداة أحد لم يطقها .

« ثلاث ليـــال » مع أيامهن .. التصريح بالأيام في سورة آل عمران .. والقصة واحدة .

« سويًا » سوي الخلق ، سليم الجوارح ، ما بك شائبة بكم ولا خرس .

أي : ان انتفـــاء التكلم بطريق الإعجاز وخرق العادة ، لا لاعتقال اللسان بمرض .

أي : يتعذر عليك تكليمهم ولا تطيقه حـــال كونك سوي الخلق سليم اللسان .

وعن ابن عباس أن (سويا) عائد على الليالي : أي كاملات مستويات .. فيكون صفة لثلاث .

إشعـــاعات

وأعطاه ربه ما يريد من علامة ..

« آيتك ألا تكلم الناس » .. ستمنع لسانك عن النطق .. فلا تستطيع لهم خطاباً .

« ثلاث ليال » .. ويستمر ذلك المنع .. ثلاث ليال بأيامهن .. كاملات ..

« سويا » .. وما بك من ســـوء .. أو مرض .. أو نقص .. أو علة .. تمنعك من الكلام .

فما هو الجمال .. من هذه الآية ؟

أو ما هي اشارات تلك المعجزة الأخرى ؟

أن يمنع زكريا من الخلق .. ويتخصص للحق . تبارك وتعالى ..

إن باطن زكريا كله .. قد استغرق في الأنوار ..

ولم يبق منه إلا هذا اللسان .. الذي يخاطب به الناس ..

فليمنع إذاً هذا اللسان .. من الانشغال بغير الله .

وقد كان .. ما ان حملت زوجته منذ اللحظة الأولى للجنين .. وقعت الآية ومنع لسان زكريا من الكلام مع الناس ..

فعلم زكريا على الفور .. أن المعجزة قد بدأت .. أن امرأته قد حملت ..

وعلى الفور .. تحرك لسانه يسبح ربه ويحمده .. ويشكره ..

بينا هذا اللسان لا يستطيع الكلام مع غير الله .. مع الناس ..

فكان الحمل بيحيى .. معجزة .. تكوين ..

وكان منع لسان زكريا من الكلام مع الناس .. معجزة .. تربية ..

الأولى علامة على قدرة الله على كل شيء ..

والثانية علامة على قدرة الله على تأديب أنبيائه بأحسن التأديب .

وبينا كانت المعجزة الأولى .. يحيى .. يتكون في أحشاء أمه .. ويتخلق مؤكداً بذلك أن الذي خلق النواميس يملك أن يغير النواميس .

كانت المعجزة الثانية .. امساك لسان زكريا قهراً عن الكلام مع الناس .. وإطلاقه في الكلام مع الله ثناءً وتسبيحاً وحمداً وتعظيماً وشكراً .. تؤكد أن الله يربي أنبياءه تربية فوق التصور .. ويأخذ بهم الى مستويات عليا .. فوق العقول .

وهكذا .. استجاب الله دعاء زكريا .. ووهب له يحيى .

ثم زاده من فضله تعالى .. فآتاه نعمة شكر النعمة ..

فأمسك لسانه عما سوى الله . وأطلقه كله لله ..

فسبحان من وهب .. لزكريا .. ما وهب .

وسبحان من أمسك لسانه عما سواه !.

واعتكف زكريا في المعبد .. طيلة الليالي الثلاث .. وطيلة نهارهن .

يعبد ربه .. ويسبحه .. ويشكره .

فلما أتمهن .. أطلق الله لسانه ..

- ١١ -

فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا .

« فخرج على قومه من المحراب » أي من المعبد .. أو المصلى .. أو الهيكل.

روى أن قومه كانوا من وراء المحراب ينتظرون أن يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلوا فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم متغير لونه فأنكروه وقالوا : ما لك ؟

« فأوحى اليهم » أي أومأ اليهم ، وأشار .

ويشهد له قوله تعالى (إلا رمزاً) .

ورُوى عن ابن عباس : كتب لهم على الأرض .

« أن سبحوا » التسبيح على ظاهره وهو التنزيه .

ولعله – عليه السلام – كان مأموراً بأن يسبح شكراً ويأمر قومه .

« بكرة وعشيا » أي نزهوا ربكم طرفي النهار .

قالوا : في هذا معنى لطيف ، وهو انه خص التسبيح بالذكر لأن العادة جارية أن كل من رأى أمراً عجب منه أو رأى فيه بديع صنعة أو غريب حكمة يقول : سبحان الله تعالى ، سبحان الخالق جل جلاله ، فلما رأى حصول الولد من شيخ وعاقر عجب من ذلك فسبح وأمر بالتسبيح !.

في محرابه .. في حجرته الخاصة .. في خلوته .. من المعبد العام .. حيث كان يتعبد .. ويسبح ..

خرج زكريا .. على قومه .. لا يستطيع كلاماً ..

فلما لم يفهموا شيئاً .. كتب لهم : « سبحوا بكرة وعشيا » .

نزهوا ربكم صباحاً ومساءً ..

سبحوه دائماً .. لا تفتروا عن تسبيحه .

فكان منظر زكريا هذا .. وهو ممنوع من الكلام .. يكلم الناس رمزاً .. وإشارة .. آية أخرى .

ووقف زكريا يوجه الشعب .. الى تنزيه الله .

حتى يفك الله اعتقال لسانه ..

فيحدثهم بما كان من شئونه تعالى .

- ١٢ -

يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا .

« يا يحيى » أي : فلما ولد .. وبلغ سنا يؤمر مثله فيه .. قلنا : يا يحيى .

مسارعة الى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم .

« خذ الكتاب » أي التوراة .

وقيل : المراد الجنس ، أي كتب الله تعالى .

« بقوة » بجد ، واستظهار ، وعمل بما فيه .

وقائل ذلك هو الله تعالى على لسان الملك كما هو الغالب في القول للأنبياء – عليهم السلام –

« وآتيناه الحكم صبيا » أخرج أبو نعيم ، وابن مردويه ، والديلمي ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في ذلك : اعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين » .

والظاهر أن الحكم على هذا المعنى الحكمة .

وقيل : هي بمعنى العقل .

وقيل : معرفة آداب الخدمة .

وقيل : الفراسة الصادقة .

وقيل : النبوة – وعليه كثير – قالوا : اوتيها وهو ابن سبع سنين .. ولم يتنبأ أكثر الأنبياء – عليهم السلام – قبل الأربعين .

أشعـــاعات

ما معنى هذا الاختلاف في روايات تفسير « الحكم » ؟!.

الحق انها ليست اختلافات .. وإنما هي ينابيع تنبع من معين واحد .. هو النور .

فمعنى «وآتيناه الحكم صبيا» .. أي أعطيناه نور النبوة في قلبه منذ ولد .. منذ كان صبيا .

فهو مخلوق نوراني .. تضيء من قلبه أنوار النبوة من صغره ..

ومتى كان يحيى نوراً .. من صغره .. كان نبياً .. وكان حكيماً .. وكان عاقلاً .. وكان عارفاً بآداب خدمة ربه .. وكان ذا فراسة صادقة .

لأن النور هو مصدر الصفات العليا كلها .

فإذا تحقق له من صغره .. صدرت عنه كل هذه الصفات .

فمعنى قوله تعالى : « وآتيناه الحكم صبيا » أي جعلناه نوراً من صغره .

ثم ماذا ؟

ثم قوله تعالى « يا يحيى .. خذ الكتاب .. بقوة » .

ماذا فيها ؟!

فيها إعجاز في التعبير .. فلو أن الخلق جميعاً .. جاءوا صفا .. ليضعوا بحار أنوارها .. في ثلاث كلمات ما استطاعوا .

ولكن الله تعالى أنزلها في ثلاث « خذ الكتاب بقوة » .

نفّذ .. طبّق .. ما في التوراة .. وما في جميع الكتب المنزلة الن قبلك بأقصى ما تستطيع من قوة .. علمية .. وعملية .. ونورانية .. ونبوية .

انطلق بأقصى طاقاتك .. يا يحيى .. الينا .

انه نفس قوله تعالى « ففرّوا الى الله » .

ان الله تعالى يأمر نبيه .. يحيى .. أمراً .. عظيماً .

انه يأمره أن يفر اليه .. بأقصى ما يستطيع من قوة .

وهذا هو معنى « خذ الكتاب بقوة » .. وليس المعنى احفظ هـــذا الكتاب .. بلسانك .

كلا .. فذاك أمر ميسور للعوام ..

ولا المعنى .. طبّق تعاليم الكتاب .

فذاك أمر سهل على العلماء ..

ولكن يحيى . نبي .. عظيم .

فوق هذا كله ..

ان المراد منه فوق ما يراد ممن دونه .

انه يريد منه أن يفر اليه بأقصى طاقاته التي آتاه .

ان يحيى نور .. فلينطلق الى ربه في سرعة الضوء .

بل هو أسرع .. لأن نور الأنبياء أعلى .. وأعلى .. وأعلى .. من كل ضوء .

ومتى انطلق يحيى الى ربه .

فقد أخذ الكتاب بقوة .. لأن هدف الكتب الإلهية كلها .. أن تكون نوراً .. القلوب !.

- ١٣ -

وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقيا .

« وحناناً من لدنا » وآتيناه رحمة عظيمة عليه ، كائنة من جنابنا .

أو : وآتيناه رحمة في قلبه ، وشفقة على أبويه ، وغيرهما .

« وزكاة » وبركة .

أي : وبركة من لدنا .

ومعنى إيتائه البركة – على ما قيل – جعله مباركاً ، نفاعاً ، معلماً للخير .

وقيل : هي الطهارة من الذنوب .

« وكان تقيا » مطيعاً ، متجنباً عن المعاصي .

وقد جاء .. أنه – عليه السلام – ما عمل معصية ولا همّ بها .

إشعـــاعات

هذه دعائم كينونة يحيى .. عليه السلام ..

يكشف الله تعالى .. لنا .. عن أسرارها .. وأنوارها ..

انظر .. « وحنانا .. من لدنا » ..

اختصصناه برحمة عظيمة .. رحمة فوق ما نعطي سائر البشر .. على مستوى عطاء الأنبياء ..

من أين هذه الرحمة الزائدة ؟

« من لدنا » منه هو تعالى .. مباشرة ..

لا عن طريق القوانين الطبيعية .. أو النواميس الثابتة ..

ولكن .. حنانا .. من لدنا ..

منه تعالى مباشرة .. شيئاً آتاه يحيى ..

حناناً ؟!.

هل هو شيء غير الرحمة ؟

الرحمة عامة .. ينبوع عام ..

والحنان زهرة من أزاهير الرحمة ..

الحنان هو شدة الشفقة على خلق الله .. وإرادة الخير لهم ..

وكانت هذه الصفة بارزة جداً في يحيى .. وفي شخصيته ..

ثم ماذا ؟

« وزكاة » .. وزكاة من لدنا ..

ورقياً .. منه تعالى مباشرة .. كذلك ..

رقياً .. وسمواً .. فوق المألوف من البشر .. على مستوى الأنبياء .

رقياً لا يكتسب عن طريق النواميس المألوفة .

ولكنه فضل الله يؤتيه من يشاء .. « من لدنا » .

هذا الرقي .. الذي كان عليه يحيى .. كان من أبرز صفات شخصيته ..

ثم ماذا ؟

« وكان تقياً » وكان دائماً .. طول حياته .. وفي سائر أحواله .. تقياً .
لم يعمل معصية .. ولم يفكر في معصية .. ولم يهم بمعصية .

شخصية .. جميلة جداً .

روح .. نور .. يسعى في شخص انسان .. اسمه يحيى .. عليه السلام !.

- ١٤ -

وبرّاً بوالديه ولم يكن جبّاراً عصيّاً .

« وبراً بوالديه » كثير البر بهما ، والإحسان اليهما .

أي : وكان براً بوالديه .. بأبيه وأمه .

« ولم يكن جباراً » متكبراً ، متعالياً عن قبول الحق ، والإذعان له .

أو : متطاولاً على الخلق .

« عصياً » مخالفاً أمر مولاه عز وجل .

وقيل : عاقاً لأبويه .

إشعاعات

هذه مقومات أخرى .. من شخصية يحيى .. عليه السلام .

« وبراً بوالديه » .. هذه آثار صفته الكبرى .. « وحناناً من لدنا » .

ان الله أعطاه نسبة عالية جداً من الحنان .. من الشفقة على الخلق .

فكان أول مظاهر هذه الشفقة .. بره بوالديه .. شـــدة حنانه ورحمته لأبيه وأمه .

ولو تفكرنا في طفل آتاه الله حناناً من لدنه كبيراً .

بين والدين كبيرين .. الأب في المـــائة والعشرين وزيادة .. والأم في نحو المائة .

وأن هذا الطفل جاءهما .. هبة من الله .. عن معجزة خاصة بهما .. وعن يأس من الولد .

وأن هـــذا الطفل كان صغيراً .. وشاباً .. شديد العطف .. والرأفة أبويه هذين .

أدركنا مدى جمال الرحمة والحنان الذي جعله الله في هذا الغلام .

ومدى العطاء الذي أعطى الله لزكريا وزوجه في هذا الغلام .

لقد كان لهم قرة عين .. ونور فؤاد .. وجنة في صحراء الكبر .

« ولم يكن » .. في يوم من أيامه .. أو حال من أحواله .

« جباراً » متطاولاً على الخلق .. أو على الحق .. متعالياً .

وحاشاه .. فما للكبر .. الى هؤلاء من سبيل !.

« عصيا » لم يعص قط .. ولم يفكر في معصية قط .

- ١٥ -

وسلامٌ عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيّاً .

« وسلام عليه » أمان من الله تعالى عليه .

« يوم وُلد » من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم .

« ويوم يموت » وأمان من الله تعالى عليه يوم يموت .

من وحشة فراق الدنيا وعذاب القبر .

« ويوم يبعث حيا » من هول القيامة وعذاب النار .

وجيء بالحال للإشارة الى أن البعث جسماني لا روحاني .

وقيل : الأظهر أن المراد بالسلام التحية المتعارفة .

والتشريف بهـــا لكونها من الله تعالى في المواطن التي فيها العبد في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر الى الله عز وجل .

إشعـاعات

أجمل تحية .. يُحيي الله تعالى بها .. يحيى .

« وسلام » .. وأمان منا ليحيى .. يوم ولد طفلا .. فرعيناه .. وأنشأناه وجعلناه نوراً .

« وسلام عليه يوم ولد » .. سلام عظيم على هذا الطفل الكريم المبارك .

« ويوم يموت » .. وسلام عليه يوم يستشهد في سبيل الحق .. والثبات على الحق .. فللتشرفه بذلك تشريفاً عظيماً .

ثم ننقله الى برزخه .. بعد الموت .. حيث يلقى جزاء الأنبياء الشهداء .

أمان له حين يستشهد .. وأمان له في برزخه .. وحياته فيها .

« ويوم يُبعث حيا » .. ويوم نبعثه يوم القيامة .. مع النبيين العظماء .

ان الله تعالى يلقي سلاماً عظيماً .. على يحيى .

في مولده .. أي في حياته الدنيا .

وفي موته .. أي في حياة برزخه .

وفي بعثه حيا .. أي في حياته الأخرى .

عليه السلام .. يوم ولد .. ويوم يموت .. ويوم يبعث حيا !.

والسلام علي ... يوم ولدت ... ويوم أموت ...
ويوم ابعث حيا ؟!...

- ١٦ -

واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا .

« واذكر » أمر – عليه الصلاة والسلام – بذكر قصة مريم ، إثر قصة زكريا – عليه السلام – لما بينهما من كمال الاشتباك والمناسبة .

« في الكتاب » المراد بالكتاب – عند بعض المحققين – السورة الكريمة ، إذ هي التي صدرت بقصة زكريا – عليه السلام – المستتبعة لقصتها ، وقصص الأنبياء – عليهم السلام – المذكورين فيها .

أو : القرآن .

أي : واذكر للناس فيها .

« مريم » أي نبأها .

أو : واذكر مريم وما جرى لها إذ انتبذت .

« إذ انتبذت » إذ اعتزلت وانفردت .

قالوا : انتبذ فلان ، اعتزل اعتزال من تقل مبالاته بنفسه فيما بين الناس .

« من أهلها » من أهل بيتها .

« مكانا شرقيا » أي اعتزلت وانفردت من أهلها ، وأتت مكانا شرقيا من بيت المقدس ، لتتخلى هناك للعبادة .

إشعـاعات

ما معنى « واذكر في الكتاب » ؟!

معناه كبير جداً .. أي وسجّل في سجل الشرف والخلود .. تلك القصة العجيبة .. قصة تلك الفتاة العظيمة .. الطاهرة .. التي تعرضت لأرقى وأعلى تجربة إلهية تتعرض لها فتاة في الوجود .

لقد اختارها الله .. وأجرى عليها مقاديره .

وجعلها مظهراً من مظاهر قدرته تعالى .. أن يخلق ما يشاء .. كيف شاء .. متى شاء .

ولتكون وابنها آية للعالمين .

وبرهاناً على أن الناموس الإلهي .. القانون الطبيعي .. ليس ملزماً لله تعالى .. بل هو سبحانه ان شاء أجراه .. وإن شاء بدله .. وإن شاء ألغاه .

ومريم .. تعتبر أشهر فتاة في التاريخ .

وأعظم فتاة في تاريخ المرأة على الإطلاق .

لأسباب كثيرة .. أهمها .. أنها تعرضت لبلاء لم تتعرض له فتاة في الوجود .

وهذا بنص القرآن : « .. **واصطفاك على نساء العالمين** » .

فهي العذراء .. الوالدة !.

وهي أم عيسى .. وليست زوجة لأحد آنذاك !.

ظهرت فيها قدرة الله تعالى .. وتلألأت .. وأعلنت أن الله يقدر أن يفعل ما يشاء .

- ١٧ -

فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا .

« فاتخذت من دونهم حجابا » ساتراً .

أي آوت الى مكانها الذي تستتر فيه من الناس .. وتتخلى فيه لعبادة ربها .

« فأرسلنا اليها روحنا » فأرسلنا اليها جبرائيل – عليه السلام –

وعبر عنه بذلك لأن الدين يحيا به وبوحيه .. والإضافة للتشريف ، لبيت الله تعالى .

« فتمثل لها » فتصوّر لها .

« بشراً » إنساناً .. شاباً .

« سويّاً » سوي الخلق ، كامل البنية ، لم يفقد من حسان صفـــات الآدمية شيئاً .

كان تمثله على ذلك الحسن الفائق ، والجمـــال الرائق ، لأن عادة الملك إذا تمثل أن يتمثل بصورة بشر جميل .. كما كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحيه – رضي الله تعالى عنه –

أو : لابتلائها ، وسبر عفتها .. ولقد ظهر منهـــا الورع ، والعفاف ، ما لا غاية وراءه .

إشعـاعات

هذه مقامات العظمة من تلك الفتاة العظيمة .. مريم .

فتاة .. انقطعت .. لله .. في المعبد الأعظم .. بيت المقدس .

وخصصت لها صومعة .. تأوي اليها ليلها ونهارها .

تركع .. وتسجد .. وتخشع .. وترتل آيات الله .

فهي محتجبة عن الناس احتجاباً تاماً .

تعيش حياة الراهبات القاسية .. المتجردة . من الدنيا .. وأهلها .

انقطاع تام عن الخلق والدنيا .. وتجرد تام لله ربها .

تعيش في صومعتها .. لا ترى أحداً .. ولا ترى رجالاً .. ولا يرونها .

وهذا ما نشير اليه « فاتخذت من دونهم حجابا » .

ثم كانت المفاجأة التي هزت أعصابها هزاً عنيفاً .

لا يحتمله الرجال .. فكيف بالنساء ؟!

ما هي المفاجأة ؟!

إذا بها في وحدتها .. ترى رجلا !.

شاباً .. جميلا .. أمامها !.

من أين جاء .. وكيف جاء ؟!

لا تدري مريم من ذلك شيئاً .

لقد رعبت رعباً شديداً جداً .

لقد فوجئت .. وكان أبعد شيء عن تفكيرها .. أن تجد أمامها فجأة رجلا .. وما انقطعت في صومعتها إلا لتحتجب عن الخلق جميعاً !.

فالجمال الكامن في هذه الآية .. من كتاب الله .

يكشف عن الجمال الكامن في المعجزة التي أحدثها الله تعالى .

في صدر الآية تجد قوله تعالى « فاتخذت من دونهم حجاباً » .

أي أن مريم فعلت أقصى ما تستطيعه الأنثى من الاحتجاب عن الرجال .

فهجرت الدنيا .. وانقطعت عنها .. وعاشت في صومعتها من بيت المقدس ترتل في محرابها وتترنم لربها .

فكانت المعجزة .. عكس ما أرادت مريم .. تماماً .

هي تبتعد عن الرجال .. وتحتجب منهم .

والله يبعث اليها رجلا .. بشراً .. سويّا .

وهو ما تسجله الآية في نهايتها « **فأرسلنا اليها روحنا .. فتمثل لها .. بشراً سويا** » .

أي : تعمدنا .. أن نرسل اليها جبريل .. ليتصور لها .. أي من أجلها .. إنساناً جميلا ؟!

وحين يفاجأ الإنسان بشيء يضـــاد تفكيره وترتيبه وظنونه .. تحدث له صدمة عنيفة جداً .. تهز أعماقه هزاً رهيباً .

فيكون مؤهلا بعد ذلك .. لتلقى إجراء التجربة .. التي يريد الله تعالى أن يجريها عليه .

فتاة .. طاهرة .. احتجبت عن الناس جميعاً .. لتتخصص لربها .

وبالغت في الاحتجاب .. فاتخذت صومعتها من دونهم حجاباً .

وانظر الى قوله (حجابا) .. إشارة الى انه حجاب عظيم .. لا يستطيع أحد أن يقتحمه عليها .

ولا يخطر ببالها أن أحداً يهتكه .. ويدخله عليها !.

وفجأة .. وهي في صومعتها .. في محرابها .. تتعبد .. والباب مغلق عليها من داخل .. ولا يوجد هناك ولو خرق بسيط يسمح بدخول أحد اليها .

فجأة .. ترى رجلا .. شاباً قوياً .. جميلا .. أمامها ؟!

مفاجأة تامة .. زلزلت أعصابها .. وأثارت فيها رعباً .. ثم رعباً .

هل هو آدمي .. ولكن كيف دخل اليها ؟!

هل هو عفريت من الجن .. ولكن كيف يجرؤ على ذلك .. وهي تستعيذ بالله من شرورهم ؟!

هل هو جان .. يريد بها أمراً .. ولكن لماذا اتخذ هذه الصورة الآدمية ؟!

هل هو ملاك من ملائكة الله .. التي تقرأ عنهم في كتب الله .. ليل نهار ؟! ولكن لماذا اختار هذه الصورة .. وماذا يريد منها ؟!

وكانت دوامة .. سبح فيها تفكير الفتاة الصغيرة .. الطاهرة .

وهذا كله تسجله الآية القادمة تسجيلا عجيباً .

وهذا الذي حدث لمريم .. هو عين ما حدث لمحمد .. صلى الله عليه وسلم .

فقد كان صلى الله عليه وسلم .. منقطعاً عن الناس .. ليتعبد في غار حراء .

اتخذ من دونهم حجاباً .. ستراً .

وتركهم جميعاً .. ترك دنياه .. وانقطع الليالي ذوات العدد .. في غار حراء يتأمل .. ويصلي .. ويتعبد .. ويفكر .

وفجأة .. إذا به بالملك .. يغطه .. حتى يخيل اليه أنه يخنقه .. ثم يرسله فعل به ذلك ثلاثا .

من هو هذا الملك الذي فاجأ محمداً في انقطاعه عن الناس .. واقتحم عليه خلوته .. وأرعبه هذا الرعب الشديد ؟!

هو هو نفسه .. جبريل .

« روحنا » .. الذي يبعثه الله تعالى الى رسله .. بالروح من أمره .. فيكون مفاجأة تامة لهم أول الأمر .

ثم يكشف لهم عن شخصيته .. حتى يألفوه .

نفس التجربة .. ونفس العملية .. ونفس الملاك .

وسبحان من لا تجد لسنته تبديلا .. إلا أن يشاء هو سبحانه تبديلا .

وهكذا رعبت مريم رعباً شديداً .. ظنت أنه الموت .

كما رعب محمد صلى الله عليه وسلم رعباً شديداً حين فاجأه جبريل – عليه السلام – أول مرة .. وعبر صلى الله عليه وسلم عن ذلك بنفسه فقال – من حديث البخاري – « فظننت أنه الموت » .

وهذا الرعب المفاجىء .

مقصود لذاته .. ومتعمد من الله .. ليهز أعماقهم هزاً رهيباً .. ويحدث بأنفسهم انقلاباً عاصفاً .. يؤهلهم لتلقي آيات الله المنزلة عليهم .. أو التي سوف تظهر فيهم .. ويكونوا موضع تجربتها .

رعباً :. شديداً .. عبرت عنه مريم .. بقولها :

- ١٨ -

قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا .

« قالت » مريم .. وهي في أشد الفزع .. من هول تلك المفاجأة .

« إني أعوذ بالرحمن منك » انما ذكرته تعالى بعنوان الرحمانية تذكيراً لمن رأته بالرحمة .. ليرحم ضعفها وعجزها عن دفعه .

أو : مبالغة للعياذة به تعالى .. واستجلاباً لآثار الرحمة الخاصة .. التي هي العصمة مما دهمها .

« ان كنت تقيا » أي ان كان يرجى منك أن تتبقى الله تعـــالى وتخشاه وتحتفل بالاستعاذة به فإني عائذة به منك .

أو : ان كنت تقيا فتتعظ بتعويذي .

أو : ان كنت تقيا متورعا فإني أعوذ منك ، فكيف إذا لم تكن كذلك ؟

أو : ما كنت تقياً متورعاً بحضورك عندي ، وانفرادك بي .

إشعاعات

فتاة .. على الغاية من السمو .. والالتجاء إلى ربها .

رجل .. تجده .. فجأة .. أمامها .

وهي وحدها .

ماذا تفعل ؟

أتصرخ .. وماذا ينفعها الصراخ ؟.

وهو إن شاء دهمها .. وفعل بها ما يشاء ؟!

هنالك .. في رعبها .. وفزعها .. التجأت اليه تعالى « إني أعوذ بالرحمن منك » .. فهو وحده القادر على إنقاذي منك .

« إن كنت تقيا » إن كنت لا تريد بي شراً . أو تريد بي شراً .. ان كنت تقيا .. أو عصيا .

هو وحده الذي يستطيع .. ويقدر أن ينقذني منك .

وذلك مقام لمريم .. عظيم .. يدل على سموها .. وعظم مكانتها من ربها .. وعلمها به سبحانه .

ان مريم .. لم تكن تعلم حقيقة هذا الشاب الذي أمامها .

هل هو رجل يريد بها شراً ؟

هل هو جان تجسم في صورة رجل ؟

هل هو ملاك في صورة بشر ؟

ولكن .. لماذا يفعل هذا .. ولماذا يحدث لها ذلك ؟

وكيف استطاع أن يتسلل الى صومعتها المحكمة .. المغلقة من الداخل ؟

روى – عن ابن عباس – أنها لما قالت : (اني أعوذ) الخ ، تبسم جبريل – عليه السلام – وقال ؟

– ١٩ –

قال انما أنا رسول ربِّك لأهب لكِ غلاما زكيا .

« قال » جبريل – عليه السلام –

« إنما أنا رسول » ولست برجل ، ولا جان ..

« ربك » المالك لأمرك ، والنـــاظر في مصلحتك ، الذي استعذت به ، ولست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر .

« لأهب لك » لأكون سبباً في هبته ..

أو : بتقدير : ربك الذي قال : أرسلت هذا الملك لأهب لك .

أو : أمرني أن أهب لك غلاماً .

وقرىء : ليَهَبَ .

« غلاماً » طفلا .. ذكراً .

« زكيا » طاهراً من الذنوب .

أو : نبيا .

أو : نامياً على الخير ، مترقياً من سن الى سن على الخير والصلاح .

فالزكا .. شامل للزيادة المعنوية والحسية .

واستدل بعضهم برسالة الملك اليها على نبوتها .

وأجيب بأن الرسالة لمثل ذلك لا تستدعى النبوة ..

وكانت هذه هي المفاجأة .. الأشد وقعاً .. على قلبها ..

لقد كانت المفاجأة الأولى .. رعباً ..

فجاءت هذه شيئاً يطير لها فؤادها شعاعاً ..

مريم .. الطاهرة .. المتبتلة .. التي أسلمتها أمهـــا منذ ولادتها الى بيت المقدس ..

لتكون راهبة .. تنقطع لخدمة ربها .. والتقرب اليه ..

يكون جزاؤها .. هذا الجزاء المضاد ؟

وكانت هذه المفاجأة .. شيئاً يضاد ما جاءت الى بيت المقدس من أجله ..

لقد جاءت لتنسلخ من دنياها .. وعالم الجنس .. وتتخصص لربها ..

فابتليت بعكس ما جاءت من أجله .. ارغمت على الحَمْل .. والولادة .. والأمومة ..

ودخول الدنيا من أعمق مداخلها ..

وابتليت بلاء فوق ما يحمل البشر ..

وطار عقلها .. وازدادت اضطراباً .. كيف يكون هذا الغلام ؟

وكيف تحمل ولم يمسسها بشر ؟

وكيف يحدث هذا الحادث ؟

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وهو ما هو عليه من المقام الأعلى في الأنبياء ..

قد رعب رعباً شديداً .. أول لقائه مع جبريل ..

حتى عاد يضطرب فؤاده .. وهو يئن أنيناً : زملوني زملوني ..

إذا كان محمد صلى الله عليه وسلم .. سيد أولي العزم من الرسل ..

وأكثر الرجال شجاعة وعزماً وجراءة ..

وإذا كان هذا حاله .. فكيف كان شأن مريم .. الفتاة .. التي تحمل في كينونتها ضعف جنسها .. ونعومة النساء .. ورقة الآنسات ؟!

لقد اهتز بنيانها .. وكاد أن يذوب ..

المفاجأة الأولى .. رجل أمامها فجأة .. في خلوة .. عليها مغلقة ..

المفاجأة الثانية .. نبأ خطير .. لأهب لك غلاماً زكيا ..

وطار عقلها .. نوراً .. ورعباً .. وخوفاً .. وحزناً .. ودهشة .. وشماعاً !

- ٢٠ -

قالت انى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا .

« قالت » مريم .. عليها السلام :

« أنى » كيف ، ومن أين ؟!.

« يكون لي غلام » يحدث لي طفل .

« ولم يمسسني بشر » والحال أنه لم يباشرني بالحلال رجل .

« ولم أك بغيا » ولم أكن زانية .

والبَغيّ .. هي التي يبغيها الرجال للفجور بها .

أو : بمعنى فاجرة .. تبغي الرجال .

وأيا ما كان فهو للشيوع في الزانية صار حقيقة صريحة فيه .

إشعـــاعات

أنثى ؟!.

ان عقلها لا يتصور .. كيف يحدث هذا الأمر ..

« ولم يمسسني بشر » .. عشت حياتي كلها .. لم يمسني رجل .. من قريب .. أو بعيد .. مجرد مساس ..

وهذا تعبير .. فتاة .. سامية .. طاهرة .. عاشت حياتها كلها .. منقطعة إلى ربهـا ..

« ولم أك بغيا » .. كيف يحدث هذا الأمر .. ولم يمسني بشر عن طريق الانحراف .. أو الالتواء !.

ان مريم .. في عاصفة .. عنيفة .. تموج في قلبها موجاً كالجبال !.

- ٢١ -

قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا .

« قال » جبريل – عليه السلام –

« كذلك » الأمر كذلك .

تصديقاً لها .. أي أنتِ كما ذكرت لم يمسك بشر .. ولم تكوني بغيا ..

أو : الأمر كذلك .. كما وُعدتِ .. تحقيقـــاً لحدوث ما وعدها به هبة الطفل ..

« قال ربك » قال جبريل : قال ربك كذلك ..

أي : أمر بذلك ..

« هو علي هين » كلام الحق تعالى شأنه حكاه لها .

« ولنجعله » أي لنجعل وهب الغلام .

« آية » برهاناً .

« للناس » جميعهم .

أو : المؤمنين .

يستدلون به على كمال قدرتنا .

« ورحمة » عظيمة كائنة .

« منا » عليهم ، يهتدون بهدايته ، ويسترشدون بإرشاده .

« وكان » ذلك .

« أمراً مقضياً » محكماً ، قد تعلق به قضاؤنا الأزلي .

أو : قدر وسطر في اللوح لا بد منه .

أو : كان أمراً حقيقاً بمقتضى الحكمة والتفضل أن يفعل لتضمنه حكماً بالغة .

إشعاعات

كأن جبريل – عليه السلام – يريد أن يقول لها : لا شأن لي .. ولا مدخل لي في الأمر .. انما أنا رسول ربك .. ليس إلا .. أفعل ما أومر ..

يشير الى ذلك قوله « كذلك .. قال ربك » ..

أمر ربك بهذا .. ولا أعصى له أمراً ..

« هو عليّ هيّن » .. يسير جداً .. على الله .. أن يهب لك غلاماً على غير النواميس المألوفة .. دون أن يمسسك بشر .. ودون لقاء جنسي .. ودون امناء ودون نطفة ..

شيء يسير جداً .. بل هو لا شيء في قدرة الله تعالى ..

وقال ربك : ولنجعله آية للناس .. معجزة لجميع الناس الى يوم القيامة ..

برهاناً لهم جميعاً .. ودليلا على أن الله تعالى ليس حتما عليه أن يتقيد بالنواميس الطبيعية .. وإنما هو يفعل ما يشاء .. ويخلق ما يشاء .. كيف شاء .. متى شاء ..

وها هو هذا الغلام .. مثالاً لقدرة الله ..

فكل الناس يخلقون من مني يمنى .. من تلقيح بويضة المرأة بحيوان الرجل المنوي ..

هذا هو القانون الطبيعي ..

ولكن الله يريد أن يجعل هذا الغلام آية أخرى ..

تهز تفكير أولئك الذين تبلدت عقولهم فظنوا ألا تبديل ولا تغيير للقوانين الطبيعية ..

ودفعهم ثباتها .. وعدم تغيرها .. إلى إنكار الألوهية .. وزعموا أنها الطبيعة تمضي على قوانين مطردة ثابتة ..

هؤلاء .. وغيرهم .. لا بد لهم من انقلاب يحدث في النواميس التي فتنتهم .

لا بد لهم من آية .. تهزهم .. ليفيقوا من غفلتهم .. ويدركوا أن هناك إلهاً .. خلق النواميس .. ويملك متى شاء أن يغيرها .. ويبدلها .

« ورحمة منا » ولنجعل هذا الغلام رحمة .. منا .. نحن .. للناس جميعاً .

رحمة عظيمة .. فيها نور .. وهدى .. ومقامات عليا .

انه غلام عظيم .. خلقه آية .. وحياته رحمة .. للناس جميعاً .

« وكان أمراً مقضياً » .. أمراً حتماً .. لا بد من حدوثه .. انما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

هنالك وقع الحق ..

فأيقنت مريم أن التجربة كائنة .. وأنها سوف تكون حتماً موضع التجربة الإلهية !.

فأسلمت نفسها لله .. يفعل بها ما يشاء ..

- ٢٢ -

فحملته فانتبذت به مكانا قصيا .

« فحملته » فاطمأنت الى قول جبريل — عليه السلام — فنفخ فيها .. فحملته ..

أي : فصارت حاملا .. في أحشائها بداية جنين ..

واختلفوا في سنها إذ ذاك :

فقيل : ثلاث عشرة سنة .

وقيل : أربع عشرة سنة .

وقيل : خمس عشرة سنة .

واختلفوا في مدة حملها ، ففي رواية عن ابن عباس : أنها تسعة أشهر كما في سائر النساء .

« فانتبذت به » فاعتزلت وهو في بطنها .

أي : فانتبذت ملتبسة به .

« مكاناً قصيا » بعيداً من أهلها وراء الجبل .

روى أن جبريل — عليه السلام — نفخ في جيبها فحملت ، حتى إذا أثقلت وجعت ما يجع النساء ، وكانت في بيت النبوة فاستحيت ، وهربت حياء من

قومها ، فأخذت نحو المشرق ، وخرج قومها في طلبها ، فجعلوا يسألون : أيتهم فتاة كذا وكذا ؟. فلا يخبرهم أحد ، فكان ما أخبر الله تعالى به .

إشعـــاعات

وحملت العذراء !.

ووقعت التجربة .. وكان أمراً مقضيّا ..

نفخ فيها جبريل .. وعلى الفور كان الحمل ..

وبدأ الجنين يتخلق .. ويمضي إلى ما أراد الله له أن يكون ..

كيف تم النفخ. وأين كان النفخ .. وفي أي جزء من جسمها حدث النفخ.. وما هو هذا النفخ ؟!.

كل أولئك علمه عند ربي ..

وما النفخ هنا .. إلا كما قال في خـــلق آدم « **فاذا سويته ونفخت فيه من روحي** » .

انما هو تعبير .. عن تصوير افاضة الحياة لعقولنا ..

ولكن الكيفية .. والحقيقة .. فوق عقولنا ..

لا تستطيع عقولنا لها إدراكا ..

ولا يغررك في هذا المقام أقاويلهم يحاولون شرحها .. .

فما هي إلا ظنون .. وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ..

وهؤلاء الذين يظنون أنهم يستطيعون الوصول إلى حقيقة نفخ الروح .. عليهم أن ينبئونا كيف يتم نفخ الروح في الجنين كل يوم .. في تلك الأجنة التي تتخلق وتتكون في البطون يومياً !.

اللهم أنت وحدك علام الغيوب !.

ولا نستطيع في هذا المقام إلا أن نقدم قوله تعالى : « ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين .

[التحريم ١٢]

وإياك أن تتوهم شيئاً .. غير التصديق بما أخبر به الله تعالى .. ولا تذهب في الأمر المذاهب .

وأمر آخر . .

يختلفون في سنها وقت النفخة .. التي كان منها الجنين ..

ولعل الأقرب الى الحق .. أنها كانت عند اكتمال أنوثتها .. وبلوغها مبلغ الآنسات .. اللائقات للحمل ..

وأمر آخر ..

وهو الحيرة التي أصابتها .. والحزن الشديد ..

حين ظهر عليها علامات الحمل .. ثم ازدادت ظهوراً ..

فدفعها ذلك إلى البعد عن الأعين ..

فاعتزلت .. بعيداً .. بعيداً .. مكاناً قصياً ..

تجربة شاقة جداً جداً جداً .. تجربة لو اجريت على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً .. من هول ما يلاقي ..

ولكنها .. مريم ..

التي وصفها ربها بأنها صدِّيقة .. في مقام يكاد يقرب من مقام النبوة .. وعلى قدر المقام .. يكون البلاء ..

قال تعالى : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام » ..

[المائدة ٧٥]

وهذا ما يقطع بأنها صدّيقة ..

وليس بعد كلام الله كلام !.

- ٢٣ -

فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هـــذا وكنت نسيا منسيا .

« فأجاءها » فألجأها .

أجاته الى كذا : بمعنى ألجأته واضطررته اليه .

« المخاض » الطلق ، وتحرك الولد في بطنها للخروج .

وقرى : فاجأها .

من المفاجأة .

« الى جذع النخلة » لتستند اليه عند الولادة .

والجذع ما بين الجذر ومتشعب الأغصان من الشجرة .

عن ابن عباس — رضي الله تعالى عنهما — أنها — عليها السلام — لما اشتد عليها الطلق نظرت الى أكمة ، فصعدت مسرعة ، فإذا عليهـــا جذع نخلة نخرة ، ليس عليها سعف .

وكان الوقت شتاء .

« قالت » قالت مريم .. عليها السلام .

« يا ليتني مت » وقرىء : مُتُّ .

« قبل هذا » الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت .

أو : قبل هذا الأمر .

وإنما قالت – عليها السلام – مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل – عليه السلام – من الوعد الكريم استحياء من الناس ، وخوفاً من لائمتهم .

أو : حذراً من وقوع الناس في المعصية بما يتكلمون فيها ..

« وكنت نسياً » شيئاً تافهاً شأنه أن ينسى ولا يعتد به أصلاً .

وقرىء : نِسيا .

وقرىء : نِسئاً .

وقرىء : نَسأ . على أن ذلك من نسأت اللبن إذا صببت عليه ماء فاستهلك اللبن فيه لقلته ، فكأنها تمنيت أن تكون مثل ذلك اللبن الذي لا يرى ولا يتميز من الماء .

« منسيا » لا يخطر ببال أحد من الناس .

إشعاعات

لماذا .. هذا .. يا مريم ؟

بأبي أنت وأمي .. يا مريم .. ما كنت فيه من تجربة !.

ولا يدرك ثقل التجربة على أعصابها .. إلا من كان في مثل حالها ..

فتاة .. عذراء .. جميلة .. كاملة .. أنفقت حياتها في التطهر ..

تبتلى بما يدفع الناس جميعاً إلى التغامز .. وظن السوء بها !.

خرجت تحمله في بطنها .. تلتمس البعد عن العيون في شعاب الجبال ..

خرجت وحدها !.

وحدها .. لا معين .. ولا أنيس .. ولا جليس .. ولا أحـــد يعينها ولو بكلمة !.

وفي وحدتها المطلقة .. وغربتها التامة عن الخلق ..

تفاجأ بما هو أدهى وأمر ..

أوجاع المخاض تنفجر في كيانها انفجاراً ..

ونظرت في كل مكان .. فلم تقع عينها على أحد ..

واشتد الطلق .. وكادت تسقط انهياراً .. فألجأتها الضرورة الى جذع نخلة جاف .. لا أثر فيه لحياة ..

ووحدها .. في غربتها التامة .. توجعت .. وتفتتت ..

انظر .. سمو البلاء .. وعلو المقام !

عذراء تشعر أن العالم كله يتهمها .. وهي بريئة .. أعلى وأكمل براءة ..

وتشعر أن ذلك سببه أنها موضع تجربة جديدة .. تجربة تغيير القانون الطبيعي كله .. وأن الناس جميعـــاً يعلمون أن القوانين الطبيعية لا تبديل لها ولا تغيير ..

فهم من هنا سوف يكذبون .. ويقولون : انها كاذبة فيما تزعم ..

ويمكنك أن تفكر في جسامة بلائها .. إذا تفكرت في إنسان يتهمه كل الناس .. وهو بريء مما يتهمون ويظنون !.

ولكن من يصدق هذا ؟!

فكيف وهي فتاة .. أو كيف وهي الطاهرة .. المطهرة ؟!

لقد تمت الغربة لمريم واكتملت ..

تلك الغربة التي يفرضها الله تعالى على أنبيائه .. فرضاً .. ليسوقهم بهـــا سوقاً اليه ..

ويرفعهم بها رفعاً فوق الناس جميعاً ..

ولقد بلغت غربتها أقصاها .. حين فاجأها المخاض ..

تلك اللحظة التي تحتاج فيها المرأة الى من يعينها ..

فلم تجد أحداً معها .. وأنى لها من أحـــد يعينها .. وقد خرجت تفر من أعينهم فراراً ؟!

إلا هذا الجذع .. الجاف .. استندت اليه .. لعلها تجد فيه عوناً !.

تأمل الموقف .. وعش مع مريم .. تلك الصدّيقة .. وهي تخوض التجربة وحدها .. لا أحد معها ..

لتستطيع أن تدرك شيئاً من آلامها .. التي تنوء بها الجبال ..

وتدرك لماذا تفجعت هذا التفجع الخالد ، الذي يموج بالأحاسيس الرفيعة .. الصاعدة الى ربها ..

« يا ليتني مت قبل هذا » .. ما أجلها وهي تخرج من فمك الطاهر المطهر .. يا مريم !.

تتمنى لو ماتت قبل حدوث هذا الطلق .. وهذا المخاض ..

ذلك أن معاناة التجربة شيء .. والسماع عنها شيء آخر ..

وهي التي تعاني .. وهي التي تتألم .. وحدها ..

وتتموج الآلام السامية الرفيعة من قلبها الطاهر .. المقرب .. « وكنت نسياً منسيّاً » ..

شيئاً لا يذكره أحد .. ولا يلتفت اليه أحد .. ولا يقع فيها بسببه أحد ..

هذه آلام الأنثى ..

ولكن القدر يريد أمراً .. غير أمانيها ..

يريد أن يحملها .. وابنها .. آية للعالمين ..

وأن يبرهن بها على أن الله هو القادر وحده على تغيير القوانين الطبيعية ..

وأن ذلك أهون شيء عنده .. « هو عليّ هيّن » ..

وأنها سترتفع بما جرى خلالها الى أعظم أنثى في الوجود .. « واصطفاك على نساء العالمين » ..

وأنها ستكون أشهر .. وأخلد .. أنثى على وجـــه الأرض .. الى يوم القيامة ..

هي تتمنى أن تكون « نسيا منسيا » .. والله يريد أن تكون أشهر أنثى في الأرض ..

وهي تتمنى أن تموت .. قبل أن ينتشر أمر ولادتها للغلام ..

والله يريد أن تحيا .. ويحيا الغلام ..

وتنتشر قصة مريم .. وعيسى بن مريم .. في كل زمان .. ومكان ..

وينشأ من هذا دين سماوي عظيم .. يكون رحمة للبشرية كلها .. حتى بعثة محمد .. صلى الله عليهم وسلم ..

كما قال تعالى : « ورحمة منا » ..

لماذا هذا كله ؟!

« وكان أمرا مقضيا » .. أمراً أراده الله .. فكان حتماً أن يحدث ..

وانظر الآن .. كيف أصبحت مريم .. موضع اجـــلال .. واكبار .. الملايين ..

وكيف أصبح ابنها .. التي كانت تتوارى بسببه عن الخلق .. صاحب رسالة يدين بها مئات الملايين ..

وكذلك تمت كلمة ربك .. صدقاً .. وعدلاً .. لا مبدل لكلماته ..

وكان جزاء غربتها التامة .. شهرتها التامة ..

وجزاء تمنيها أن تنسى نسياناً تاماً .. ان أصبحت حديث القرون .. وعلى كل لسان !.

- ٢٤ -

فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا .

« فناداها » فناداها مَلَك .. أي جبريل – عليه السلام –

« من تحتها » من مكان أسفل منها .. وكان واقفاً تحت الأكمة التي صعدتها مسرعة كما سمعت آنفاً .

ولعله انما كان موقفه – عليه السلام – هناك إجلالاً لهـا ، وتحاشياً من حضوره بين يديها في تلك الحال .

وقيل ضمير (تحتها) للنخلة ، والمنادي عيسى – عليه السلام – والضمير لمريم .. أي : فولدت غلاماً ، فأنطقه الله تعالى حين الولادة ، فناداها المولود من تحتها .

وقرىء : مَن .

بمعنى : الذي تحتها .. والمراد به ، إما عيسى .. أو جبريل – عليهما السلام –

« ألا تحزني » أي لا تحزني .

أو : بأن لا تحزني .

« قد جعل ربك تحتك » بمكان أسفل منك .

وقيل : تحت أمرك ، ان أمرت بالجري جرى ، وإن أمرت بالإمساك أمسك .

« سريّا » جدولاً .

وسمى الجدول سريا لأن الماء يسري فيه .

وكان ذلك – على ما روى عن ابن عباس – جدولاً من الأردن أجراه الله تعالى منه لما أصابها العطش .

وروى أن جبريل – عليه السلام – ضرب برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولاً .

وقيل : فعل ذلك عيسى – عليه السلام –

وقيل ان المراد بالسريّ عيسى – عليه السلام – وهـــو من السرو بمعنى الرفعة .

أي : جعل ربك تحتك غلاماً رفيع الشأن ، سامي القدر .

والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهي عنة .

إشعـــاعات

وتمت المعجزة .. وولدت العذراء غلاماً رائعاً ..

واشتد حزنها .. فماذا كان ؟!

« فناداها » فناداها .. بصوت مرتفع ..

« مِن تحتها » هذا الغلام .. فوراً .. ساعة خروجه من تحتها ..

« ألا تحزني » لا تحزني ..

انظر .. هي في أشد الحزن .. حين رأت هذا الغلام يخرج من بطنها ..

فيبادرها ذلك الغلام بالحديث فوراً : لا تحزني !.

لقد وقع نداؤه على فؤادها عظيماً ..

كان صوتاً من السماء .. دوى في أعماقها .. وأكد لها أن الأمر أمر الله .. وأن هذه بداية آيات هذه الآية ..

« قد جعل ربك » التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة الى ضميرها ، لتشريفها ، وتأكيد التعليل ، وتكميل التسلية .

وانظر الى طفل مولود لساعته .. ينطق بهذا الاحكام .. لا تحزني .. قد جعل ربك .. تحتك .. سريا !.

« تحتك سريا » انساناً عظيماً .. رفيعاً .. سيّداً ..

أي : يا أمّاه .. لماذا الحزن .. انني لست مصيبة تحزني لحدوثها .. انني انسان عظيم .. وسيد عصري .. وإمام الجميع ..

وواصل الغلام المولود لساعته .. خطابه لها .. كما سيأتي في الآية القادمة ..

ما أجمل ما حدث من عيسى – عليه السلام – حين ولادته !

وما أعظم وقعه في نفس أمه – عليها السلام –

وواصل الغلام خطابه ..

أو .. واصل الملاك كلامه على ما ذهب اليه أصحاب ذلك الرأي :

– ٢٥ –

وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا .

« وهزي اليك » أي الى جهتك .

والهز تحريك يميناً وشمالاً ، سواء كان بعنف أو لا ، أو تحريك بجذب ودفع .

« بجذع النخلة » أي افعلي الهز بجذع النخلة .

« تساقط » من ساقطت بمعنى أسقطت .

وقرىء : تُسقِط .

وقرىء : يُسقِط .

« عليك » يتناثر فوقك ومن حولك .

« رطبا » هو نضيج البلح .. وواحدته رطبة .

« جنيًا » أي مجنياً ، أي صالحاً للاجتناء .

وتمر جني : جني من ساعته .

والمعنى : رطباً يقول من يراه هو جني ، وهو صفة مدح ، فإن ما يجنى أحسن مما يسقط بالهز ، وما قرب عهده أحسن مما بعد عهده .

والمراد : رطباً طرياً تم نضجه .. طازجاً ..

وهذا هو أحسن صفات الثمر .. أن يكون نضيجاً .. وطازجاً .. فتعظم قيمته الغذائية .. وينتعش به فؤادها .. ويقوي بدنها ..

وقرىء : جِنيّاً .

روى — عن ابن عباس — أنه لم يكن للنخلة إلا الجذع ، ولم يكن لها رأس ، فلما هزته إذ السعف قد طلع ، ثم نظرت إلى الطلع يخرج من بين السعف ، ثم اخضر فصار بلحاً ، ثم احمر فصار زهواً ، ثم رطباً ، كل ذلك في طرفة عين ، فجعل الرطب يقع بين يديها .

وقالوا : لم تستشف النفساء بمثل الرطب ، ان الله أطعمه مريم في نفاسها .

وقالوا : ما للنفساء خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل .

وقيل : المرأة إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب .

إشعاعات

وهكذا تتابعت البشريات .. وتوالت الرحمات .. على مريم ..

« وهزي اليك » .. هذه مداعبة .. فيها جمال عجيب .. فما تستطيع مريم .. وهي في ضعفها هذا أن تهز جذع نخلة .. ولكن المطلوب منها أن تأخذ بالأسباب ليس إلا ..

وتلمس في قوله « هزي اليك » .. أي اجذبيه .. ولو جذبة واحدة اليك مجرد جذبة .. لمسة رقيقة منك يا مريم .. وانظري بعد ذلك ماذا يحدث ؟!.

حدث العجب ! .

ما إن هزت مريم جذع النخلة اليها هزاً رفيقاً .. ما ان لمسته لمساً .. حتى رأت الآيات تتساقط عليها .. متلاحقة في سرعة تذهب بالعقول ..

الجذع يخرج منه السعف .. الثمار تتدلى من السعف .. البلح يخضر .. البلح يحمر .. البلح ينضج .. الرطب يساقط عليها .. طازجاً .. شهياً !.

ما هذا ؟

هذه قدرة الله .. يكرم بها مريم .. ويريها من آياته عجباً ..

كل ذلك ليذهب عنها الحزن .. ويدخل عليها السرور .

ملاك يبشر .. جدول يسري .. طفل ينطق .. نخلة تثمر .. ثمار تنضج في لحظة .. ثمار تتساقط عليها قبل أن يرتد اليها طرفها !.

إكرامات .. عجائب .. رحمات ..

سبحانك .. سبحانك .. سبحانك !.

- ٢٦ -

فكلي واشربي وقرّي عينا فاما ترين من البشر أحداً فقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم إنسيا .

« فكلي » من ذلك الرطب .

« واشربي » من ذلك السري .. من ذلك الجدول .

« وقري عيناً » وطيبي نفساً .. وارفضي عنها ما أحزنك .

وقرىء : وقِرّي .

وذلك من القر : بمعنى السكون ، فإن العين اذا رأت ما يسر النفس سكنت اليه من النظر الى غيره ، ويشهد له قوله تعالى (تدور أعينهم) من الحزن .

وتسليتها – عليها السلام – بما تضمنته الآية من إجراء الماء ، وإخراج الرطب ، من حيث أنهما أمران خارقان للعادة .

فكأنه قيل : لا تحزني ، فإن الله تعالى قدير ، ينزه ساحتك عما يختلج في صدور المتقيدين بالأحكام العادية ، بأن يرشدهم الى الوقوف على سريرة أمرك ، بما أظهر لهم من البسائط العنصرية ، والمركبات النباتية ما يخرق العادات التكوينية .

وفرع على التسلية الأمر بالأكل والشرب لأن الحزن قد لا يتفرغ لمثل ذلك ، وأكد ذلك بالأمر الأخير .

ومن فسر السريّ برفيع الشأن سامي القدر ، جعل التسلية بإخراج الرطب كما سمعت وبالسري من حيث أن رفعة الشأن مما يتبعها تنزيه ساحتها .

فكأنه قيل : لا تحزني ، فإن الله سبحانه قد أظهر لك ما ينزه ساحتك قالا وحالا .

« فإما ترين من البشر أحداً » أي آدمياً كائناً من كان .

وقرىء : تَرَئِن .

وقرىء : ترينَّ .

« فقولي » له ان استنطقك .

« اني نذرت للرحمن صوماً » وقرىء : صياماً .. والمعنى واحـــد : أي صمتاً .

فالمراد بالصوم الإمساك وإطلاقه على ما ذكر باعتبار انه بعض أفراده .

وقيل : المراد به الصوم عن المفطرات المعلومة ، وعن الكلام ، وكانوا لا يتكلمون في صيامهم ، وكان قربة في دينهم ، فيصح نذره .

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه ، فهو منسوخ ، في شرعنا .

وروى عن أبي بكر – رضي الله تعالى عنه – أنه دخل على امرأة قد نذرت أن لا تتكلم فقال : ان الإسلام هدم هذا فتكلمي .

وفي شرح البخاري – لابن حـــجر عن ابن قدامة – أنه ليس من شريعة الإسلام .

وظاهر الأخبار تحريمه ، فإن نذره لا يلزمه الوفاء به .. لما فيه من التضييق ، وليس في شرعنا ، وإن كان قربة في شرع من قبلنا .

« عن حارثة بن مضرب قال : كنت عند ابن مسعود ، فجاء رجلان ، فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر ، ثم جلسا ، فقال القوم : ما لصاحبك لم يسلم ؟

« قال : انه نذر صوماً ، لا يكلم اليوم إنسيا .

« فقال له ابن مسعود : بئس ما قلت .. انما كانت تلك المرأة قالت ذلك ليكون عذراً لها إذا سئلت ، وكانوا ينكرون أن يكون ولد من غير زوج إلا زنا .

« فكلم ، وأمر بالمعروف ، وأنه عن المنكر ، فإنه خير لك » .

« فلن أكلم اليوم انسيا » أي بعد أن أخبرتكم بنذري .

« فتكون قد نذرت أن لا تكلم انسيا بغير هـــذا الإخبار ، فلا يكون مبطلاً له لأنه ليس بمنذور .

وقيل : أمرت أن تخبر بنذرها بالإشارة ، قيل : وهو الأظهر .

قالوا : العرب تسمي كل ما وصل الى الإنسان كلاماً ، بأي طريق وصل ، ما لم يؤكد بالمصدر فإذا اكد لم يكن إلا حقيقة الكلام .

ويفهم من قوله تعالى (إنسيا) دون (أحداً) ان المراد فلن اكلم اليوم انسيا ، وإنما اكلم الملك وأناجي ربي .

وإنما أمرت – عليها السلام – بذلك لكراهة مجادلة السفهاء والاكتفاء بكلام عيسى – عليه السلام – فإنه نص قاطع في قطع الطعن .

إشعاعات

جمال .. يأخذ بالعيون الى الدموع .. وبالقلوب الى الانفطار !.

طفل مولود لساعته يقول كل هذا لأمه ؟!.

« فناداها من تحتها .. ألا تحزني .. قد جعل ربك تحتك سريا . وهزي اليك بجذع النخلة .. تساقط عليك رطبا جنيا . فكلي .. واشربي .. وقري عينا .. فاما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما .. فلن اكلم اليوم إنسيا » !.

كل هذا الكلام المحكم .. من طفل لم تمض على ولادته لحظات ..

فكان نطقه فور ولادته آية كبرى لها ..

يؤكد في فؤادها أن الذي فعل ذلك بغلامها .. وأنطقه هكذا .. انما هو ربها القادر .. العظيم ..

وأنه هو سبحانه .. الذي سوف يبرئها ..

ما أجمل ما كان من الطفل .. الجميل .. المبتسم في براءة الملائكة .. لأمه

المحزونة المهمومة .. يناديها : لا تحزني .. وقري عينا .. فإما ترين من البشر أحداً .. فقولي إني نذرت للرحمن صوما .. فلن أكلم اليوم انسيا .

ان الطفل هو الذي سوف يتولى الدفاع عن نفسه .. وعن أمه ..

ان المولود سوف يقوم بذلك .. وما عليها إلا أن تصمت .. ولا تتكلم .

وهكذا .. تحول حزنها .. الى سرور ..

وهمها .. الى قرة عين ..

وانشرح صدر العذراء .. وطابت نفسا بما رأت من آيات ربها المتتابعة .

جدول يُخلق خلقاً مباشراً .. ويسري .. ويجري ماؤه العذب تحتها .

طفل ينطق ساعة ولادته يبشرها .. ويؤنسها .. ويرشدها .

جذع نخلة جاف .. يخضوضر .. ويثمر .. ويسقط ثمره جنيا فوريا .

وهكذا رحمة ربك .. انفتحت على مريم .. واسعة .. لا حدود لهـــا .. « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » ..

وأكلت مريم .. ورويت من الجدول .. وتطهرت منه .. وقرت عينا .

ونذرت الصوم عن الكلام .. شكراً لربها .. على ما أعطاها .. وأكرمها وأقر عينها ..

ونظرت الى المولود الجميل الطلعة .. الملائكي الوجه .. في حب .. وسرور وقد ازدادت يقينا أن الله معها .. وأنها ليست وحدها ..

وأنها قد أصبحت وابنها .. آية للعالمين ..

وحملته على يديها .. تضمه الى صدرها في حنان الأمومة .. ورحمة النبوة .

ولذلك يقول بعدها مباشرة :

فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا .

« فأتت به قومها تحمله » أي جاءتهم مع ولدها حاملة إياه .

وكان هذا المجيء – على ما روى عن ابن عباس – بعد أربعين يوماً حين طهرت من نفاسها .

قيل : حنت الى الوطن ، وعلمت أن ستكفى أمرها فأتت به ، فلما دخلت عليهم تباكوا .

وقيل : همّوا برجمها ، حتى تكلم عيسى – عليه السلام –

وفي رواية – عن الحبر – « أنها لما انتبذت من أهلها وراء الجبل فقدوها من محرابها ، فسألوا يوسف عنها ، فقال : لا علم لي بها ، وإن مفتاح باب محرابها عند زكريا ، فطلبوا زكريا وفتحوا الباب ، فلم يجدوها ، فاتهموه ، فأخذوه ووبخوه .

« فقال رجل : اني رأيتها في موضع كذا .

« فخرجوا في طلبها ، فسمعوا صوت عقعق في رأس الجذع الذي هي من تحته فانطلقوا اليه .

« فلما رأتهم قد أقبلوا اليها ، احتملت الولد اليهم ، حتى تلقتهم به ، ثم كان ما كان » .

« قالوا : يا مريم لقد جئت » لقد فعلت ، لقد ارتكبت .

« شيئا فريّا » عظيماً .

وقيل : عجيبا .

والفريّ يستعمل في العظيم من الأمر ، شراً أو خيراً ، قولاً أو فعلا .. ومنه في وصف عمر – رضي الله تعالى عنه – فلم أر عبقريا يفرى فريّه .

أي : لقد جئت مجيئاً عجيباً ، وعبر عنه بالشيء تحقيقاً للاستغراب .
وقرىء : فَرْياً .

إشعـــاعات

هناك .. في بداية القصة .. « فحملته .. فانتبذت به مكانا قصيا » ..
وها هنا .. بعد أن تمت المعجزة .. « فأتت به قومها .. تحمله » ..

حين فوجئت .. وأحست بعلامات الحمل .. تسري في كيانها .. وخافت الملام .. والمطاعن .. والكلام .. والعقاب .. فرت به فراراً .. وهـــو في أحشائها .. فلما تمت المعجزة .. وخرج الطفل الى الوجود .

ورأت سلسلة من المعجزات أمام عينيها تترى .

قويت شخصيتها .. وامتلأ قلبها يقينا .. فتبدل خوفها أمناً .. وحزنها سروراً .. وانكسارها قوة ..

وأحست من أعماقها أنها أصبحت أقوى امرأة على الأرض ..

فجاءت تتحدى الجميع .. جميع أهل الأرض بما أتت ..

وتقدم الى البشرية رسولها الجـــديد .. هدية السماء اليهم .. المسيح عيسى بن مريم ..

وهذا كله يشير اليه قوله تعالى : « فأتت به قومها تحمله » ..

أي : انبعثت وفي أعماقها قوة خارقة ..

تتحدى قومها .. وتظهر لهم آية الله في ابنها ..

تحمله ؟!.

معتزة بطفلها .. راضية مسرورة به .. تريد أن تحمله إلى كل أحد ليراه .. أي تقدمه الى كل بشر ليرى فيه آية من آيات الله ..

كيف يقدر الله تعالى أن يخلق ما يشاء .. دون تقيد بناموس .. أو قانون طبيعي مألوف ..

ثم ماذا ؟!

ثم ما هو .. شأن الناس دائمــا .. حــين يطبق عليهم جهلهم .. فلا يلتفتون الى آيات ربهم .. وإنما يدورون في ظلامهم .

لقد جئت شيئا فريا !.

لقد فعلت شيئاً .. هو أقبح شيء يتصور أن يحدث !.

راهبة .. منذ ولادتها في بيت المقدس .. تتطهر .. وتتزكى .. وتتعبد .. وتتعلم الربانيات .. وتتقلت بين الراهبات .. والقديسات .. ويتولى تربيتها وتهذيبها .. زكريا .. نبي الله ..

راهبة هذا شأنها .. تكون نهايتها هذا الذي نرى ؟!.

وظنوا بها أقبح الظنون ..

ووقفت مريم .. وحدها .. تتحداهم بطفلها .. وتتحدى العالم أجمع ..

- ٢٨ -

يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا .

« يا أخت هارون » يا بنت هارون .. النبي الصالح العظيم .. يا من من سلالة ذلك النبي الكريم .. يا من كنت تسيرين سيرته من الانقطاع لخدمة الله وبيت الله المقدس .

والأخت على هذا بمعنى المشابهة .. وشبهوها به .. لما رأوا قبل من صلاحها .

« وما كان أبوك امرأ سوء » ماكان أبوك يوما من الأيام فاجراً .

« وما كانت أمك بغيا » وما كانت والدتك يوماً ما زانية .

وهذا تقدير لكون ما جاءت به فريا .

أو تنبيه على ان ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش .

إشعـــاعات

وبدأت المعركة ..

مريم تتحداهم بآيتها .. معتزة بربها ..

وهم في حالة تكذيب .. وغضب .. وسخط .. وسب .. لا يتصورون كيف يكون هذا الإجرام من هذه الفتاة !.

وتلمس خبث ما يضمرون في قولهم :« ما كان أبوك امرأ سوء .. وما كانت أمك بغيا » .. يعني : لمن نشأت .. وممن ورثت هذا الإجرام يا مريم .. نحن نعرف أن أباك كان دائما رجلا طاهراً .. ولم يكن شريراً .. ولا فاجراً ..

ونعلم أن أمك كانت طاهرة .. عابدة .. ولم تك امرأة تحـــترف الزنى والفجور ..

وأنت .. ممن ورثت هذا الذي كان منك ؟!.

وانطلقوا .. كالكلاب المسعورة .. ينهشون عرضها .. ويمزقون شرفها .. ويأكلون لحمها ..

وانقضوا عليها انقضاضا رهيبا ..

وهي .. العذراء .. تقف وحدها .. تصارع أولئك العتاة جميعا .

وانقلبوا عليها .. ووقف رجال الدين والكهنوت ببيت المقدس .. من

أحبار بني اسرائيل وقتئذ .. منها موقفهم المشهور .. المألوف من كل رجال دين خانوا أمانة الله ورسله .

وقفوا ضدها .. يتهمونها .. ويحتقرونها .. ويرمونها .. ويشتمونها .

وفكروا في محاكمتها وعقابها أشـــد العقاب .. حفظا لكرامة الدين .. وسمعة الراهبات .. ولتكون عبرة لكل منحرفة من بعدها !.

وانطلقوا .. اليها صفا .. وكانوا لها ضدا ..

وهي وحدها .. تحمله !.

- ٢٩ -

فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا .

« فأشارت اليه » فأشارت الى عيسى – عليه السلام – أن كلموه .

قالوا : والظاهر أنها بينت حينئذ نذرها ، وأنها بمعزل من محاورة الإنس ، حسبما أمرت .

ففيه دلالة على أن المأمور به بيان نذرها بالإشارة لا بالعبارة .

« قالوا » منكرين لجوابها .

وفي بعض الآثار انها لما أشارت اليه أن كلموه قالوا : استخفافها بنا أشد من زناها !

« كيف نكلم من كان في المهد » كيف نتحدث مع من هو في حجر أمه .

« صبيا » رضيعا .

إشعـــاعات

ووقف كبار رجال الدين .. رجـــال الكهنوت .. بملابسهم الرهيبة .. واخراجهم الكهنوتي .. كأنهم رءوس الشياطين .

ومن ورائهم شعب اسرائيل .. وكان قد فسد .. وكادت أنوار أنبيائهم تتلاشى منهم .

وقفوا جميعا .. ضد الفتاة .. الوحيدة .. العزلاء .. من كل سلاح !.

ومريم .. ضد هؤلاء جميعا .. وحدها .. تتلألأ من ظاهرها .. ومن باطنها .. كأنها قطعة نور .. في صورة إنسان .

وأكثروا عليها .. وقذفوها بما استطاعوا من نيران قلوبهم الخبيثة .. المظلمة .
وهي صامتة .. لا تتكلم !.

لمـــاذا ؟

لأن الله أمرها من قبل هذا .. بهذا حين قال لهـــا « فاما ترين من البشر أحدا فقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم انسيا » .

وها هي ترى آلاف من الإنس لا إنسياً واحداً ..

وها هي تلتزم ما أمرها ربها ..

فكان جميلا جداً .. ورائعا جداً .. وبارعا جداً ..

أن يتكلم الجميع .. ويتهم الجميع .. ويقذف الجميع .. ويثور الجميع .

ومريم .. المتهمة من الجميع .. التي يشتمها الجميع .. ويقذفها الجميع ..

تقف صامتة صمتاً عميقاً .. لا تحرك شفتها بكلمة واحدة !.

ذلك هو التخطيط الإلهي .. الذي أمرها به ربها .

وإنه لتخطيط عليّ عظيم ..

وقفت مريم .. صامتة صمتاً تاماً ..

وهي تعلم جميع الاحتمالات .. ربما يحكون عليها بالقتل رجماً .. لأنها زانية ربما يقتلون ذلك الطفل أيضاً لأنه أثر الجريمة الشنعاء ..

ربما .. ربما ..

كيف كانت مريم .. في هذا المقام ؟!

كانت عند ربها .. لم تكن مع هؤلاء الناس ..

كانوا هم في ظلماتهم .. يتهمونها ..

وكانت هي في مقامها .. مع ربها ..

قد أصبحت لا تشهد إلا اياه .. ولا ترى هؤلاء جميعا شيئا ..

فكان صمتها .. هو ظاهر مقامها ..

ان هذه فتاة تقف ببدنها مع الناس .. ولكن قلبها الطاهر .. الكبير .. العظيم .. مع الله .

وتجد ذلك .. وأمثاله مكنونا في قوله تعالى : « فأشارت اليه » .

وقد يكون الضمير هنا لله تعالى .. أي أشارت مريم الى الله .

أشارت بعينيها .. وهي تتحول بها عن هؤلاء جميعا .. وتنظر بها الى السماء .. ولا تتكلم .

تريد أن تقول لقومها : ذلك فعل الله .. فعله هو .. وليس لي من الأمر شيء .

أو لعلها أشارت اليه .. اليه تعالى .. بيدها .. فرفعتها الى السماء .. أي هذا فعله هو .. لا فعلي .

وكان قلبها في الباطن مع الله سبحانه .. لا مع أحد من الخلق .

فلما لم يفهموا عنها .. ولم يعقلوا .. وازدادوا عتواً ونفوراً وقذفاً .

فلما لم يفقهوا إشارتها المجردة الى الله .

عادت مريم تشير الى الطفل .. تحيلهم الى آية الله .. ما داموا قد عجزوا عن الفهم عن الله مباشرة ..

فأشارت الى الطفل .. فجن جنونهم .. واعتبروا ذلك منها استهزاء بهم .. وصاح صائحهم : « كيف نكلم من كان في المهد صبيا » ..

كيف نكلم رضيعاً يا مريم ؟!.

وانتظروا جميعاً جواباً .

ولكنها لم تتكلم .. ولزمت الصمت الرهيب .

هنالك وقعت المعجزة .

- ٣٠ -

قال اني عبد الله ءاتاني الكتاب وجعلني نبيا .

« قال » الرضيع .

« إني عبد الله » روى أنه – عليه السلام – كان يرضع ، فلما سمع ما قالوا ، ترك الرضـــاع وأقبل عليهم بوجهه ، واتكأ على يساره وأشار بسبابته ، فقال ما قال .

وفيه رد على من يزعم ربوبيته .

وفي جميع ما قال تنبيه على براءة أمه ، لدلالته على الاصطفاء ، والله سبحانه أجل من أن يصطفى ولد الزنا ، .وذلك من المسلمات عندهم .

وفيه من إجلال أمه – عليها السلام – ما ليس في التصريح .

« آتاني الكتاب » آتاني التوراة .. والزبور .. والإنجيل .

« وجعلني نبيا » التعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة .. آتاني .. جعلني ..

وجعلني .. أما باعتبار ما في القضاء المحتوم .. أو يجعل ما في شرف الوقوع لا محالة كالذي وقع .

يشير الى ذلك قوله تعالى : « وكان أمراً مقضيا » .

أشعـــاعات

وعلى مشهد من الجميع ..

من جميع علماء بني إسرائيل .. وعبادهم .. ورهبانهم .. وراهباتهم ..

وعلى مشهد من جميع الشعب ..

وعندما كانت مريم تلتزم صمتها المطلق ..

هنالك دافع الله عنها .. فأنطق الرضيع ..

وتكلم كلاما حكيما .. لا يصدر إلا عن وحي يوحى ..

قال الطفل : « اني عبد الله » .. فيها جمال الحق .. وحق الجمال ..

ان الله ينطقه بحقيقته .. أول ما ينطق .

إني أنا ذلك الطفل الذي تحيرتم في أمره رضيعاً..وظننتم بأمه الظنون بسببه وسوف تحارون في أمره مستقبلا .

فمن زاعم انني الله نفسه .

ومن زاعم أنني ابن الله .

ومن زاعم ان أمي أم الإله .

الى آخر هذه المزاعم .

اني أنطق بحقيقتي .. وأعلن تلك الحقيقة أول ما أعلن ..

وأتكلم بها أول ما أتكلم ..

وليسمع جميع علماء وأحبار بني اسرائيل .. وليسمع شعب اسرائيل كله. وليسمع العالم كله .. حقيقتي .. أنا المسيح .. عيسى بن مريم .

ها هي الحقيقة ..

« إني عبد الله » .. هذه حقيقتي .. خلقني ربي لأكون له عبداً .

فلست بإله .. ولست بابن إله .. وليست أمّي أمّاً للإله .

انما أنا عبد الله .. ليس إلا ..

ما أعظم ما صدر عن الطفل !.

ثم ماذا ؟

ثم ما هـــو أروع .. « آتاني الكتاب » .. آتاني التوراة .. والزبور .. وسيؤتيني الإنجيل.. آتانيها جميعاً ظاهراً وباطناً.. قولاً وعملاً.. فقهاً وتنفيذاً .

ثم ماذا ؟

ثم يكشف لهم جميعاً .. عن سر ذلك كله .. وسببه .

« وجعلني نبياً » .. انها النبوة .. انه أحد أولي العزم من الرسل .

انه نور عظيم .. سوف يتشعشع في العالمين .

ولذلك يمضي ويقول : « وجعلني مباركاً أين ما كنت » .

سوف يعم خيره كل مكان .

انه المسيح العظيم .

هذه هي حقيقة المسيح .

اني عبد الله .. آتاني الكتاب .. وجعلني نبيا .

مقومات ثلاثة لشخصيته العظيمة .

العبودية لله .. وهي أعلى مقومات شخصيته .

العبودية الكاملة .. في مقاماتها العُلى .

ثم ايتائه فقه الكتب السابقة عليه المنزلة على بني اسرائيل .. وإيتـــائه كتاباً خاصاً به هو الإنجيل .

ثم ايتائه النبوة في مقاماتها العُلى .. مقام أولى العزم من الرسل .. فهو أحد الخمسة الكبار .

انه نور ..

اكتملت له كل آثار النور .. وهي العبودية .. والكتاب .. والنبوة .

ومتى كان كذلك .. كان خيراً مطلقاً .. يعم خيره كل مكان .

ولذلك قال :

- ٣١ -

وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا .

« وجعلني » مع ذلك .

« مباركاً » نفاعاً ، ومن نفعه ابراء الأكمه والأبرص .

وقيل : معلم الخير ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر .

وقيل : قاضياً للحوائج .

وقيل : أكمله الله تعالى عقلا ، واستنبأه طفلا .

« أين ما كنت » حيثما كنت .

« وأوصاني بالصلاة والزكاة » أي أمرني بهما أمراً مؤكداً .

والمراد بهما ما شرع في البدن والمال على وجه مخصوص .

وقيل : المراد بالصلاة الدعاء ، وبالزكاة تطهير النفس عن الرذائل .

« ما دمت حيا » مدة كونه – عليه السلام – حيا في الدنيا .

وقرىء : دمت .

إشعاعات

عيسى .. يتحدث عن نفسه .. وهو طفل !.

يصف شخصيته .. بل يغوص الى حقيقته !.

فما هي شخصيته ؟

« وجعلني مباركاً » .. جعلني خيراً خالصاً .

« أين ما كنت » في كل زمان .. وكل مكان .

خير مطلق .. لا شر فيه .

ثم يتحدث عن الفرائض التي افترضت عليه .. وعلى أمته !.

« وأوصاني » وفرض عليّ .

« بالصلاة » ان أؤدي الصلاة .. كاملة .. أن أتجه اليه دائماً .

« والزكاة » أن أؤدي الزكاة .. أن أتطهر دائماً .. أن أترقى اليه دائماً .

« ما دمت حيا » ما دمت حيا في هذه الحياة الدنيا .. لا بد لي من الاتجاه اليه .. والترقي اليه دائماً .

هذا هو عيسى .. بلسان عيسى .. الطفل !.

كلام محكم .. لا يستطيعه إلا رجل كامل الرجولة .. محكم العقل !.

انه النور يتكلم !.

وبرا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً .

« وبرّاً بوالدتي » أي جعلني بارّاً بها .

وهذا كالصريح في أنه – عليه السلام – لا والد له ، فهو أظهر الجمل في الإشارة الى براءتها – عليها السلام –

وقرىء : بِرّاً .

أي : وألزمني ، أو : وكلفني برّاً .

« ولم يجعلني جبارا شقيا » أي لم يقض عليّ سبحانه بذلك في علمه الأزلي .

وقد كان – عليه السلام – في غاية التواضع ، يأكل الشجر ، ويلبس الشعر ، ويجلس على التراب ، ولم يتخذ مسكناً .

وكان – عليه السلام – يقول : سلوني ، فإني لين القلب صغير في نفسي .

إشعـــاعات

وهكذا استمر عيسى .. الطفل .. يتحدث عن حقيقة المسيـــح .. طيلة حياته !.

« وبرا بوالدتي » شديد العطف والرحمة بوالدته .

تلك التي تحملت من أجله الكثير .

لقد جاء هذا الغلام ليكون لها رحمة .. ولعينها قرة .. ولقلبها سروراً .

« ولم يجعلني جباراً » لا جبروت في شخصيته .. وإنما هو خاشع متذلل لربه .. متواضع لرفاقه .

« شقيا » وهو بذلك من السعداء .. لأن سعادة الدنيا والآخرة في الانصياع للحق .. والتواضع لله .

- ٣٣ -

والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا .

« والسلام » والأمان من الله تعالى .

« عليّ » أي على عيسى - عليه السلام .

« يوم وُلدت » من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم .

« ويوم أموت » من وحشة فراق الدنيا ، وهو المطلع وعذاب القبر .

« ويوم ابعث حيا » من هو القيامة وعذاب النار .

إشعاعات

عليه السلام .. دائماً وأبداً .

انه في مقام السلام دائماً .

أمان عليه من الله .. يوم وُلد .. ويوم يموت .. ويوم يبعث حيا .

وهذا مقام الأنبياء .. وليس لأحد سواهم .

مقام أولى الأنوار .. الذين يولدون نوراً .. ويموتون نوراً .. ويبعثون نوراً .

انهم في أعلى مقامات القرب منه تعالى .

انهم أصفياؤه .. وأحباؤه .

ذلك عيسى ابن مريم قول الحق فيه يمترون .

« ذلك » اشارة من فصلت صفاته الجليلة .

وفيه اشارة الى علو رتبته ، وبعد منزلته ، وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ، ونزوله منزلة المحسوس المشاهد .

« عيسى » المراد ذلك هو عيسى .

« ابن مريم » ابن مريم ، لا ما يصفه النصارى .

وهو تكذيب لهم على الوجه الأبلغ ، والمنهـــاج البرهاني ، حيث جعل موصوفاً بأضداد ما يصفونه .

كالعبودية لخالقه سبحانه المضادة لكونه – عليه السلام – إلهاً ، وإبناً لله عز وجل .

فالحصر مستفاد من فحوى الكلام .

« قول الحق » المراد بالحق الله تعالى ، وبالقول كلمته تعالى .

أي : كلمة الحق .

وأطلقت عليه – عليه السلام – بمعنى أنه خلق بقول « كن » من غير أب .

أو : أقول قول الحق .

والحق بمعنى الصدق .

وقرىء : قولُ ، أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه .

وقرىء : قالَ الحق .

وقرىء : َقولُ الحق .

والقول والقال والقـُول بمعنى واحد .

« الذي فيه يمترون » يشكون .

أو : يتنازعون .

فيقول اليهود : هو ساحر – وحاشاه –

ويقول النصارى : ابن الله – سبحان الله عما يقولون –

وقرىء : تمترون .

إشعاعات

« ذلك » الذي قصصنا قصته .. وكشفنا عن شخصيته .. وجلينا حقيقته .

« عيسى بن مريم » .. الذي ولدته انثى اسمها مريم .

على أسلوب مغاير للناموس الثابت .. لنجعله لكم آية .. وتذكرة .

فإن ثبات النواميس .. يصيب العقول بالبلادة .

وإلف الشيء ينسي .

فكان لزاماً أن نغير الناموس .. لنهز العقول من رقدتهـــا .. لعلها تتنبه الى قدرة الله .

« قول الحق » قول الصدق .. ومن أصدق من الله قيلا ؟!.

« الذي فيه يمترون » الذي فيه تتنازعون .

فعيسى آية من آيات الله .. ليس إلا .

وليس هناك ما يدعو هؤلاء الذين افتتنوا به الى ما ذهبوا اليه .

ليس عيسى إلهاً .. ولا ابن إله .. وليست أمه أماً للإله !.

كما ذهب الذين اختلفوا فيه .

وليس هو ابن زنى .. كما ذهب بعض من اليهود .

انما هو في حقيقته .. نبي عظيم .. ورسول من أولي العزم من الرسل .

خلقه الله .. بأسلوب مخالف للمألوف .

ليمتحن به العقول .. ويهزها هزاً !.

- ٣٥ -

ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون.

« ما كان لله » ما صح ، وما استقام له ، جل شأنه .

« أن يتخذ من ولد » كائناً ما كان ذلك الولد .

وهو تكذيب للنصارى .

« سبحانه » تنزه جل شأنه — عن النقص والحاجة الى الولد .

وهو تنزيه له عز وجل عما افتروه عليه تبارك وتعالى .

« إذا قضى أمراً » إذا أراد تنفيذ أمر من أموره تعالى .

« فإنما يقول له كن فيكون » فيقع حتماً .. وفوراً .

بيان أن شأنه تعالى إذا قضى أمراً من الأمور أن يوجد بأسرع وقت فمن يكون هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ، وهـــو من أمارات الاحتياج والنقص ؟!

وقرىء : فيكونَ .

وزعموا أن المسيح ابن الله .. وغالى بعضهم فجعلوه هو الله !.

ولست أدرى ما الذي دفعهم الى ذلك ؟!

أمن أجل عيسى .. وُلد من غير أب ؟!

وما وجه الغرابة في ذلك .. ولله أن يخلق ما يشاء .. بأي أسلوب شاء ؟!

ومن هنا .. أطلق الناموس الخالد .

« اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون » .

هذا هو الناموس الإلهي الخالد .

أي أمر .. يريد تنفيذه .. يحدث فوراً .. أو على مهل .. بكن فيكون..

وما عيسى .. مهما بدا أمره غريباً للعقول .. إلا أحد هذه الأوامر .

كُن .. عيسى .. بلا أب .. فكان .

فما وجه الغرابة .. وما وجه العجب ؟

ولكنها العقول البشرية !.

- ٣٦ -

وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم .

« وإن الله ربي وربكم فاعبدوه » ولقد قال لهم عيسى – عليه السلام – : ان الله ربي وربكم فاعبدوه هو وحده .

عطف على قوله (إني عبد الله) من تمام قول عيسى – عليه السلام – تقريراً لمعنى العبودية .

وقرىء : بغير واو (ان الله ربي) .

وقرىء : وأن .

أي : ولأنه تعالى ربي وربكم فاعبدوه .

« هذا » ما ذكر من التوحيد .

« صراط مستقيم » لا يضل سالكه .

إشعاعات

هذا ما قال لهم عيسى بن مريم .

« ان الله ربي وربكم فاعبدوه » .. وهو منطق الأنبياء جميعاً .. دائماً .. وأبداً .

فمن أين ما ذهبوا اليه من تأليهه ؟!

انها ظلمات الفلسفات .. وجهالات التأويل التي ابتدعوها .

« هذا صراط مستقيم » العبودية لله وحده .. وهي الطريق القويم .. المؤدي الى الله ..

وجعلناها ... وابنها ... آية للعالمين ؟!...

لم تحمل ...

الأرض .. ولن تحمل .. امرأة .. أثارت العقول .

مثل هذه .. التي اسمها « مريم » عليها السلام .

وإنما كان أمرها .. فتنة .. لملايين العقول .

بسبب أمر واحد .. هو أنها هي الأم العذراء .

التي حملت .. ووضعت .. ذلك الطفل .. الذي اسمه « المسيح » .

حملاً .. ووضعاً .. مخالفاً لجميع النواميس .. التي انتظم عليها جميع الناس من لدن آدم .. الى يوم القيامة !.

وكان السؤال الطبيعي .. الذي يصدر عن القلوب .. وتنطق به الأفواه :

لماذا مريم بالذات .. من دون نساء العالم .. هي التي تحمل .. دون أن يمسسها بشر ؟!.

ولماذا عيسى بالذات .. هو الذي يُخلق .. من غير أب ؟!.

ألا يشير ذلك .. الى أن مريم هي « أم الإله » ؟!.

وأن هذا الذي حملته .. ووضعته .. هو « ابن الله » ؟!.

وإذا كان الأمر .. ليس كذلك .. فمن أبوه ؟!.

ثم لماذا لم تتكرر الظاهرة .. ولو مرة واحدة .. في غير عيسى ؟!

لماذا لم يحدث أن وُلد طفل غير عيسى بمثل هذه الطريقة ؟!.

ومن هذه الأسئلة .. وأمثالها .. حدثت الفتنة العظمى .

فذهبت أمم الى اعتقاد أن مريم « أم الإله » !.

وأمم الى اعتقاد أن عيسى « ابن الله » !.

وأمم الى اعتقاد أنه هو « الله » !.

وتوارثت قرون .. وقرون .. ذلك الأمر العجيب !.

فأين الحق .. فيما هم فيه يختلفون ؟!

وجعلناها ... وابنها ... آية ؟!

قال تعالى : « والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » .

[الأنبياء ٩١]

ما معنى « والتي أحصنت فرجها » ؟!

هل معناه كما قال البعض أنها منعت فرجها من النكاح بقسميه كما قالت (ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا) وكان التبتل إذ ذاك مشروعاً للنساء والرجال؟!

كلا .. ان الأمر .. أعمق .. من هذا كله !

ان المراد بـ « التي أحصنت فرجها » .

تلك العظيمة .. الكريمة .. الطاهرة .

تلك التي تخصصت لنا .. فعاشت طيلة حياتها .. منذ ولادتها .. الى وفاتها .

قديسة .. عذراء .. لم يمسسها بشر .. ولم تفكر في ذلك .

التي منعت نفسها من ذلك على الإطلاق .

فهي بتول من طفولتها .. الى مماتها .

وعاشت .. متخصصة لنا .

هذه أردنا أن نظهر فيها .. معجزة عظمى .. لجميع الناس .

فماذا حدث ؟!

« فنفخنا فيها » فأمرنا أن ينفخ في بطنها .. في رحمها .

ولكن من هو هذا الكائن الذي ينفذ ذلك الأمر ؟

« من روحنا » من الروح القدس .. الذي هو جبريل .

(فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) !.

وتمت المعجزة .

فحملته .. وبدأ عيسى يتخلق في بطنها !.

لماذا حدث هذا ؟!

الجواب : « وجعلناها » وجعلناها آية .

وجعلنا « مريم » بسبب ذلك آية .

« وابنها » وجعلنا ابنها كذلك .

« آية » معجزة كبري .

« للعالمين » لجميع العالم .. لجميع الأجيال .. الى يوم القيامة .

ماذا ... في مريم ... من الآيات

مريم .. منذ كانت أملا .. مكنوناً في قلب أبويها .. الى يوم أن توفاها ربها .. وهي تتقلب في الآيات .. وتتخلق في المعجزات !.

فأول آياتها .. أنهـــا كانت دعاء .. توجهاً .. طاهراً .. صدر .. عن أبوين طاهرين .

أما أمها .. فنادت ربها « ربّ » اني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني ، انك أنت السميع العليم » .

وأما أبوها .. فكان دائم التوجـــه الى ربه .. يدعوه .. أن يهب له نسلاً طاهراً .

حيث ذهب هو الآخر الى البرية .. إذ بنى فيها مظلة ، مكث فيها أربعين يوماً يصلي للرب ، ويصوم لينظر الله الى مذلته ويرزقه نسلاً !.

ومن دعاء هذين الأبوين البارين .. كانت مريم .

فهي أصلا .. هتاف قلبين طاهرين .. الى الله .

ثم ماذا ؟!

ثم تتابعت عليها الآيات تترى .

« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا .

« قال : يا مريم أنى لك هذا !!

« قالت : هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » !.

عذراء .. يتيمة .. وحيدة .. تتتابع عليها الاكرامات تباعاً !.

جبريل ... يحادثها ... ويبشرها ؟!

ثم آياتها .. وعجائبها .. ومعجزاتها المتتابعة .

« وإذ قالت الملائكة : يا مريم ، ان الله اصطفاك ، وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين » .

و « يا مريم ، اقنتي لربك ، واسجدي ، واركعي مع الراكعين . »

و « إذ قالت الملائكة : يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . » . الخ ..

أحاديث .. بشريات ..

جبريل هابط .. وصاعد .. من عندها ..

مرات .. ومرات !!

إنها عجيبة .. في أمرها كله !!

الاية الكبرى

إلا أن المعجزة الكبرى في حياتها كلها ..

والتي تعتبر « مريم » من أولها إلى آخرها .. كائناً خلقه الله .. ليثمر تلك الثمرة العجيبة ..

هي خلق عيسى .. في بطنها .. بكلمة من الله .. بأمر منه تعالى ..

وحملها إياه .. ووضعها له ..

ودخولها تلك التجربة .. الوحيدة .. التي حدثت في حياة البشرية مرة واحدة !

« وجعلناها وابنها آية للعالمين » !

جعلناها .. حين أجرينا فيها تجربة خلق ابنها .. آية ..

معجزة كبرى ..

للعالمين لكل العالم ..

لينظر .. ويتعجب.. من قدرتنا !!

هذا شيء عن عجائب مريم ..

فماذا في ابنها من الآيات ؟

إن عيسى .. أعجب وأغرب ، والآيات فيه أكبر وأوضح !

أول اية في ابنها

أعجب آية في ابنها ..

أنه لم يخطر على قلبها .. أن يكون هذا الابن منها !

أريد أن أقول أن مريم .. كانت استجابة لرغبة خارقة .. والحاح شديد .. من أبويها .. أن يرزقهما نسلا ..

فكانت مريم نتيجة تفكيرهما .. واستجابة الله تعالى لهما ..

أما عيسى .. فإن أمه ، ان مريم لم تفكر اطلاقاً فيه .. ولم يكن يخطر على قلبها شيء من امره على الاطلاق ..

فهو لذلك .. « كلمة منه .. » سبحانه امر منه تعالى مباشرة .

فكان الأمر مفاجئة تامة للأم ، لمريم ..

لأنها فوجئت .. بأنها ستكون موضع تنفيذ شيء لم يخطر ببالها على الاطلاق ..

ولعل هذا هو المكنون في قوله سبحانه :

« إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته القاهـــا الى مريم .. »

وكلمته القاها الى مريم ..

كلمته هو مباشرة ..

أمره هو مباشرة ..

القاها ، فأجابها مريم ..

تلك التي لم يخطر على قلبها هذا الشيء على الاطلاق ..

هذه الآية الأولى من ابنها ، فتأمل .. وتعجب !

حياة المسيح .. معجزات .. لا تتوقف ؟

قال تعالى :

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين . »

[المؤمنون ٥٠]

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية » آية . آية دالة على عظيم قدرتنا بولادته منها من غير مسيس بشر .

فالآية أمر واحد مشترك بينهما فلذا أفردت .

أو : وجعلنا حال ابن مريم ، وأمه آية

أو : وجعلنا ابن مريم وأمه ذوي آية .

أو : وجعلنا ابن مريم آية لما ظهر فيه عليه السلام من الخوارق .

كتكلمه في المهد بما تكلم صغيراً

وإحيائه الموتى

وإبرائه الأكمه والأبرص ، وغير ذلك كثيراً

وجعلنا أمه آية بأن ولدت من غير مسيس

وقال الحسن :

إنها عليها السلام تكلمت في صغرها أيضاً حيث قالت : (هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) ..

والتعبير عن عيسى عليه السلام بابن مريم ، وعن مريم بأمه .. كالابذان من أول الأمر بحيثية كونهما آية .

فإن نسبته عليه السلام اليها ، مع أن النسب إلى الآباء دالة على أن لا أب له .

أي : جعلنا ابن مريم وحدها من غير أن يكون له أب .

وأمه التي ولدته خاصة من غير مشاركة الأب آية .

وتقديمه عليه السلام لأصالته فيما ذكر من كونه آية

كما قيل ان تقديم امه في قوله تعالى :

(وجعلناها وابنها آية للعالمين) .

لاصالتها فيما نسب اليها من الاحصان والنفخ .

ثم اعلم ان الذي اجمع عليه الكلاميون انه ليس لمريم ابن سوى عيسى عليه السلام .

« وآويناهما » : أي جعلناهما يأويان ..

« إلى ربوة » : هي ما ارتفع من الأرض دون الجبل ..

« ذات قرار » اي : مستقر من ارض منبسطة

والمراد أنها في واد فسيح تنبسط به نفس من يأوي اليه ..

أو : ذات ثمار وزروع .. والمراد انها محل صالح لقرار الناس فيه لما فيه من الزرع والثمار .

« ومعين » وماء معين .. اي جار ..

وإطلاقه على الماء الجاري لنفعه

وهذا يتحقق في ربى فلسطين ..

وقد اختلف في المراد بالربوة هنا ..

والذي تبين لي .. وترجح .. من خلال البحث في المراجع الاسلامية والمسيحية على حد سواء ..

إن هذه الربوة المشار اليها .. هي مدينة « الناصرة » حيث قضى المسيح عليه السلام زهاء ثلاثين عاماً ، اذ كانت موطنه وسكناه كل أيامه على الأرض ، ما خلا ثلاث او اربع سنين .

فإذا قلنا ان المسيح عليه السلام توفي في نحو الثلاث والثلاثين .

وانه قضى في « الناصرة » نحو ثلاثين عاماً من حياته .

فمعنى هذا انه عاش طيلة حياته تقريباً في هذه القرية .

وإذا علم أن هـــذه القرية تقع عـلى تل .. ومن حولها سهول ممتدة ..

وانه كان هناك بئر تذهب اليه مريم دائماً ، كسائر نساء القرية .

تحددت بذلك ملامح « الربوة » وهو التل الذي تقع عليه القرية .

وملامح « المعين » وهو الماء الجاري ..

أي : البئر الذي كانت تتردد عليه مريم طيلة ثلاثين عاماً .

وازدادت الآية وضوحاً أمام أعيننا .

« وآويناهما » أي وأسكناهما ..

وجعلنا لهما مأوى دائماً ، وسكناً دائماً ..

« الى ربوة » الى تل .. الى قرية تقع على ربوة ..

« ذات قرار » تقع في واد فسيح تنبسط به نفس من يأوي اليه ..

« ومعين » وبئر جار بالماء ..

وكان طبيعياً جداً ان يسجل كتاب الله تعالىٰ ذلك في كتابه يسجل اشارة الى أن هذا الذي جعلناه آية ..

وجعلنا أمه آية ..

هذان اللذان من كل واحـــد منهما . كان سلسلة معجزات متتابعة ..

هذان اللذان .. كان كل منهما .. ينبوعاً لمعجزات حيّرت البشر .

رغم هـذا كله ، آويناهما ..

أسكناهما .. طيلة حياتهما .. في تلك القرية المتواضعة ، البسيطة ، التي كانت تقع على احدى تلال فلسطين ..

أي : جعلناهما يعيشان حياة الفقراء .

ليذوقا تجربة الحياة في متاعبها وكدحها .

وكان يمكننا جداً أن نجعلها في جنات وقصور .

ولكن تلك هي التربية الرفيعة .. التي نختارها لهؤلاء العظماء !

هذا ما تبين لي من خلال البحث عن حقيقة هذه الربوة .

وقد كنت افكر دائماً : ما وجه الأهمية من ايوائهـا الربوة ذات قرار ومعين ؟

وهل هذا شيء جدير بالتسجيل في كتاب الله ؟!

ولماذا قرن هذا الايواء بقوله تعالى :

« وجعلنا ابن مريم وامه آية » .

حتى منّ الله عليّ أخيراً ..

بسر ذلك ..

وتعلمت ان ذكر إيوائها إلى ربوة إنما سجله القرآن الكريم .

لأن حياتها كانت كلها في تلك الربوة .

وقرنها عقيب قوله سبحانه :

» وجعلنا ابن مريم وامه اية » .

لينبه العقول إلى انه رغم أن حياتها كانت في ذاتها معجزات .

إلا أن ذلك لم يعفها من الضريبة المفروضة على المرسلين دائماً .

أن يدخلهم تجربة الحياة في كدحها ، وبساطتها ..

ليعلموا .. ما هي الحياة .. ما هي آلام النـاس .. ما هي متاعبهم ؟!

هنالك تلألأ في قلبي ، شيء قليل من عجائب الآية !!

ولنسمع الآن ، إلى وصف احد المراجع المسيحية ، للقرية التي عاش فيها المسيح وأمه طيلة حياتها تقريباً .

ليتأكد عندنا ان قرية « الناصرة » هي المراد بقوله تعالى :

« الى ربوة ذات قرار ومعين » .

فماذا قال ذلك المرجم ؟

« العائلة المقدسة في الناصرة »

« يمتد سهل شبهالا وسهل البحر موازياً لشاطىء البحر الأبيض المتوسط ، ولا يبرز فيهما إلا جبل الكرمل ، وتمتد محاذية لذلك سلسلة طويلة من التلال غريبة الشكل مفرطحة القمم ، تنحدر من الجهة الشرقية إلى وادي الأردن الذي ترتفع بعده شاخة جبال مؤاب وجلعاد القرمزية المتقاربة .. وعلى ذلك فطبيعة البلاد من الشمال الى الجنوب عبارة عن أربع مناطق متوازية : شاطىء البحر ، ومنطقة التلال ، ووادي الأردن ، وسلسلة الجبال .

« تنقسم منطقة التلال ، وهي الواقعة من سهل البحر الفسيح ووادي الأردن العميق ، إلى قسمين يفصلهما سهل يزرعيل بالقسم الجنوبي المكون من التلال الكلسية ، وهو أرض اليهودية ، والقسم الشمالي هو أرض الجليل ، وتجري التلال التي تحد وادي يزرعيل ، وينحدر سفحها الجنوبي إلى أرض زبولون .

« وفي وسط هذه التلال جرف ضيق يفضي الى مدخل واد صغير يؤدي إلى ممر ضيق عميق ينفرج يميناً إلى منبسط عرضه حوالي ربع ميل مقسم إلى حقول صغيرة وحدائق مسورة ، ثم ينفرج المنبسط

رويداً رويداً حيث ينتهي إلى مدرج طبيعي من التلال ، يعلوه تل مرتفع نحو خمسمائة قدم تنتشر على قمته الشوارع الضيقة ، والسطوح المنبسطة لقرية شرقية صغيرة هي الناصرة ، حيث قضى ابن الله[1] مع أمه زهاء ثلاثين عاماً ، اذ كانت موطنه وسكناه كل أيامه على الأرض ، ما خلا ثلاث أو اربع سنين . ولا شك أن قدمي يسوع الطاهرتين كثيراً ما سلكتا هذا الدرب الضيق الذي وصفناه .

« عاشت العذراء .. كعائلة ، ليس لديها من الأولاد غير يسوع .. طفل هادىء ينمو في النعمة وفي القامة ككل طفل ، وهي كحياة أية عائلة تسكن منزلاً من المنازل العادية في القرية ..

« وعلى مثل هذه الصورة البسيطة الوديعة الهادئة عاشت الأسرة المقدسة في الناصرة ..

« وكانت مريم كسائر النساء اللواتي في مكانتها تغزل وتطهي الطعام وتشترى الفاكهة ، وتذهب كل مساء إلى النبع المسمى الآن باسمها بئر مريم ، حاملة جرتها الخزفية على كتفها أو على رأسها .

« وكان يسوع يعمل . ويساعد .. ويذهب إلى المجمع في السبوت وفي أعياد الفصح كانوا يزورون اورشليم . »

هذه فقرات من ذلك المرجع ..

والذي احب أن أركز عليه هو :

---

(١) كذا في المرجع كما يعتقدون .

أولاً : « يعلوه تل مرتفع نحو خمسمائة قدم تنتشر عـلى قمته الشوارع الضيقة والسطوح المنبسطة لقرية شرقية صغيرة هي النـــاصرة ، حيث قضى .. مع أمه زهاء ثلاثين عاماً ، إذ كانت موطنه وسكناه ، كل أيامه على الأرض ، ما خلا ثلاث او اربع سنين » .

وهذا يلقي ضوءاً .. لماذا سجل كتاب الله سكني المسيح وأمه على تلك الربوة ؟

سجلها لأنها المكان الذي قضى فيه حياته كلها مع أمه ..

وقد حددها بأنها ربوة ، بأنها تل ، تقع عليه مدينة الناصرة .

ثم أعطاها علامة اخرى فقال : « ذات قرار ومعـين » ذات بئر جار بالمياه .

وهو البئر الذي كانت مريم تذهب فيه كل مساء الى النبع المسمى الآن باسمها بئر مريم !

أما ما الحكمة من اسكان « ابن مريم وأمه » في تلك الربوة ؟

فهي الاشارة على انهما رغم أن الله يقدر أن يسكنهما جنات وقصور .

الا أنه تعالى اختار لهما تلك الحيـــاة الكادحة .. ليكونا أسوة للعالمين .

وقد تنبهت الى دقيقة ، عميقة في قوله تعالى « ابن مريم » في الآية .

حيث افتتحها سبحانه بقوله :

« **وجعلنا ابن مريم وأمه اية** » .

وانما نبهني الى تلك الدقيقة . انـني قرأت بذلك المرجع قولهم :

« .. هي الناصرة ، حيث قضى [ابن الله] ، مع أمه زهـاء ثلاثـين عاماً .. »

وتعبير [ابن الله] هـذا تعبير سائد ، دأبهم في المراجع المسيحية ..

فقلت سبحان الله !!

انظر الى اعجاز القرآن العظيم ، انه يفتتح الآية بقوله :

« **وجعلنا ابن مريم** » .

ليؤكد للناس في كل زمان ومكان الى يوم القيامة ..

أن هـــذا الذي افتتنوا به ، ابن مريم .. وليس ، ابن الله .. كما يظنون ، انه .. ابن مريم ..

كأنه يراد أن يقال دائماً : انه ابن مريم ، وليس ابني !

سبحانك ! ما أعظم كتابك !



ابن مريم ؟

خلد ..

هذا التعبير .. « ابن مريم » ، في كتاب الله العزيز .. القرآن الكريم .

ليضاد به ، ذلك التعبير السائد في العقائد المسيحية « ابن الله » .

ولذلك يصر القرآن الكريم دائماً على تعبير « ابن مريم » .

ليكون تنبيهاً دائماً لجميع الناس الى حقيقة عظمى .

ان المسيح .. ابن مريم وحدها !

وانه ليس « ابن الله » !

وليس ابن يوسف النجار كما زعمت طائفة !

وانما حقيقته العظمى أنه « ابن مريم » .

وها هي عجائب النصوص المقدسة ، التي وردت في كتاب الله تعالى تؤكد تلك التسمية ، تأكيداً دائماً ، لا يتغير ..

وايدناه بروح القدس

قال تعالى :

« .. واتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس .. »

[البقرة ۸۷]

« البينات » أي المعجزات الباهرات الواضحات الدالات على نبوتـه وصدقه .

وما اكثر معجزاته عليه السلام .

ويكفي منها مولده ، فهو معجزة كبرى .

وخلقه من الطين كهيأة الطير فيكون طيراً باذن الله !

وابراء جميع الأمراض المستعصية وغير المستعصية !

واحياء الموتى .

والانباء بالغيب .

ثم رفعه الى السماء بعد وفاته وقد اختصه الله بتلك النهاية العجيبة من دون الأنبياء !

فحياته كلها عبارة عن معجزات من البداية الى النهاية .

ومعجزة اخرى ، انه عليه السلام ينزل عند اقتراب يوم القيامة من السماء الى الأرض مرة اخرى !

وقد كان اختصاصه عليه السلام بتلك العجائب ، سبباً دفع كثيراً من العقول الى الاعتقاد انه « ابن الله » .

أو انه هو « الله » نفسه تجسد في صورة انسان !

والحق أنه « ابن مريم » كما حدد شخصيته كتاب الله تعالى .

والاعجوبة من شخصيته انه ابن مريم .

ابن إمرأة .. ولد من غير مساس بشر .. من غير أب .. ولا تلقيح .

ثم كان منه ذلك العجب العجاب !!

« وأيدناه بروح القدس »

بجبريل عليه السلام .

حيث كان دائماً معه ، يوحي اليه ويؤيده ..

وقد ورد نص آخر ، في نفس السورة .. سورة البقرة .. يؤكد ذلك المعنى تأكيداً :

قال تعالى :

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ، واتينا عيسى ابن مريم البينات ، وايدناه بروح القدس .. »

[البقرة ٢٥٣]

هي هي الكلمات ..

« واتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس » !!

فهو عيسى « ابن مريم » .. دائماً ..

وهو المؤيد بالمعجزات الخارقة العجيبة « البينات » .

وهو المؤيد دائماً ، بروح القدس .. بجبريل .. والغالب عليه الروحانيات الفائقة !!

جبريل .. يذيع .. ان عيسى « ابن مريم » .. قبل ان يتكون عيسى ؟؟

وهذا الأمر أعجب وأعجب ..

إن جبريل قد أكد هذه الحقيقة .. قبل أن يتكون الجنين ..

وقبل أن تحمل فيه أمه مريم ..

أذاعها .. وأسمعها مريم ، لأن الله تعالى أمره أن يذيع هذا ، قبل أن يتكون الطفل .

قال تعالى :

« إذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين » .

[آل عمران ٤٥]

والذي يعنينا هنا .. هو تسجيل هذه الظاهرة .. الفذة .. العجيبة ..

ظاهرة لها دلالات عميقة جداً !!

إن الله تعالى يعلم .. وعلمه تعالى ، بما كان وما سيكون .. بديهي ..

يعلم ما سوف يحدثه معجزة خلق عيسى من غير أب . من فتنة في العقول ..

وأن ذلك سوف يدفع ملايين الى الاعتقاد انه « ابن الله » .

فأرسل جبريل ، إلى مريم يبشرها بكلمة منه .. بأمر منه ..
أن تحمل وتضع غلاماً ..
« اسمه المسيح عيسى ابن مريم » .

سيكون اسمه الذي يشتهر به المسيح عيسى .
ابن مريم ؟!!
سيكون ابنك أنت وحدك يا مريم ..
ليس له أب ..
ولذلك ينسب اليك !!

لتعلم مريم أن خلق الطفل الموعود .. سيكون بقدرة الله تعالى ..

ولا يكون من الطريق الطبيعي .. عن طريق أب طبيعي !!

ومع أن مريم ، الوالدة ، بُشرت .. قبل أن تحمل المولود ، بأنه « ابن مريم » .. فإن الملايين ، أبت إلا أن تعتقد ، أنه « ابن الله » !!

طائفة من اليهود .. يقولون على مريم .. بهتاناً عظيماً ؟؟

قال تعالى :

« وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما » .

« وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما

لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً . »

[النساء ١٥٦ – ١٥٩]

« وبكفرهم » وبكفر اليهود .. والمراد إما الكفر المطلق .. أو الكفر بمحمد ص ..

« وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » .

كذباً عظيماً .. يتحير من شدته وعظمـــه ، وتمادوا على ذلك غير مكترثين لقيام المعجزة بالبراءة .

أي : وقولهم على مريم بهتانـاً عظيماً .. لا يقادر قـدره صيت يسوءها – وحاشاها – إلى ما هي عنه في نفسها بألف الف منزل .

وقولهم ، على سبيل التبجح .

« انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله »

ذكروه بعنوان الرسالة تهكماً واستهزاءاً .

وقيل : إنهم وصفوه بغير ذلك من صفات الذم فغير في الحكاية .. فيكون من الحكاية لا من المحكي ..

وقيل : هو استئناف مدحاً له عليه الصلاة والسلام ، ورفعـاً لمحله ، وإظهاراً لغاية جراءتهم في تصديقهم القتلة ، ونهاية وقاحتهم في تبجحهم ..

« وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

قالوا : كان رجل من الحواريين ينافق عيسى عليه السلام .. فلما أرادوا قتله قال :

أنا أدلكم عليه .

وأخذ على ذلك ثلاثين درهماً ، فدخل بيت عيسى عليه السلام ، فرفع عليه السلام ، وألقى شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه ، فقتلوه ، وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام .

والمراد : وقع لهم تشبيه بين عيسى عليه السلام ومن صلب .

أو : (شبه لهم) من قتلوه بعيسى عليه السلام .

« وإن الذين اختلفوا فيه »

في شأن عيسى عليه السلام .. فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس :

فقال بعضهم إنه كان كاذباً فقتلناه حقاً .

وتردد آخرون فقال بعضهم : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ، وإن كان صاحبنا فأين عيسى .

وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا .

وقال من سمع منه – إن الله تعالى يرفعني إلى السماء – أنه رفع إلى السماء .

وقال بعض النصارى : صلب الناسوت وصعد اللاهوت .

« لفي شك منه » أي لفي تردد .

« ما لهم به من علم إلا إتباع الظن » لكنهم يتبعون الظن ..

ما لهم به من اعتقاد قاطع تسكن اليه النفس جزماً قاطعاً ..

« وما قتلوه يقيناً » وما قتلوا عيسى عليه الصلاة والسلام .

أي : ما قتلوه قتلا يقينا ، أو متيقنين .

« بل رفعه الله اليه » بل رفعه سبحانه اليه يقيناً .

أي : إلى سمائه .

والكلام رد وإنكار لقتله وإثبات لرفعه عليه الصلاة والسلام .

قالوا : وهو حي في السماء الثانية ، على ما صح عن النبي ص في حديث المعراج .

« وهو هنالك يقيم ، حتى ينزل إلى الأرض يقتل الدجال ويملؤها عدلاً كما ملئت جوراً

« ثم يحيا فيها أربعين سنة أو تمامها من سن رفقة

« وكان إذ ذاك ابن ثلاث وثلاثين سنة

« ويموت كما يموت البشر ، ويدفن في حجرة النبي ص ، أو في بيت المقدس . »

« عن أنس بن مالك

« عن مالك بن صعصعة

« أن نبي الله ص حدثهم عن ليلة أسرى به

« ثم صعد حتى أتى السماء الثانية

« فاستفتح

« قيل : من هذا ؟

« قال : جبريل

« قيل : ومن معك ؟

« قال : محمد

« قيل : وقد أرسل اليه ؟

« قال : نعم

« فلما خلصت ، فإذا يحيى وعيسى ، وهما ابنا خالة

« قال : هذا يحيى وعيسى ، فسلم عليهما

« فسلمت

« فردا

« ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح ، والنبي الصالح . »

[أخرجه البخاري]

نزول عيسى بن مريم .. عليهما السلام ؟؟

« قال رسول الله ص :

« والذي نفسي بيده

« ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم

« حكماً عدلاً

« فيكسر الصليب

« ويقتل الخنزير

« ويضع الجزية

« ويفيض المال ، حتى لا يقبله أحد

« حتى تكون السجدة الواحدة ، خيراً من الدنيا وما فيها .

« ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه :

« واقرؤا إن شئتم : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً . »

[أخرجه البخارى]

والظاهرة الفذة الفريدة ، التي نسارع الى تسجيلها هنا ، أن رسول الله ص حين تحدث عن عيسى ، عليه الصلاة والسلام ، قال :

« ليوشكن ان ينزل فيكم ابن مريم » !!

وذلك يدل دلالة واضحة أن عيسى « ابن مريم » فقط .

وان رسول الله ص يسجل ذلك ، كما سجله ربه تبارك وتعالى دائماً في كتابه العزيز .

وان ذلك نهج متعمد من الله ورسوله .

تأكيداً لحقيقة عيسى ، والغاء لتلك العقيدة التي رسخت واستقرت في عقول الملايين أن عيسى « ابن الله »

كما أن في تعبير رسول الله ص « ابن مريم » هنا ، مسارعة إلى دفع الشبهة التي قد تدخل الى العقول حين تعلم أن عيسى عليه السلام سوف ينزل إلى آخر الزمان من السماء الى الأرض مرة أخرى ، فتظن لذلك أن عيسى هو « ابن الله » كما يقولون ، وإلا فلماذا هو بالذات الذي يفعل تلك المعجزة العجيبة ؟

ولماذا هو بالذات الذي يرفع إلى السماء ويعيش فيها حتى ينزل إلى الأرض مرة أخرى قبل يوم القيامة ؟!

« والذي نفسي بيده » فيه الحلف في الخبر مبالغة في تأكيده

« ليوشكن » ليقربن سريعاً

« فيكم » خطاب لهذه الأمة

« حكماً » حاكماً عادلاً

« ويضع الجزية » وفي رواية غيره (ويضع الحرب)

والمعنى · إن الحرب تمتنع ، وبامتناعها ينعدم وجود الجزية ..

أي : يكون على الأرض السلام ، العام التام ..

« ويفيض المال » ويكثر المال

وفي رواية : « وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد »

وسببه كثرة المال ، ونزول البركات ، وتوالي الخيرات بسبب العدل وعدم الظلم

وحينئذ تخرج الأرض كنوزها ، وتقل الرغبات في اقتناء المال لعلمهم بقرب الساعة

« حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » لأنهم حينئذ لا يتقربون إلى الله إلا بالعبادات لا بالتصدق بالمال .

أي : إنها خير من كل مال الدنيا إذ حينئذ لا يمكن التقرب إلى الله تعالى بالمال

أو : ان الناس يرغبون عن الدنيا حتى تكون السجدة الواحدة أحب اليهم من الدنيا وما فيها

« وان من أهل الكتاب » ما من أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا ليؤمن به

عن الحسن : قبل موت عيسى ، والله انه لحي ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون ..

وذهب اليه أكثر أهل العلم ، ورجحه أبو هريرة وصار اليه فقراءته هذه الآية الكريمة تدل عليه

قالوا : فإن قلت :

ما الحكمة في نزول عيسى عليه الصلاة والسلام ، والخصوصية به ؟

قلت : فيه وجوه :

الأول : للرد على اليهود في زعمهم انهم قتلوه وصلبوه ، فبين الله تعالى ان بهم وانه هو الذي يقتلهم .

الثاني : لأجل دنو أجله ليدفن في الأرض ، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غير التراب .

الثالث . لأنه دعا الله تعالى لما رأى صفة محمد ص وأمته أن يجعله منهم ، فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حياً حتى ينزل في آخر الزمان ، ويجدد أمر الاسلام ، فيوافق خروج الدجال ، فيقتله

الرابع : لتكذيب النصارى وإظهار زيفهم

الخامس : ان خصوصيته بالأمور المذكورة لقوله ص : أنا أولى الناس بابن مريم ليس بيني وبينه نبي .. وهو أقرب اليه من غيره في الزمان وهو أولى بذلك . »

متى تنكشف الحقيقة ؟؟

أخرج ابن المنذر ، عن شهر بن حوشب قال :

قال لي الحجاج :

يا شهر ، آية من كتاب الله تعالى ما قرأتها إلا اعترض في نفسي منها شيء .

قال الله تعالى :

(وإن من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته) ..

وإني أوتى بالأسارى ، فأضرب أعناقهم ، ولا أسمعهم يقولون شيئاً !

فقلت : رفعت اليك على غير وجهها .

إن النصراني إذا خرجت روحه – أي إذا قرب خروجها كما تدل عليه رواية أخرى عنه –

ضربته الملائكة من قبله ومن دبره .

وقالوا : أي خبيث ، ابن المسيح ، الذي زعمت انه الله تعالى ، وانه ابن الله ، سبحانه ، وأنه ثالث ثلاثة : عبد الله ، وروحه ، وكلمته

فيؤمن به ، حين لا ينفعه إيمانه .

وان اليهودي ، اذا خرجت نفسه ، ضربته الملائكة من قبله ودبره .

وقالوا : اي خبيث ، ابن المسيح الذي زعمت انك قتلته ، عبدالله ،

وروحه .

فيؤمن به حين لا ينفعه الإيمان فإذا كان عند نزول عيسى آمنت له أحياؤهم ، كما آمنت به موتاهم

فقال : من اين أخذتها ؟

فقلت : من محمد بن علي

قال : لقد أخذتها من معدنها

قال شهر : وايم الله تعالى ، ما حدثنيه الا أم سلمة ، ولكني احببت ان اغيظه

تهديد ..

باهلاك المسيح ابن مريم .. وامه ؟

قال تعالى :

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن اراد أن يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السماوات والارض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير . »

[المائدة ١٧]

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم »

روي عن محمد بن كعب القرظي : انه لما رفع عيسى عليه الصلاة والسلام اجتمع طائفة من علماء بني اسرائيل فقالوا :

ما تقولون في عيسى ؟

فقال أحدهم . أو تعلمون أحداً يحيي الموتى الا الله تعالى ؟

فقالوا : لا

فقال : او تعلمون أحداً يبرىء الأكمه والأبرص الله تعالى ؟

قالوا : لا

قالوا : فما الله تعالى إلا من هذا وصنعه ؟

أي : حقيقة الالهية فيه .

وهذا كقولك : الكريم زيد

أي : حقيقة الكرم في زيد

وعلى هذا قولهم : إن الله تعالى هو المسيح . »

« قل » يا محمد .. إظهاراً لبطلان قولهم :

« فمن يملك من الله سريعاً »

فمن يمنع .. أو يستطيع أن يمنع ..

« إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً »

ومن حق من يكون إلهاً أن لا يتعلق به ، ولا بشأن من شؤونه ، بل بشيء من الموجودات قدرة غير ، فضلاً عن أن يعجز عن دفع شيء منها عند تعلقها بهلاكه .

فلما كان عجزه بيناً لا ريب فيه ظهر كونه بمعزل عما تقولون فيه .

والمراد بالاهلاك : الإماتة والإعدام مطلقاً ، لا عن سخط وغضب

وإظهار المسيح على الوجه الذي نسبوا اليه الألوهية حيث ذكرت معه الصفة في مقام الاضمار لزيادة التقرير والتنقيص على أنه من تلك الحيثية

بلا شبهة لأنه تولد من أم .

وتخصيص الأم بالذكر مع اندراجها في عموم المعطوف لزيادة تأكيد عجز المسيح .

ولعل نظمها في سلك من فرض اهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام ، بجعل خالقها أنموذجاً لحال بقية من فرض إهلاكه .

وتعميم ارادة الاهلاك مع حصول الغرض بقصرها على عيسى عليه الصلاة والسلام لتهويل الخطب ، وإظهار كمال العجز ، ببيان أن الكل تحت قهره ، وملكوته تعالى لا يقدر على دفع ما أريد به فضلاً عما أريد بغيره

وللايذان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات في كونه عرضة للهلاك .

كما أنه أسوة لهم في العجز ، وعدم استحقاق الألوهية .

« الله ملك السماوات والارض وما بينهما » .

أي : ما بين طرفي العالم الجسماني فيتناول ما في السماوات من الملائكة وغيرها ،

وما في أعماق الأرض والبحار من المخلوقات .

قيل : تنصيص على كون الكل تحت قهره تعالى وملكوته ، إثر الاشارة إلى كون البعض كذلك .

أي : له تعالى وحده ملك جميع الموجودات ، والتصرف المطلق فيها ايجاداً وإعداماً ، وإحياء وإماتة ، لا لا ، حد سواه استقلالاً ولا اشتراكاً .

فهو تحقيق لاختصاص الألوهية به تعالى إثر بيان انتفائها عما سواه .

وقيل : دليل آخر على نفي الوهية عيسى عليه الصلاة والسلام.

لأنه لو كان إلهاً كان له ملك السماوات والأرض وما بينهما.

وقيل : دليل على نفي كونه عليه الصلاة والسلام ابناً ببيان أنه مملوك لدخوله تحت العموم .

ومن المعلوم أن المملوكية تنافي النبوة .

« يخلق ما يشاء » .

جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والألوهية على وجه يزيح ما اعتراهم من الشبه في أمر المسيح عليه السلام لولادته من غير أب وخلق الطير ، وإبراء الأكمة والأبرص ، وإحياء الموتى .

أي : يخلق اي خلق يشاؤه

فتارة يخلق من غير أصل ، كخلق السماوات والأرض – مثلاً –

وأخرى من أصل – كخلق بعض ما بينهما – وذلك متنوع ايضاً

فطوراً ينشىء من اصل ليس من جنسه ، كخلق آدم ، وكثير من الحيوانات

وتارة من اصل يجانسه ، إما من ذكر وحده – كخلق حواء –

أو من انثى وحدها – كخلق عيسى عليه الصلاة والسلام –

أو منهما – كخلق سائر الناس –

ويخلق بلا توسط شيء من المخلوقات ككثير من المخلوقات .

وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر – كخلق الطير – على يد عيسى عليه السلام معجزة له ، وابراء الأكمة والأبرص .

فينبغي ان ينسب كل ذلك اليه تعالى لا من اجري على يده

« والله على كل شيء قدير »

تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

واتيناهُ .. الانجيل ؟

قال تعالى :

« وقفينا على اثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة ؛ واتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين »

[المائدة ٤٦]

« وقفينا على اثارهم واتبعناهم .. »

أي : أتبعنا النبيين الذين اسلموا .

« بعيسى ابن مريم » أرسلنا عيسى عليه السلام عقبيهم .

« مصدقاً لما بين يديه من التوراة » مقراً لما سبقه من التوراة

ـ « وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور » كما في التوراة ..

« ومصدقاً لما بين يديه من التوراة » أي : كما أن عيسى مصدقاً ، فإن الانجيل كذلك مصدقاً .

فالرسول وكتابه .. يصدقان . ما كان قبلهما .

« وهدى وموعظة للمتقين » جعل كله هدى ، بعدما جعل مشتملاً عليه ، مبالغة في التنبوه به بشأنه .

وتخصيص المتقين بالذكر ، لأنهم المهتدون بهداه ، والمنتفعون بجدواه ..

والذي نلاحظه هنا .. هو الاصرار على ذكر عيسى بقوله « بعيسى ابن مريم » ..

وهو نفس النهج الثابت في كتاب الله تعالى ..

دفعاً لذلك المفهوم الراسخ في عقول من زعم أنه « ابن الله » ..

في ايات متتابعات ..

يكرر قوله « ابن مريم » ؟؟

ولعل أعجب الظواهر من كتاب الله تعالى .

أنه سجل قوله « ابن مريم » في آيات متتابعات .. في سياق متتابع ..

وكان يمكن ذكر عيسى دون إتباعه بـ « ابن مريم » .. ولكن نلاحظ أن النهج الغالب هو ترديد « ابن مريم » مهما كان هناك من تكرار لاسم عيسى في السياق الواحد ..

أنظر :

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إلهٌ واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم .

« افلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم .

« ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون .

« قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم .

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل .

« لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون »

[المائدة ٧٢ — ٧٨]

هذه آيات متتابعات ..

ذكر فيها عيسى مقروناً بـ « ابن مريم » ثلاث مرات .

الأولى .. « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم

الثانية .. « ما المسيح ابن مريم إلا رسول .. »

الثالثة .. « على لسان داوود وعيسى ابن مريم .. »

وقد كان ممكناً جداً ، أن يذكر المسيح أو عيسى مجرداً من « ابن مريم » في المواضع الثلاث ..

إلا أن الاعجاز يتحقق أكثر وأكثر بذكر « ابن مريم » في المواضع الثلاث ..

تأكيداً لتلك الحقيقة العظمى .

أن عيسى ابن مريم وحدها .

وليس ابناً لله كما زعم الزاعمون !

والله يناديه .. يوم القيامة ..

يا عيسى ابن مريم ؟

وأعجب من ذلك كله ، أن الله تعالى ينادي عيسى عليه السلام ، يوم القيامة .. منسوباً إلى والدته مريم عليهما السلام !

قال تعالى :

« يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتهم قالوا لا علم لنا انك انت علام الغيوب .

« إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني وتبرىء الاكمه والابرص باذني وإذ تخرج الموتى باذني واذ كففتُ بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحرٌ مبين . »

[المائدة ١١٠]

تأمل النداء الجميل ؟

« يا عيسى ابن مريم » ؟

إن الله تعالى ينادي عيسى ..

يناديه منسوباً إلى أمه مريم عليها السلام .

متى هذا ؟

يوم يجمع الله الرسل ، أمام جميع الرسل ، وجميع الخلق !

يناديه الله تعالى « يا عيسى ابن مريم » .

ليعلم الخلق جميعاً .. أنه « ابن مريم » . وليس « ابن الله » كما زعم من زعم منهم !

ثم يذكره تعالى ، بما أنعم عليه في الدنيا : وعلى والدته .. مريم !

فيقول ، وما أحلى ما يقول سبحانه :

اذكر نعمتي عليك ، وعلى والديك ؟

جمال عجيب ينساب من ذلك الكلام العجيب !

ثم يأخذ سبحانه في تفصيل تلك النعم !

والخلائق كلهم يستمعون إلى حقيقة عيسى ، وحقيقة والدته !

والحواريون .. ينادونه :

يا عيسى ابن مريم ؟

ولعل ذلك من أعجب الأمور . التي تدل على أن الحواريين ، وهم تلامذة المسيح الأوائل ..

وهم أصحابه السابقون ، وأعلم الناس بحقيقته ..

كانوا ينادونه « يا عيسى ابن مريم » .

وذلك يؤكد تأكيداً عظيماً انهم جميعاً كانوا يعلمون علم اليقين أن

عيسى « ابن مريم » وليس « ابن الله » .

واليك النص المقدس الذي يؤكد ذلك تأكيداً قاطعاً :

قال تعالى :

« واذ أوصيت الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا امنا واشهد بأننا مسلمون .

« إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين

« قالوا نريد ان نأكل منها ويطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقنا ونكون عليها من الشاهدين

« قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا واخرنا واية منك وارزقنا وانت خير الرازقين

« قال الله تعالى اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني اعذبه عذاباً لا اعذبه احداً من العالمين .

[المائدة ١١١ — ١١٥]

ها هنا موضعان تكررت فيهما الظاهرة ..

الأول « إذ قال الحواريون : يا عيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك .. »

الثاني : « قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء .. »

الأولى .. فيها تسجيل أمر من أهم الأمور ..

ان الحواريين .. إن تلامذة المسيح .. ان أصحاب المسيح .. إن أعرف الناس بحقيقة المسيح .

إن الرجال الذين أخذ جميع المسيحيون ، في جميع الأجيال .. وجميع أنحاء العالم ، أصول دينهم عنهم ..

هؤلاء كانوا يعلمون يقيناً أن عيسى ابن مريم .. وليس « ابن الله » ولذلك نادوه :

يا عيسى ابن مريم !!!

والله يناديه .. يا عيسى ابن مريم ..

أأنت قلت للناس ..؟؟

وهذا موقف آخر .. من مواقف يوم القيامـــة الخالدة .. موقف ينادي الله تعالى فيه .. عيسى .. أمام الخلق أجمعين .. ذلك النداء الإلهي الرهيب !!

قال تعالى :

« وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذوني وامي إلهين من دون الله . قال : سبحانك ما يكون لي ان أقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك انت علام الغيوب .

« ما قلت لهم إلا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم ، وانت على كل شيء شهيد .

« إن تعذبهم فانهم عبادك ، وإن تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم . »

[المائدة ١١٦ - ١١٨]

تأمل النداء الإلهي ؟!

« يا عيسى ابن مريم » ؟؟!

ويلقي عليه تعالى سؤالاً رهيباً . خطيراً .. أمام الناس أجمعين .

أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟؟!

فماذا كان جواب عيسى ؟؟!

في بعض الآثار انه عليه الصلاة والسلام حين يقول له الرب عز وجل ما يقول ترتعد مفاصله ..

ثم يقول : « سبحانك » ..

تنزيهاً لك من أن أقول ذلك !

« ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق » .

لا ينبغي أن أقول قولاً لا يحق لي قوله أصلاً ، في وقت من الأوقات ..

ويمضي عيسى ... يتم جوابه ، الخالد . الذي سجلته الآيات الكريمات ؟!

والذي نلتقطه ، في هذا المقام ، هو نداء الله تعالى له ، أمام الخلق :

يا عيسى ابن مريم ..

مرة أخرى ، ينادى عيسى . من قبل الرب عز وجل ، بنسبته إلى مريم ..

تأكيداً لتلك الحقيقة من أمره .. انه ابن مريم .. وليس ابن الله » ..

والمسيح .. ابن مريم ؟؟

قال تعالى :

« وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يؤفكون .

« اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما امروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون »

[التوبة ٣٠ و ٣١]

ها هنا تسجيل لقولهم ..

وتسجيل للرد الصحيح .. على قولهم

وقالت النصارى : المسيح ابن الله ..

ذلك قول النصارى .

فماذا كان التصحيح الصادر من الله تعالى ؟

« المسيح .. ابن مريم »

مكنون فيها أن اعلموا ، أن المسيح ابن مريم ، وليس « ابن الله » ،

ليس ابني .

ثم تشمشع الحقيقة العظمى :

« وما أمروا إلا لتعبدوا إلهاً واحداً » !!

اسلوب اخر عجيب ؟؟.

يقول تعالى :

« .. وجعلناها وابنها اية للعالمين »

[الأنبياء ٩١]

ويقول :

« وجعلنا ابن مريم وامه اية »

[المؤمنون ٥٠]

في الأولى قال « وابنها » ..

وفي هذه « ابن مريم » ..

في الأولى : إشارة إلى أنه .. ابنها .. هي .. وليس « ابن الله » .

فاعقلوا يا أيها الناس !

وفي الثانية : إشارة صريحة إلى أنه « ابن مريم » ، وانها أمه ، والأمر محصور بينهما !

فلا تنسبوه الينا !!

وعندما ذكر .. الخمسة الكبار ..

نسبه هو بالذات الى امه ؟؟

قال تعالى :

« وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً »

[الأحزاب ٧]

حتى في هذا السياق

حين ساقت الآية الخمسة أولى العزم من الرسل

وهم مشاهير الرسل ، وكبارهم

وهو محمد صلى الله عليه وسلم

ونوح عليه السلام .

وابراهيم عليه السلام .

وموسى عليه السلام .

فإذا ما جاء ذكر عيسى ، عليه السلام ، قال : « وعيسى ابن مريم » !!

نفس النهج .. ونفس الأسلوب .. أسلوب ذكره دائماً منسوب إلى أمه .

لتزلزل تلك العقيدة الراسخة في عقول الملايين .. الذين يعتقدون أنه « ابن الله » !

ان هو الا .. عبد ..

انعمنا عليه ؟؟.

وهذا موضع من أروع المواضع ، التي كشفت حقيقة المسيح ، وحقيقة شخصيته ..

تلك الشخصية التي حيرت الملايين .

قال تعالى :

« ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون .

« وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلاً بل هم قوم خصمون

« ان هو الا عبد ، أنعمنا عليه ، وجعلناه مثلا ، لبني إسرائيل »

[الزخرف ٥٧ - ٥٩]

والذي نلتقطه هنا أمرين :

الأول . قوله سبحانه « ولما ضرب ابن مريم مثلا .. »

نفس الظاهرة .. انه يذكره هذه المرة ، كغيرها من المرات ، بقوله « ابن مريم » منفردة .

كأنه يراد أن يقال .. ان الواجب ان يشتهر عيسى بينكم بأنه « ابن مريم » !

حتى إذا قيل « ابن مريم » كان معلوماً لجميع الناس ، انه هو

عيسى .

والثاني : قوله « إن هو إلا عبد »

مجرد عبد ، من عبادنا .

هذه هي حقيقة شخصية المسيح

« إن هو إلا عبد »

ليس إلهاً من دون الله

ولا .. ابن الله .

فإن افتتنت عقولكم بالخوارق التي حدثت في تكوينه ، وميلاده ، ومعجزاته ، ووفاته ، ورفعه الى السماء .

فإليكم سر ذلك كله

« أنعمنا عليه » !

نحن الله ، أنعمنا عليه ، بذلك كله .

فما وجه العجب ، في ذلك ؟

هذا هو مفتاح شخصية المسيح عليه السلام !

وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه ..

رافة ورحمة ورهبانية ..؟؟

تلك هي خصائص الذين اتبعوا المسيح عليه السلام .

لأنه يدعو إلى تعاليم روحية سامية ، تورث قلوب أتباعـــه تلك الخصائص الجميلة .

وحين سجل كتاب الله ذلك ، ذكره بنسبته الى مريم ، والدته ، جرياً على سنن القرآن الخالد .

قال تعالى :

« ثم قفينا على اثارهم برسلنا ، وقفينـــا بعيسى ابن مريم واتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوهـــا حق رعـايتها ، فاتينـا الذين امنوا منهم اجرهم ، وكثير منهم ما يسمون »

[الحديد ٢٧]

أرأيت ؟؟

حتى هنا ، هو دائماً « ابن مريم » !!

ابن مريم .. يبشر ..
بأحمـد ؟؟

وفي هذ الموضع .

حين وقف المسيح عليه السلام .

يبشر في بني إسرائيل .

أعلن انه يبشر برسول يأتي من بعده اسمه « أحمد » .

في ذلك الموضع ، ذكره كتاب الله أيضـاً ، منسوباً إلى أمه ، مريم !

قال تعالى :

« واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين »

[الصف ٦]

وهكذا أعلن المسيح ، وحدة الدعوة ، ووحدة الرسل .

ووقف يبشر بسيد الرسل من بعده ، الذي اسمه أحمد ، صلى الله تعالى عليهما وسلم !

عيسى ينادي .. تلاميذه ..

قال تعالى :

« يا ايها الذين امنوا كونوا انصار الله ، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من انصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين امنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين »

[الصف ١٤]

وهكذا ، عندما نادى المسيح تلاميذه :

من أنصاري الى الله ؟

فأجابه التلاميذ : نحن أنصار الله .

نحن جميعاً ، نضحي بأنفسنا في سبيل الله

عندما سجل كتاب الله ذلك الموقف الخالد من الحواريين ذكره عليه السلام ، أيضاً ، منسوباً إلى مريم !

* * *

وبعد هذه مواضع متعددة ، من كتاب الله تعالى ، تتفق في ظاهرة ثابتة لا تتغير !

هي نسبة عيسى عليه السلام. إلى مريم والدته ..

ليكون ذلك دائماً تياراً قوياً من النور .

وإشعاعاً دائماً من السماء ..

ينير السبيل أمام الناس جميعاً ..

ان عيسى .. ان المسيح .. ابن مريم وحدها !

هي ولدته ، من غير أب ..

وليس الله أباً للمسيح ..

وليس المسيح ابناً لله .

وأن هذه الحقيقة ينبغي أن تتقرر ، وتتكرر .. دائماً كلما ذكر الناس شأناً من شؤون عيسى وامه .

وإذا تراكبت الظلمات ..

كان لزامـــاً ان يجعل الله للناس نوراً ، يبصرون به الحق من أمرهم ..

فكانت ادامة ذكر عيسى في كتاب الله تعـــالى بأنه « عيسى ابن مريم ».

هو هذا النور القوي الباهر الذي يضيء دائماً .. للقلوب .

فتبصر فيه أن الله تعالى عن أن يلد .. أو يولد .. أو يكون له ولد !!

وقالوا اتخذ الرحمن .. ولدا ..

واذاعها ..

الله تعالى ، بنفسه في آخر كتاب ، أنزله إلى الناس جميعاً ..

ذلك الكتاب ، الذي ليس كمثله كتاب ..

ذلك الذي .. اسمه .. القرآن الكريم ، العظيم ، المجيد ، العزيز ..
الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !

ان يقولون .. الا كذباً ؟

قال تعالى :

« وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا

« ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من افواههم إن يقولون إلا كذباً »

[الكهف ٤ و ٥]

هذا تحذير رهيب !

إن الله تعالى ينذر ؟

إنه سبحانه يحذر هؤلاء الذين قالوا المسيح « ابن الله » .

الذين قالوا اتخذ الله ولداً .

« ما لهم به من علم » انها قضية لا تثبت امام منطق ، ولا تستند الى علم المسيح .

« ولا لآبائهم » الذين تورطوا في هذه المزاعم وورثوها هؤلاء

« كبرت كلمة » إن قولهم المسيح ابن الله ، كلمة فاحشة

أي : عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء لما فيها من نسبته تعالى إلى ما لا يكاد يليق بكبريائه جل وعلا ..

كأنه قيل : ما اكبرها كلمة !

« تخرج من افواههم » صفة (كلمة) تفيد استعظام اجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم ، فإن كثيراً مما يوسوس به الشيطان وتحدث به النفس لا يمكن ان يتفوه به ، بل يصرف عنه الفكر ، فكيف بمثل هذا المنكر ؟!

« إن تقولون الا كذباً » ما يقولون في ذلك الشأن إلا قولاً كذباً ، لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق اصلاً ..

الجن تكشف الاكذوبة ؟

ولعل أعجب ما في تلك القضية الخطيرة أن عالم الجن ، كان منه مَن يعتقد أن المسيح « ابن الله » .

وأن نفراً منهم استمع إلى حقائق القرآن !

فلما سمعها ، ذهب سريعاً الى قومه .

وأعلن أنها أكذوبة كبرى ..

وأن ليس المسيح « ابن الله » . وأنها كانت عقيدة بعيدة عن الحق أشد البعد . .

قال تعالى :

« قل اوحى الي انه اتسمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً .

« يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً

« وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً

« وانه كان يقول سفيهنا على الله شططاً

« وانا ظننا ان لن تقول الانس والجن على الله كذباً .

[الجن ١ – ٥]

« قرآناً عجباً » كتاباً عجيباً بديعاً بليغاً

« يهدي إلى الرشد » يوجه الى الحق والصواب .

« وانه تعالى » وانه ارتفع وعظم .

« جدّ ربنا » جلاله ، او سلطانه ، او غناه .

« وأنه كان يقول سفيهنا » جاهلنا (ابليس اللعين)

« شططاً » قولاً مفرطاً في الضلال .

أرأيت ؟

ان نفراً من الجن .. سمعوا شيئاً من القرآن العجيب ..

فأدركوا منه تلك الحقائق العُلى .

أن القرآن اعجب كتاب سماوي . لأنه أقوى نور ، مركز ..
انزله الله تعالى الى الانسان ..

اشعاعه باهر قاهر ظاهر ..

اذا شع .. أضاء .

واذا أضاء ، ابصرت القلوب فوراً ، الحقـــائق .. التي لم تكن تبصرها .

وهذا ما أثار دهشة الجن ، عندما اكتشفوا سريعاً ان ليس المسيح « ابن الله » باستماعهم الى شيء من كتاب الله العجيب .

فصاحوا الى قومهم : انا سمعنا قرآناً عجباً !

وحددوا القضية : يهدي الى الرشد .

ان هذا القرآن يوجه الى الحق دائماً .

ولقد اكتشفنا منه تلك الحقيقة الغالية العالية : ان الله تعالى منزه عن الشبيه والنظير والولد .

ولذلك : لن نشرك بربنا أحداً .

مستحيل بعد أن سمعنا ما سمعنا أن نشرك بربنا أحدا !

انه واحد ، لا شريك له ولا ابن له ..

ولقد اكتشفنا حين استمعنا الى ذلك القرآن العجب : انه تعـــالى جد ربنا ..

أنه تعالى جلاله ، وتنزهت ذاته .

« ما اتخذ صاحبة » ما اتخذ زوجة

ما اتخذ مريم ، لتلد له ابنا ..

مستحيل ان يكون هذا ، لأنه تعالى منزه عن ذلك .

ثم يعلنون ان الذي تولى اشاعة تلك الأكذوبة في النـــاس .. وفي الجن ..

هو هذا السفيه الأكبر .. رأس كل ضلالة .. هو ابليس اللعين .

« وانه كان يقول سفيهنا على الله شططاً » كان يذيع قولا مفرطاً في الضلال .. حين سول ووسوس الى الناس .. ان يعتقدوا ان المسيح « ابن الله » .

وصنع لهم فلسفات ، تزين لهم ذلك الاعتقاد !

ثم أعلنت الجن أن الذي ورطهم في هذا الاعتقاد ، هو حسن ظنهم بالإنس والجن .

فظنوا أنه لا يجرؤ أحد من الناس ، او من الجن .. أن يقول على الله كذباً .

« وأنا ظننا » وأنا كنا نعتقد

« أن لن تقول » انه مستحيل ان يجرؤ احد على الكذب على الله .

« الانس والجن على الله كذباً » كنا نستبعد ذلك ..

أما وقد حدث فقد تعلمنا ، واكتشفنا الحقيقة ، فلن نشرك بربنـا أحداً بعد اليوم !

الاشعاع .. الباهر .. القاهر ؟

ويرسل .. القرآن العجيب ، اشعاعاً ، باهراً ، قاهراً ، ظاهراً ..

يتشعشع ، في كل مكان ، وكل زمان ..

فتبدو حقيقة « عيسى » تحت اشعاعاته ..

بسيطة جداً .. ليست أمراً عويصاً – كما ظن كثير من الذين به افتتنوا ..

فيقول وقوله الحق :

« ان مثل عيسى عند الله كمثل ادم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون .

« الحق من ربك فلا تكن من الممترين »

[آل عمران ٥٩ و ٦٠]

ذكروا أن وفد نجران :

« قالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

« مالك تشتم صاحبنا ؟!

« قال : ما أقول ؟

« قالوا : تقول : انه عبدالله !

« قال : اجل ، هو عبدالله ، ورسوله ، وكلمته القاها الى العذراء البتول

« فغضبوا

« وقالوا : هل رأيت انساناً قط من غير أب ؟

فإن كنت صادقاً فأرنا مثله .

« فأنزل الله تعالى هذه الآية » .

« إن مثل عيسى عند الله » في تقديره وحكمه

أو : فيما غاب عنكم ولم تطلعوا على كنهه .

« كمثل آدم » ، كصفته ، وحاله العجيبة ، التي لا يرتاب فيها مرتاب

« خلقه من تراب » باعتبار ان في كل الخروج عن العادم ، وعدم استكمال الطرفين ،

ويحتمل أنه جيء بها ، لبيان أن المشبه به ، أغرب وأخرق للعادة !

فيكون ذلك أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته

أي : ابتدأ خلق قالبه من تراب !

« ثم قال له كن فيكون »

أي : صير بشراً فصار

والتعبير بالمضارع مع أن المقام مقام المضي ، لتصوير ذلك الأمر الكامل بصورة المشاهد الذي يقع الآن إيذاناً بأنه من الأمور المستغربة العجيبة الشأن ،

وفي الآية دلالة على صحة النظر والاستدلال لأنه سبحانه احتج على النصارى !

وأثبت جواز خلق عيسى عليه السلام من غير أب ، بخلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم !

« الحق من ربك » هو الحق

« فلا تكن من الممترين » الشاكين

خطاب له (ص)

ولا يضير فيه ، استحالة وقوع الاجتراء منه ، عليه الصلاة

والسلام !

وذكروا في هذا الأسلوب فائدتين :

إحداهما : انه (ص) إذا سمع مثل هذا الخطاب تحركت منه الأريحية فيزداد في الثبات على اليقين نوراً على نور !

وثانيهما : أن السامع يتنبه بهـذا الخطاب على أمر عظيم ، فينزع وينزجر عما يورث الامتراء !

لأنه (ص) ، لا تصل اليـه الأماني ، إذا خوطب بمثله ، فمـاذا يظن بغيره ؟؟

ففي ذلك زيادة ثبات له ، صلوات الله تعـالى وسلامه عليه ، ولطف بغيره ! .

هذا هو الاشعاع القاهر ، الباهر ، الظاهر !

إذا شع .. وضحت في أنواره الساطعة حقيقة عيسى ..

وانها حقيقة بسيطة جداً ..

أنه مجرد آية من آيات الله تعالى .

وأن آدم أعجب من عيسى .

فإن ادم خلق من غير أب ولا أم ، فما وجه الغرابة ان يخلق عيسى من جهة الأم فقط ؟!

إنه إشعاع قاهر لا يقاوم !

مستحيل .. ان يقول عيسى .. كونوا عباداً لي ؟

ثم يرسل كتاب الله تعالى ، إشعاعـا اخر ، أقوى .. وأعلى ..

وأشد انفجاراً !

إشعاع فيه ناموس إلهي ، خطير ، جداً جداً جداً .

قال تعالى :

« ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبـــوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون

« ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين ارباباً أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون »

[آل عمران ٧٩ و ٨٠]

هذا هو الناموس الرهيب ..

هناك استحالة أن يحدث هذا ..

حين يعلن الله تعالى أن هناك استحالة حدوث شيء من الأشياء ، فاعلم انه الحق فوراً .

واليك دليل ذلك !

« ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله » .

تنزيه لأنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام ، إثر تنزيه الله تعالى عن نسبة ما افتراه أهل الكتاب اليه .

وقيل : تكذيب وردّ على عبدة عيسى عليه السلام .

عن أبي عباس : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبـار من اليهود والنصارى من أهل نجران ، عند رسول الله (ص) ، ودعاهم إلى

الاسلام قالوا :

« أتريد يا محمد ، أن نعبدك ، كما يعبد النصارى ، عيسى ابن مريم ؟!

فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس : أو ذاك تريد منا يا محمد ؟؟

فقال رسول الله (ص) : معاذ الله أن نعبـــد غير الله ، أو نأمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني .

« فأنزل الله تعالى الآية »

وعن الحسن ، قال :

« بلغني أن رجلا قال :

« يا رسول الله ، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، أفـلا نسجد لك ؟

« قال : لا ، ولكن أكرموا نبيكم ، واعرفوا الحق لأهله ، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله تعالى .

« فنزلت » .

« ما كان لبشر » ما يصح ، ما ينبغي ، لا يجوز لأحد .

وعبر بالبشر إيذاناً بعلة الحكم ، فـإن البشرية منافية للأمر الذي أسندوه إلى أولئك الكرام عليهم الصلاة والسلام .

« كونوا عباداً » هو هنا من العبادة .. ولم يقل عبيـــداً لأنه من العبودية ..

وهي لا تمتنع أن تكون لغير الله تعالى .

ولذا يقال : هؤلاء عبيد زيد ؛ ولا يقال : عباده ، « لي »

أي . عباداً كائنين لي .

« من دون الله » متجاوزين الله تعالى إشراكاً وإفراداً .

« ولكن كونوا ربانيين » ما كان لبشر أن يقول ذلك لكن يقول كونوا ربانيين .

أي : كونوا عابدين للرب وحده

« بما كنتم تعلمون الكتاب » كونوا كذلك بسبب مثـــابرتكم على تعليمكم الكتاب ودراستكم له .

والمطلوب أن لا ينفك العلم عن العمل ، إذ لا يعتد بأحدهما دون الآخر ..

« وبما كنتم تدرسون » درس الكتاب أي كرره

للاشعار باستقلال كل من استمرار التعليم ، واستمرار القراءة .

وقدم تعليم الكتاب على دراسته لوفور شرفه عليها .

أو لأن الخطاب الأول لرؤسائهم ، والثاني لمن دونهم

هذا هو الناموس الرهيب .

هناك إستحالة أن يدعــو بشر آتاه الله .. الكتاب .. الكتاب السماوي بما فيه من نور ..

« والحكم » والنور .. الذي يحمله في قلبـــه ، فيكشف له الحقائق كشفاً .

« والنبوة » ويجعله نبياً .. في أعلى مقامات الفهم عن الله .

مستحيل لبشر .. آتاه الله تلك الثلاث الكبرى ، التي هي أكبر عطايا يمنحها الله لبشر !

« ثم يقول » .. « للناس »

« كونوا عباداً لي » .

اعبدوني أنا .

« من دون الله » اعبدوني كما تعبدون الله .

أي : أن يجعل نفسه إلهاً آخر .

أي : أن يزعم لكم أنه « ابن الله » .

فعليكم أن تعبدوه !

« ولكن كونوا ربانيين » كونوا عابدين للرب سبحانه وحده .

هذا هو ما يصدر عن الأنبياء .. ومستحيـــل أن يصدر عنهم غير ذلك .

« ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً » مستحيل أن يحدث هذا من نبي ..

مستحيل أن يأمر المسيح باتخاذ الملائكة أرباباً .

كما يزعمون أن « الروح القدس » هو أحد الأقانيم الثلاثة .

والحقيقة ان الروح القدس ملك من الملائكة .

وليس إلهاً ..

« والنبيين » ومستحيل أن يأمر عيسى باتخاذه .. ابناً لله » أو إلهاً من دون الله .

مستحيل أن يحدث هذا منه !

لأن معنى هذا أنه يدعو الى أشد أنواع الظلام .

« يدعو الى الكفر قوماً » كانت فطرتهم مستعدة للتوحيد .

« أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » .

بعد أن خلقناكم أطفالاً على الفطرة ، فطرة التوحيد ؟

هذا هو النـــاموس الرهيب .. العجيب .. الذي أذاعـه رب العـالمين !

إشعاع قاهر باهر ظاهر !

ولقد أرسل الله تعالى إشعاعاً يهز الناس هزاً .

إشعاعاً لو انفجرت أنواره في القلوب .

لذابت من هوله وقوته .

في تلك الآيات ، من سورة مريم ، الخالدة .

فقال عز من قائل ، من تلك السورة :

- ٨٨ -

وقالوا اتخذ الرحمن ولداً

« وقالوا » وقال اليهود ، وقال النصارى ، وقال المشركون .

« اتخذ الرحمن ولداً »

قال اليهود : عزير ابن الله .

وقال النصارى : المسيح ابن الله .

وقال المشركون : الملائكة بنات الله .

الذين قالوا هذه العظيمة .. قوم مظلمون . ظلماتهم بعضها فوق بعض ..

فإن مقتضى الألوهية أن لا تخضع للحوادث ، والتشابه .

فالذين اعتقدوا أن شيئاً ما ، مهما كانت قيمته ، ولداً لله ، انما دلوا على أنهم لا يعقلون شيئاً .

وسوف نشهد في الآيات القادمات الحق من تلك القضية الكبرى .

والرد الإلهي عليها .

- ٨٩ -

لقد جئتم شيئاً اداً

« لقد جئتم شيئاً » رد لمقالتهم الباطلة ، وتهويل لأمرها ، بطريق الالتفات من الغيبة الى الخطاب ، المنبيء عن كال السخط ، وشدة الغضب ، المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح ، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة .

« اداً » عجباً .

أو : عظيماً منكراً .

أي : فعلتم أمراً عجباً ، أو منكراً شديداً .

وقريء : أدّاً

وهو بنفس المعنى .

تكاد السماوات يتفطرن منه

تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا .

« تكاد السماوات » توشك السماوات .

والكيدودة .. من مقاربة الشيء .

« يتفطرن منه » يتشقق منه .

« وتنشق الأرض » وتوشك الأرض أن تتصدع .

« وتخر الجبال » وتوشك الجبال أن تسقط وتنهد وتنهدم .

« هدّاً » سقوطاً .

والمعنى : ان هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمهـا بحيث لو تصور بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام ، وتفرقت أجزاؤهـا من شدتها .

أو : أن حق تلك الكلمة لو فهمتها تلك الجمادات العظام أن تنفطر وتنشق وتخر من فظاعتها .

أو : الكلام كفاية عن غضب الله تعالى على قائل تلك الكلمـة ، وأنه لولا حلمه سبحانه وتعالى لوقع ذلك وهلك القائل وغيره .

أي : كدت أفعل ذلك غضباً لولا حلمي .

وعن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما قال :

إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال ، وجميع الخلائق ،

إلا الثقلين ، وكدن أن يزلن منه تعظيماً لله تعالى .

وفيه إثبات فهم لتلك الأجرام والأجسام لائق بهن .

والجمهور على أن الكلام لبيان بشاعة تلك الكلمة على معنى أنهـا لو فهمتها الجمادات لاستعظمتها وتفتتت من بشاعتها .

اشعاعات

لمـــاذا . توشك أن تنفطر السماوات . وتنشق الأرض .. وتخر الجبال هدّا ؟

لماذا ؟

أمن أجل أن قالوا : اتخذ الرحمن ولداً . يحدث هذا كله ؟

نعم .. نعم ..

لأن ادعاء الولد لله .. معناه إبطال الألوهية ..

ومتى بطلت الألوهية .. تلاشت العوالم كلهـــا .. وذهبت .. وزالت ..

لماذا ؟!

لأن السماوات قائمة بالله ..

والأرض قائمة بالله ..

والجبال قائمة بالله ..

وكل موجود قائم بالله ...

فإذا تخلخل الأصل .. انعدمت الفروع ..

وادعاء الولد لله .. معناه باختصار نقص هذا الإله .. لأنه يحتاج إلى التناسل .. إلى حفظ وجوده عن طريق التناسل ..

معناه أنه محتاج إلى غيره ليتكامل .

والمحتاج إلى غيره يستحيل أن يكون الها ..

وبالتالي يستحيل أن يحفظ وجود غيره .. أو يمسكه أن يزول .. فالآن تقرر معنى جميلا .. عميقا .. عميقا .

كأنه يراد أن يقال : إن هؤلاء بزعمهم الولد لله .. إنما يبطلون الألوهية .. من حيث لا يشعرون ..

ومتى بطلت الألوهية .. ذهبت الأجرام التي تقوم بإذنه .. وتنتظم بنواميسه وأمره ..

تفطرت هذه السماوات .. بما فيها من ملايين النجوم العظيمة .. وتساقطت ..

وانشقت هذه الأرض ، وذهبت ..

وسقطت هذه الجبال وانهدت ..

وبالجملة تلاشى كل شيء .. لأنه لم يعد هناك إله يمسكها .

وهذا اثبات برهاني على بطلان زعمهم ..

ثم ماذا ؟

اعتقادي أن الآية فيها أسرار وراء هذا كله ..

لعل الله أن يفتح منها ما شاء ، على من شاء من عباده ..

- ٩١ -

أن دعوا للرحمن ولداً

« أن دعوا للرحمن ولداً » لأن سموا للرحمن ولداً ..

أو : نسبوا للرحمن ولداً .

ووضع الرحمن موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم بالتنبيه على أن كل ما سواه تعالى إما نعمة أو منعم عليه ، وإن ذلك ممن هو مبدإ النعم ، وموالي أصولها وفروعها ؟

اشعاعات

لو صحت مزاعمهم .. لبطلت الألوهية فوراً ، ومتى بطلت الألوهية بطلت الكائنات القائمة بقيامها .

فتتفطر السماوات ، وتنشق الأرض ، وتنهد الجبال .

- ٩٢ -

وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولداً

والمراد : لا يليق به سبحانه اتخاذ الولد ، ولا يتطلب له عز وجل ، لاستحالة ذلك في نفسه ، لاقتضائه الجزئية ، او المجانسة ، واستحالة كل ظاهرة .

- ٩٣ -

ان كل من في السماوات والارض

الا اتي الرحمن عبداً

« ان كل من » ان كل الذي ..

« في السماوات والأرض » ما منهم من أحد من الملائكة والثقلين .

« الا آتى الرحمن عبداً » الا وهو مملوك له تعالى ، يأوي اليه عز وجل بالعبودية ، والانقياد لقضائه وقدره ، سبحانه وتعالى .

فالإتيان معنوي .

وقرىء : آت .

اشعاعات

انها ناموس النواميس ..

« إن كل من في السماوات والارض » .

جميع الذين في السماوات والأرض ..

جميع أهل السماء ، وجميع أهل الأرض ..

« الا أتى الرحمن عبداً » ..

الا محكوم بنواميس الله ، لا يستطيع ان يفلت منهـا لحظة واحدة .

النواميس الالهية ، أو القوانين الطبيعية بلغة عصرنا .

تنتظمهم جميعاً .. بها يحيون ..

وبها يموتون .. وبها يقومون .

تسري ، وتجري فيهم ..

وهم لا يشعرون ..

فالعبودية أصل عام في جميع الكائنات ..

لا يخرج عنها كائن ما ..

من أصغر ذرة ، بل من جزيىء الذرة ، بل مما هو أصغر من ذلك ، الى اكبر كائن في الوجود ..

كلهم خاضعون لنواميس الله ، منظمون عليها ..

وهذه هي العبود العامة ..

والخضوع العام ..

وهي غير العبودية الاختيارية ..

التي تتحقق من المؤمنين باختيارهم الحر ، التي يترتب عليه دخولهم الجنة .

ولننظر بعد ذلك ، احكام تلك النواميس ، ودقتها التي هي فوق التصور حين يقول سبحانه :

- ٩٤ -

لقد احصاهم وعدهم عداً

« لقد أحصاهم » حصرهم ، وأحاط بهم ، بحيث لا يكاد يخرج احد منهم من حيطة علمه ، وقبضة قدرته جل جلاله .

« وعدهم عداً » وعد أشخاصهم ، وأنفاسهم ، وأفعالهم ، فإن كل شيء عنده تعالى بمقدار .

اشعاعات

هذا هو الاحصاء الالهي ..

أو تلك هي الألوهية في جلالها ، وأحكامها ، واتقانها ..

هناك حصر عام ، شامل ، لكل سكان السماوات والأرض ..

ولكل الكائنات فيها ..

ولكل ذرة من ذراتها ..

وهناك تعداد عام ، لكل أشخاصهم ، وسكناتهم ، وحركاتهم ، وما كان وما يكون منهم .

فانظر عظمة الألوهية ، وانظر جلالها ..

وتفكر في عجائب شؤنها !!

وكلهم اتيه يوم القيامة فرداً

« وكلهم » اي كل واحد .

« آتيه » في (آتيه) من الدلالة على اتيانهم كذلك البتة ما ليس في يأتيه ، فلذا اختير عليه .

« يوم القيامة فرداً » منفرداً من الاتباع ، والأنصار ، منقطعاً اليه تعالى غاية الانقطاع ، محتاجاً الى اعانته ورحمته عز وجل .. فكيف يجانسه ويناسبه ليتخذه ولداً ، وليشرك به ؟!

أو : كل واحد من أهل السماوات والأرض ، العابدين والمعبودين ، آتيه عز وجل منفرداً عن الآخر .

فينفرد العابدون عن الآلهة التي زعموا انها انصار او شفعاء .

والمعبودون عن الأتباع الذين عبدوهم .

وذلك ينتفي عدم النفع ، وينتفي بذلك المجانسة لمن بيده ملكوت كل شيء ، تبارك وتعالى !

فانظر تلك الآيات الخالدات ..

من سورة مريم .

تتلألأ تلك الحقيقة العليا !

وذلك الناموس الالهي الثـابت ..

الذي لا تبديل له ولا تحويل !

« ان كل من في السماوات والأرض الا آتى الرحمن عبداً !

ما من أحد في السماوات ، أو الأرض ..

ما من أحد في الكون .. كان أو سيكون .

الا آتى الرحمن عبداً !

وما المسيح ، الا عبد .. من عباد الله !!

شخصية مريم ؟

لا .. ولن توجد ، امرأة .

أثارت عقول الناس ، مذ وجدت ، الى يوم القيامة ..

ومثل هذه ، التي اسمها .. مريم !

وسوف نرى الأعاجيب ، من أمرها .. عند الأديان السماوية الثلاث !

فمن أهل دين ، هم طائفة من اليهود يرمونها بأقبح ما ترمى به فتاة طاهرة ..

الى اهل دين .. هم المسيحيون

يرونها .. أماً للاله !

الى اهل دين ، هم المسلمون ..

يرونها ، صديقة طاهرة .. وأماً للمسيح عليه السلام .

الا أن المسلمين ، يختلفون فيها : هل هي نبية أم ليست نبية ؟

ومريم ، بين هؤلاء جميعاً ، تقف في مقامها الخالد .. الذي اراده الله تعالى !

فماذا قال هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء ، في تلك الشخصية العجيبة ؟!

لماذا زعمت طائفة من اليهود .. ما زعمت ؟

لقد سجل الله تعالى ، تلك العظيمة التي صدرت عنهم .

حيث نسبوا اليها .. وحاشاها ..

أنها جاءت بالمسيح من طريق غير شرعي !!

سجله عليهم حيث قال :

« وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . »

[النساء ١٥٦]

« وقولهم » وزعمهم

« على مريم بهتاناً عظيماً » لا يقادر قدره حيث نسبوها – وحاشاها – الى ما هي عنه في نفسها بألف الف منزل .

وتمادوا على ذلك غير مكترثين بقيام المعجزة بالبراءة .

والبهتان الكذب الذي يتحير من شدته وعظمه .

متى كان ذلك ؟

قال تعالى :

« فأتت به قومها يحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا .

« يا اخت هارون ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا .

« فأشارت اليه .. »

[مريم ٢٧ - ٢٩]

« فأتت به قوماً تحمله » ، فجاءت مع مولودها ، حاملة اياه .

وقيل : هموا برجمها ، حتى تكلم عيسى عليه السلام .

« قالوا » قال بنو اسرائيل

« يا مريم لقد جئت » لقد فعلت .

« شيئاً فرياً » جريمة عجيبة ، كنا لا نتصور صدورها منك ؟

وفرياً : عظيما ، عجيباً .

« يا أخت هارون » يا سلالة النبي العظيم هارون .

يا من جئت الى الهيكل ، وعشت فيه – كما تخصص نسل هارون ليكهنوا للرب تبارك وتعالى .

أهكذا تكون الجريمة ؟

« ما كان ابوك امرأ سوء » ما كان أبوك ، عمران رجلا زانياً .

« وما كانت أمك بغياً » وما كانت امك امرأة تجترىء الفاحشة .

بل كانا من قمة خيار الناس .

وهـذا تقرير ما جاءت به فرياً .

أو : تنبيه على ان ارتكاب الفواحش من اولاد الصالحين افحش .

« فأشارت اليه » اي الى المولود ، ان كلموه ..

« قالوا » منكرين لجوابها .

روى انها لما أشارت اليه ان كلموه ، قالوا : استخفافها بنا أشد من زناها !

وحشاها .

لقد وجه اولئك اليها افظع اتهام !

هذه فكرة ، عن مزاعم طائفة من اليهود في مريم ؟
انهم لا يقفون عند اعتبارها مجرد امرأة كأي امرأة
بل يرمونها رميا منكراً !

كيف يراها المسيحيون

يرونها شيئاً عظيماً عظيما عظيما !

كما يقولون :

« نعظمك يا أم النور الحقيقي ونمجدك ايتهـــا العذراء القديسة والدة الإله » .

العذراء مريم في اللاهوت الارثوذكسي [1]

أولاً : والدة الإله
ثانياً : دائمة البتولية
ثالثاً : أم النور
رابعاً : قديسة في كل شيء
خامساً : أم جميع الأحياء سيدتنا
سادساً : شفاعتها .
سابعـاً : تكريمها .

---

(١) هذا الفصل مختصر عن كتاب « العذراء القديسة مريم » .

اولا والدة الاله :

إن هذا ليس مجرد اسم ، ولا هو لقب تكريمي للعذراء ، وإنما هو تعريف لاهوتي يحمل حقيقة حية .. والنطق بهذه الكلمة مدخل أساسي للايمان الأرثوذكسي ، وبدونه لا يمكن أن يقبل أحد في الايمان .

ويقول القديس غريغوريوس :

« إن ابن الله اتخذ لنفسه جسداً من العذراء ، لذلك حق للعذراء أن تدعى والدة الإله »

وهذا ما يقوله القديس أغسطينوس :

« عذراء وهي حامل ، وعذراء وهي والدة ، وعذراء وهي مائتة »

ثانياً : دائمة البتولية .

كلمة العذراء بالعبرية تأتي بنطقين :

النطق الأول بتولة Batulâ

والنطق الثاني ألما âlma

أما كلمة بتولة ، فتعني فتاة « عذراء منفصلة » ، لم تعرف رجلا قط .

أما كلمة ألما فتعني فتاة عذراء ناضجة كاملة الأنوثة لم تنجب أولاداً ولكن يحتمل أن تكون مخطوبة لرجل ، ومرادفها Neanis التي تنطق بالعربي ننوصة (أي عروسة) ولكن لم تأت قط بمعنى فتاة متزوجة لا في الكتاب المقدس ، ولا في أي كتابات أخرى ، من أي نوع .

وفي سفر اشعياء جاءت العذراء بالنطق الثاني :

« ها العذراء (ألما) تحبل وتلد ابناً .. »

.. والآية المعجزة في الواقع ذات طرفين متعلق أحدهما بالآخر ، فلأن العذراء لا يمكن أن تحبل وهي عذراء إلا من الله ، لذلك فالمولود لا يمكن أن يكون إلا ابن الله .

.. وهذا يعني أنها ظلت عذراء كما هي كل أيام حياتها . وفي هذا تلميح ضمني محتشم ان ابن الله كما دخـــل أحشاءها ، هكذا خرج ، بسر يفوق الطبيعة ، أي كما كان الحبل بتولياً هكذا كان الميـــلاد بتولياً أيضاً .

وقد صار ذلك عقيدة مدعمة بالقانون الكنسي لسلطة الجامع :

« وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء » .

(قانون الايمان) وبالتالي أصبح جزءاً لا يتجزأ من الايمان المسيحي الذي تعيشه الكنيسة .

ولكن ليس مضمون البتولية في اللاهوت الأرثوذكسي عبـارة عن قامة بشرية معينة أو مجرد حالة جسدية ، ولكنها قامة روحية قبل كل شيء ، وحالة داخلية تتعلق باعماق النفس « لأن الجسد (وحده) لا يفيد شيئاً » يقول الرب

فموضوع البتولية الدائمة ليس هو منطق حوار جسدي محض يتخذ أصوله من ولادة مريم وحفظ جسدها وحسب ، إنما يتخذ كيانه أيضاً من تأصل حالة عفة سرية إرادية وترفع عن أي شهوة جســـدية ، أو رغبة حسية أنانية ، مع هدوء في القلب والعقل وتكامل في العواطف . وفي كلمة واحدة هو التمتع بحالة « نقاوة قلبيـة » بفعل النعمة المالئة الكيان الداخلي :

« السلام لك أيتها الممتلئة نعمة »

وهي الحالة الفائقة التي تؤهل الانسان لرؤية الله :

« طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله » .

فالبتولية عند العذراء كانت تملأ كيانها العقلي والقلبي والنفسي عن مشيئة حرة وأيضاً مع الجسد .

والعذراء كرست كيانها البتولي لله دفعـــة واحدة وقدمت نفسها كلاً لله : « هوذا أنا أمة للرب » في رضا وتسليم نهائي يفيد حالة بتولية ستدوم إلى ما لا نهاية ، لأن دعوة الله للعذراء واختيارها لتحبل من الروح القدس وتلد ابناً للعلي ، وهي عذراء كما هي ، هو بواقع الأمر حالة التصاق بالله : « روح واحد » أو هي زيجة بتولية على مستوى إلهي لا يمكن الرجـوع فيها ، او الانفصـــال : « لأن القدير » صنع بي عظائم » .

وحالة المولود منها « يكون عظيمـاً وابن العلي يدعى » ، يفيد مدى التهيئة اللازمة لا للحبل به فقط ، بل وميلاده وتربيته ، أي أن البتولية إن كانت لازمة كحالة روحية داخلية للعذراء لتحبـــل « بكلمة الله » ، فالبتولية بهذه الصفة أيضاً . وبالضرورة لازمة لميلاد « قدوس الله » وإرضاعه وتربيته .

« العذراء تهتم فيما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً » .

إن كيان المسيح الالهي وحالة طهارته وبتوليته الفائقة عن الوصف ، وهو ابن ، يستلزم أمومة مشابهة بصورة ما على أي حال .

ومن المحقق ان دعم عقيدة التجسد الالهي ، أي ألوهيـــة المسيح يرتكز أول ما يرتكز على معجزة ميلاد المسيح الفائقة للطبيعة المتضمنة

في دوام بتولية العذراء .

[تعـالوا ، يا جميع الشعوب ، لنطـوبها .. لأنها صـارت أماً ، وعذراء معاً .]

ثالثاً : ام النور لقب كنسي للعذراء مريم .

حينما لقب بجمع أفسس العذراء القديسة مريم « بأم النور الحقيقي » فتح المجال للتأمل في عجيبة هذه العذراء بصفتها حاملة لشمس البر الذي أشرق جسدياً من العذراء .

وهنا تتجه التسبيحة إلى اعتبار أن العذراء « حاملة شمس البر » أو « أم النور الحقيقي »

« أنت مستحقة أكثر من جميع القديسين أن تطلبي عنـــا ، أيتها الممتلئة نعمة ، لأنك مرتفعة جداً أكثر من رؤساء الآباء ومكرمة أفضل من الأنبياء .. »

« الله هو نور وهو ساكن في النور وتسبحه ملائكة النور ! والنور أشرق من مريم » .

[صارت بطنك له عرشاً ، وجسمك احتواه باتساعه الذي يفـوق السماء .]

رابعاً : قديسة في كل شيء .

من جميع المبادىء الواردة . يتبين بغاية الوضوح أن مريم العذراء قطعاً ليست موضوع عبادة في الكنيسة وإنما هي موضوع تكريم حقيقي واعتراف بالجميل الذي أدته للبشرية عوض خطيئة حواء .

فالكنيسـة الأرثوذكسية لا تعتقد أن مريم ولدت بطبيعة مقدسة -

لتقبل الحلول الالهي – وتصبح بالتالي مستحقة العبادة باستحقاق طبيعتها الفريدة هذا خطأ لأنه يخرجها خارج دائرة البشرية .

لكن الكنيسة تؤمن ان الروح القدس لما حــل عليها قدسها إعداداً للتجسد وذلك بأن الروح القدس ملأ كل موضع فيها .

« والروح القدس ملأ كل موضع منك : نفسك وجسدك يا مريم يا أم الله » .

وبذلك صارت قديسة في كل شيء .

ثم ان قداستها ابتدأت بعد الاختيار لا قبله :

« الآب اختــارك ، والروح القدس حلّ عليــك ، والابن تنازل وتجسد منك » .

غير انها تقــدست في كل شيء ، بعمــل الروح القدس ، وظلت كذلك .

أما جسد المسيح الذي أخذه منها فهو لم يتقدس بواسطة العذراء وإنما بعمل الروح القدس وباتحاد لاهوته . لذلك فالكنيسة تقطع بعدم عبادة مريم قطعاً فاصلاً ، وذلك واضح من أقوال الآباء ونكتفي الآن بقول فاصل للقديس أمبروسيوس :

[وبدون شك يعبد الروح القدس ، لكن لا ينحرف أحــد بهذه العبادة نحو العــــذراء مريم ، لأن مريم كانت هيكلاً للإله ، وليست إله الهيكل ، لذلك فإنه (الرب .. يسوع) وحده الذي يعبد وهو في هيكله] .

. أما كل ما تقدمه الكنيسة الأرثوذكسية للعذراء مريم في تقليدها الأصيل ، فهو تكريمها وتعظيمها وتطويبها وتبريكها ملتزمة نفس الحل

التي نطق بها الملاك جبرائيل ، ونسيبتها اليصابات ، وكما نطقت العذراء نفسها وبفمها :

« تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي لأنه نظر إلى اتضاع أمته . فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني ، لأن القدير صنع بي عظائم واسمه قدوس .. »

خامساً : ام لجميع الأحياء .

كما أن حواء أم كل حي ، لأن منها ولد كل بني آدم إلا أنها بمخالفتها وصية الله فقدت هذا اللقب وصارت أم كل ميت ، فإن العذراء مريم لما ولدت المسيح الاله المتجسد آدم الثاني رئيس الحياة ، ورأس الخليقة الجديدة صارت به أماً لكل حيّ (في الحياة الأبدية) ، أي أماً لكل الأعضاء المتحدة بجسد المسيح ، لأن جسد المسيح محي أي يعطي الحياة ..

[فإذا كانت حواء الأولى خالفت الله إلا أن الأخرى (مريم) إقتنعت بأن تكون مطيعة لله حتى تصير العذراء مريم محامية أو شفيعة حواء ، وهكذا كما أن الجنس البشري وقع في العبودية للموت بعذراء ، كذلك بعذراء أنقذ . أي أن المخالفة العذراوية عادلتها في الناحية الأخرى طاعة عذراوية .]

ولكن من المدهش حقاً ، اننا نجد الكنيسة تستخدم في الواقع العملي اصطلاحاً آخر لمخاطبة العذراء وهو « السيدة سيدتنا كلنا » : بدل أمنا ، وذلك في جميع المواقف التي نضطر فيها إلى مخاطبتها شخصياً . ولعل هذا البديل يحمل شعوراً مضاعفاً بالتبجيل للعذراء مع الاحتفاظ بتواضعنا !

سادساً : شفاعة العذراء مريم :

إذا عدنا للانجيل نجد انها كانت أول سمع وعمل بالكلمة فعلاً ، وأول من أكملت رسالته بدقة وأمانة وشجاعة وطاعة ومبادرة واهتمام إلى آخر لحظة .

. والآن ان كان أي من كان يسمع كلمة الله ويعمل بها يستحق أن يدعى أماً للمسيح أو أخاً له ، فماذا يكون قدر استحقاق أمه التي ولدته إن هي سمعت كلامه وعملت به وأطاعت رسالتـــه بهذه الدقة والمواظبة والأمانة الفريدة ؟

وأمومة العذراء مريم على هذا الأساس أمومتان : أمومة صارت من الله بالاختيار والتقديس ، وأمومة حازتها بالاجتهـــاد والايمان وتتميم الوصية « من يصنع مشيئة أبي الذي هو في السماوات هو .. أمي » وكل منهما تجمل الأخرى فائقة فوق مستويات البشر .

واضح إذن أن لدى مريم العذراء شيئاً يفوق إمكانية كل إنسان بل وكل ملاك من هنا ننظر اليها كشفيعة .

... إذن فعمل مريم في الشفاعة ينحصر ويتحدد بصورة واضحة ، في اتجاهين :

الأول : مجرد تقديم حاجتنا أمام المسيح ، بثقة ودالة وإيمان الأمومة ..

.. أما الاتجاه الثاني ، فهو قدرتها على توجيه قلبنا سراً إلى وصايا المسيح .

[مريم حازت من النعمة ليس ما يكفيها أن تكون بتولاً طاهرة فحسب ، بل بالقدر الذي يؤهلها (بالشفاعة) ان تمنح البتولية للآخرين

الذين من أجلهم قد جاءت .]

ويلاحظ في الصلوات الكنسية أن التوسلات التي يقدمها الشعب أثناء التسبحة أو أثناء القداس تنقسم قسمين :

١ - توسلات للعذراء مريم والملائكة ويوحنا المعمدان ، وهذه يقال لها شفاعة :

إشفعي فينا أيتها العذراء ، إشفعوا فينا أيها الملائكة ، إشفع فينا يا يوحنا الصابغ السابق .. لكي يغفر الله لنا خطايانا ، او بشفاعاتهم يا رب اغفر لنا خطايانا .

٢ - توسلات لباقي القديسين جميعاً ويقال لها طلبات : اطلبوا عنا لكي يرحمنا الله ، أو بصلواتهم يا رب اغفر لنا خطايانا .

ومن هذا يتبين اتجاه العقيدة الأرثوذكسية في الشفاعة ، إذ أن الكنيسة تعتمد في نوع توسلها الشفاعة بالأشخاص على مقدار تزكية الله لهم .

سابعاً : تكريم العذراء مريم :

من كل ما تقدم يتبين بوضوح أن ليس للعذراء مريم استعلان خاص غير استعلان المسيح تجاه البشرية ، ولا هي تطالبنا بعبادة دون عبادة المسيح ، ولا هي منوطة من قبل المسيح أن تدخل كنائبة عنه لتتعامل معنا ، لأن النص الذي حددته هي صريح « مهما قال لكم (هو) فافعلوه » .

وهكذا يظهر خطأ الألفاظ التي اندست حديثاً خلسة في كتبنا الطقسية .. التي تصور العذراء مريم كأقنوم إلهي وتدعوها مخلصة البشرية ورجاءنا الوحيد ومنعمة على الناس وغافرة الخطيئة وفاتحة باب الفردوس

وغالقة باب الجحيم ، لأن هذه كلها أعمال قام بها الأقنوم الإلهي الثاني بمفرده فقط .

وهذه الألفاظ لم ترد قط .. في كتابات الآباء الأوائل ، على وجه الاطلاق ..

رمهما اتخذت هذه الألفاظ من أشكال تقوية واعتبارات وعبادات ، لدى الكنائس الأخرى ، فهي في كنيستنا ، تظهر بوضوح ، انها « زيادات » .

كنيستنا تقدم السلام للعذراء بخشوع كثير واحترام كما قدمه لها الملاك لكن بغير عبادة .

كنيستنا تكرم العذراء كأم الاله تكريماً يفوق كل كرامة لأي ملاك أو رئيس ملائكة وفوق الشاروبين والسارافيم أيضاً ، لكن تكريمنا لها يحدده قولها :

« هوذا أنا أمة (عبدة) الرب » .

فهي في تقليدنا « عبدة وأم » .

فكأم الاله نكرمها ونعظمها جداً ونتشفع بها ، وكعبدة لا يمكن أن نعبدها ..

كنيستنا تجد العذراء لا « كملكة السماء » تجلس بمفردها .. ولكن كملكة تقف عن يمين الملك « قامت الملكة عن يمين الملك » حيث الوقوف لا يؤهلها للمساواة ، كما في حالة المسيح ، حينما جلس عن يمين أبيه ..

افرحى يا مريم

مقام العذراء مريم في الكنيسة الأرثوذكسية فوق انه يحتل مكانة شعبية كريمة جداً

فهو أيضاً مصدر فرح للكنيسة كلها ، بشخصية العذراء القديسة محبوبة للغاية .

وهذا يبدو واضحاً في كل المناسبات التي تلتئم فيها الكنيسة لتعيد لأي ذكرى من ذكرياتها المقدسة ..

والشعب في ابتهاجه بالعذراء القديسة مريم يمثل صورة صحيحة واقعية لحقيقة سماوية استعلنت مرة جهاراً برؤيا وشهادة عندما ظهرت جوقات الملائكة وجمهور جند السماء يهللون فوق العذراء الحاملة لطفلها الالهي في بيت لحم .

فلاول مرة يخرج الملائكة عن صمتهم وتصبح الأرض مسرحاً طاهراً لائقاً لظهورهم مسبحين وفرحين ومبشرين : « بفرح عظيم » و « سلام على الأرض » و « سرور في الناس » .

- السلام لمريم الملكة ،

- الكرمة غير الشائخة التي لم يفلحها أحد ، ووجد فيها عنقود الحياة ،

- ابن الله تجسد بالحقيقة من العذراء ، وولدته .. وخلصنا وغفر لنا خطايانا .

- وجدت نعمة ابنها العروس .

- كثيرون نطقوا بكرامتك لأن كلمة الآب أتى وتجسد منك ،

- أية امرأة على الأرض صارت أماً لله سواك ،

- وأنت امرأة أرضية صرت أماً للباري ،

- نساء كثيرات نلن كرامات وفزن بالملكوت لكن لم يبلغن كرامتك

- أيتها الحسنة في النساء !

- أنت هي البرج الذي وجدوا فيه الجوهر عمانوئيل الذى أتى وحل في بطنك ،

- فلنكرم بتولية العروس التي بغير شر النقيـــة القديسة في كل شيء والدة الإله مريم ،

- ارتفعت اكثر من السماء وأنت مكرمة أكثر من الأرض وكل المخلوقات لأنك صرت أماً للخالق ،

- أنت بالحقيقة الخدر النقي الذي للمسيح العريس حسب الأصوات النبوية

- اشفعي فينا يا سيدتنا كلنا والدة الإله مريم ام يسوع المسيح ليغفر لنا خطايانا .]

انتهى

* * *

هذه اقتباسات سريعة من أحد المراجع المسيحية ، تقدم فكرة سريعة لازمة .. في بحث شخصية مريم ..

كيف يراها الاسلام

جاء الإسلام .. رأياً وسطاً ، في شخصية مريم ..

ففصل في تلك القضية العظمى ، وحكم فيها حكم الحق ..

وأجاب على ذلك السؤال الخطير إجابة عجيبة :

ما هي حقيقة شخصية مريم ؟!

وأمهُ .. صديقة ؟..

قال تعالى :

« ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف تبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون . »

[المائدة ٧٥]

« ما المسيح ابن مريم إلا رسول ، استئناف مسوق لتحقيق الحق الذي لا محيد عنه .

وبيان حقيقة حاله عليه السلام ، وحال أمه .

بالإشارة اولاً إلى ما امتازوا به من نعوت الكمال حتى صارا من أكمل أفراد الجنس .

وأخيراً إلى الوصف المشترك بينهما وبين أفراد البشر ، بل أفراد الحيوانات .

وفي ذلك استنزال لهم بطريق التدريج من رتبة الاصرار

وإرشاد إلى التوبة والاستغفار .

أي هو عليه السلام مقصور على الرسالة لا يكاد يتخطاها إلى ما يزعم النصارى فيه عليه الصلاة والسلام .

« قد خلت من قبله الرسل » ما هو إلا رسول كالرسل الخالية قبله .

خصه الله تعالى ببعض الآيات كما خص كلا منهم ببعض آخر منها .

ولعل ما خص به غيره لأعجب مما خصه به .

فإنه عليه الصلاة والسلام إن أحيا من مات من الأجسام التي من شأنها الحياة .

فقد أحيا موسى عليه الصلاة والسلام الجماد .

وإن كان قد خلق من غير أب ، فآدم عليه الصلاة والسلام قد خلق من غير أب وأم .

فمن أين لكم وصفه بالألوهية !؟

« وأمه صديقة » اي وما أمه أيضاً إلا كسائر النساء اللواتي يلازمن الصدق .

أو التصديق ويبالغن في الاتصاف به .

فمن أين لكم وصفها بما ترى عنه أمثالها ؟

والمراد بالصدق هنا صدق حالها مع الله تعالى .

وقيل : صدقها في براءتها مما رمتها به اليهود .

والمراد بالتصديق تصديقها بما حكى الله تعالى عنها بقوله سبحانه : (وصدقت بكلمات ربها وكتبه) .

واستدل بالآية من ذهب إلى عدم نبوة مريم عليها السلام .

وذلك انه تعالى شأنه إنما ذكر في معرض الاشارة الى بيان أشرف مالها « الصديقية »

كما ذكر الرسالة لعيسى عليه الصلاة والسلام في مثل ذلك المعرض .

فلو كان لها عليها السلام مرتبة النبوة لذكرها سبحانه دون الصديقية لأنها أعلى منها بلا شك .

نعم الأكثرون على انه ليس بين النبوة والصديقية مقام .

كانا .. يأكلان الطعام ؟

« كانا يأكلان الطعام » إشارة إلى كونهما كسائر افراد البشر بل افراد الحيوان في الاحتياج إلى ما يقوم به البدن من الغذاء فالمراد من أكل الطعام حقيقته

وروى ذلك عن ابن عباس .

وقيل : هو كناية عن قضاء الحاجة لأن من أكل الطعام احتاج إلى النفض وهذا امرٌ ذوق في افواه مدعي الوهيتهما .

لما في ذلك مع الدلالة على الاحتياج المنافي للألوهية بشاعة عرفية وليس المقصود سوى الرد على النصارى في زعمهم واعتقادهم .

قيل : والآية في تقديم مالهما من صفات الكمال ، وتأخير ما لأفراد جنسهما من نقائص البشرية ، على منوال قوله تعالى : (عفا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم) حيث قدم سبحانه العفو على المعاتبة له صلى الله تعالى عليه وسلم لئلا توحشه مفاجأته بذلك .

« انظر كيف نبين لهم الآيات » تعجيب من حال الذين يدعون لهما الربوبية ولا يزعون عن ذلك بعدما بين لهم حقيقة الحال بياناً لا يحوم حوله شائبة ريب .

والخطاب إما لسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام

أو : لكل من له اهلية ذلك .

أي : انظر كيف نبين لهم الدلائل ، القطعية الصادقة ببطلان مـا

يقولون ..

« ثم انظر كيف يؤفكون » كيف يصرفون عن الإصاخة اليها والتأمل فيها لسوء استعدادهم ؟

وتكرير الامر بالنظر للمبالغة في التعجب .

و (ثم) لإظهار ما بين العجبين من التفاوت .

اي : ان بياننا للآيات أمر بديع في بابه ، بالغ لأقصى الغايات من التحقيق والايضاح .

وإعراضهم عنها – مع انتفاء ما يصححه بالمرة وتعاضد ما يوجب قبولها أعجب وابدع !

اتعبدون .. ما لا يملك ؟

ثم يقول تعالى :

« قل اتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم .

« قل يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل واضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل .

[المائدة ٧٦ و ٧٧]

« قل اتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً » امر بتبكيتهم إثر التعجب من احوالهم .

والمراد بما لا يملك عيسى ، او : هو وامه عليهما الصلاة والسلام .

والمعنى : اتعبدون شيئاً لا يستطيع مثل ما يستطيعه الله تعالى من

البلايا ، والمصائب ، والصحة ، والسعة ؟

او : اتعبدون شيئاً لا استطاعة له اصلاً ؟

فإن كل ما يستطيعه البشر بايجاد الله تعالى واقداره عليه لا بالذات ؟

وإنما قال سبحانه (ما) نظراً الى ما عليه المحدث عنه في ذاته ، واول امره ، وأطواره ، توطئة لنفي القدرة عنه رأساً .

وتنبيها على انه من هذا الجنس .

ومن كان بينه وبين غيره مشاركة وجنسية كيف يكون الها ؟

« والله هو السميع العليم » اتعبدون غير الله تعالى ، وتشركون بـــه سبحانه ما لا يقدر على شيء ، ولا تخشونه .

. والحال انه سبحانه وتعالى المختص بالاحاطة التامة بجميع المسموعـات والمعلومات التي من جملتها ما انتم عليه من الاقوال الباطلة والعقائد الزائفة ا

او : اتعبدون العاجز ، (والله هو) الذي يصح ان يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم ؟

ولن يكون كذلك الا وهو حي قادر على كل شيء ، ومنـــه الضر والنفع والمجازاة على الأقوال والعقائد ان خيراً فخير وان شراً فشر ؟

لا تغلوا .. في دينكم ؟

« قل يا اهل الكتاب » خطاب للنصارى خاصة لأن الكلام معهم .

او لفريقي اهل الكتاب .

« لا تغلوا في دينكم » لا تجاوزوا الحد .

وهو نهي للنصارى عن رفع عيسى عليه الصلاة والسلام عن رتبة الرسالة

الى ما تقولوا في حقه من العظمة .

وكذا عن رفع امه عن رتبة الصديقة الى ما انتحلوه لها عليها السلام

ونهى لليهود على تقدير دخولهم في الخطاب عن وضعهم له عليه السلام .

وكذا لأمه عن الرتبة العلية الى ما افتروه من الباطل والكلام الشنيع .

وذكرهم بعنوان اهل الكتاب للايماء الى ان في كتابهم ما ينهاهم عن الغلو في دينهم .

« غير الحق » غلو غير الحق .. اي باطلا وتوصيفه به للتوكيد .

والغلو في الدين غلوان : حق ، وهو ان يفحص عن حقائقه ، ويفتش عن اباعد معانيه ، ويجتهد في تحصيل حججه كما يفعله المتكلمون من اهل العدل والتوحيد .

وغلو باطل ، وهو ان يجاوز الحق ويتخطاه بالاعراض عن الأدلة ، واتباع الشبه كما يفعله اهل الأهواء والبدع .

او : لا تغلوا مجازين الحق .

« ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل » .

وهم اسلافهم وائمتهم الذين قد ضلوا من الفريقين .

او : من النصارى قبل مبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في شريعتهم

والاهواء : جمع هوى ، وهو الباطل الموافق للنفس .

والمراد : لا توافقوهم في مذاهبهم الباطلة التي لم يدع اليها سوى الشهوة ، ولم تقم عليها حجة .

« واضلوا كثيراً » اناسا كثيراً ممن تابعهم ووافقهم فيما دعوا اليه من البدعة والضلالة .

او : اضلالاً كثيراً .

« وضلوا » عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم .. ووضوح محجة الحق وتبين مناهج الاسلام .

« عن سواء السبيل » عن قصد السبيل الذي هو الاسلام .

شخصية مريم ؟

والآن ما هي شخصية مريم .. كما اذاعهـا الله تعالى .. في كتابه الكريم ؟

هي : « وأمه صديقة » ..

مريم .. صديقة ..

هذه هي شخصية مريم .. محددة ..

كما حددها الله تبارك وتعالى ..

فما هي شخصية المسيح ؟

هي « ما المسيح ابن مريم الا رسول .. »

المسيح .. رسول ..

فدخلت من قبله الرسل .. كأي رسول مروا في التاريخ قبله ..

اذا مريم .. صديقة ..

والمسيح .. رسول ..

هذا هو التحديد الدقيق .. الحقيق .. بالتأمل العميق .. من كل انسان في هذه الحياة .. الى يوم القيامة ..

تحديد يبطل زعم الذين زعموا انها اتت بابنها من الفحشاء !

ويبطل كذلك زعم الذين زعموا انها « ام الإله » ..

ويعلن حقيقتها عليها السلام .. يـذيع انها .. صِدّيقة ..

فما معنى صِدّيقة ؟!

لعل معناها بلغة المسيحيين « قديسة » !!

وما أقرب اللفظين « صديقة » و « قديسة » !!

فإن قال المسيحيون : هي العذراء القديسة الطاهرة :

قلنا : نعم . فقد قال الله تعالى « وأمه صدّيقة » ..

وإن قالوا : هي أعظم من كل قديسة .. وأفضل من كل امرأة .

قلنا . نعم .. فقد قال الله تعالى فيها « يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين »

وإن قالوا : هي أم النور :.

قلنا : نعم .

نعم .. هي أم النور .. باعتبار انها ام عيسى .. عبدالله ورسوله .. الذي جعله الله نوراً وهدى للناس ..

وليست ام النور بمعنى أم الاله .. الذي هو نور .. أشرق منها ..

وإن قالوا : هي « أم الاله »

قلنا : لا .. ثم لا .. ثم لا ..

قال ربنا .. وقوله الحق :

« ما المسيح ابن مريم إلا رسول ، قدخلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ..

فليس المسيح إلهاً .. ولا ابن الله .

وإنما هو عبد .. ورسول .. ليس إلا .

وليست مريم أما للإله .. وإنما هي عبدة ، وأماً لعيسى .. عبدالله ورسوله ..

وإن قالوا : ما دليلكم على ان عيسى مجرد عبد ورسول لله ؟

وما دليلكم على ان مريم مجرد عبدة ، لله .. وأماً لابنها المسيح الذي هو عبد الله ؟!

قلنا : قوله تعالى :

« كانا يأكلان الطعام » .

ذلك الدليل العجيب .. الذي يتلألأ بالإعجاز الرهيب !!

كانا يأكلان الطعام !!

إن الناس أجمعين يعترفون بتلك الظاهرة ..

إن المسيح كان يأكل ويشرب ككل إنسان ..

وإن مريم ، كانت تأكل وتشرب ككل إمرأة ..

هذه حقيقة بسيطة جداً .. لا ينبغي ان تغيب عن احد !!

إن المسيح عيسى ابن مريم ، كان يأكل ويشرب ..

هذه حقيقة يعترف بها كل إنسان ..

فهل في الوجود من عاقل يقول ان الإله يأكل ويشرب ؟!

وإن مريم ، كانت تأكل وتشرب ..

فهل في الأرض من عاقل يقول : إن « أم الاله » كانت تأكل وتشرب ؟!

وأذاعها الله تعالى .. إشعاعاً قاهراً باهراً ظاهراً ..

ليملأ ما بين السماء والأرض نوراً :

« كانا يأكلان الطعام » ..

ليزلزل تلك العقـول الراكدة ، التي استنـامت إلى فلسفاتها ، التي ابتدعتها ..

وظنت انها حقائق ، وما هي بحقائق .. إن هي إلا أهواء .. قوم قد ضلوا ، وأضلوا ، وضلوا عن سواء السبيل !!

ذلك هو الحكم في القضية ، أخطر وأعظم قضية .

قضية اختلف فيها أهل الأرض ، وما زالوا يختلفون .

وظلت أمواج خلافاتها ، تموج بالبشر موجاً .

حتى بعث الله .. آخر رسله .. محمداً ، صلى الله تعالى عليه وسلم ..

وأوحى اليه ، آخر كتبه ، التي أنزلها من السماء .

وأنزل في ذلك الكتاب ما يحدد حقيقة المسيح .. وحقيقة امه .. مريم .. عليهما الصلاة والسلام !!

– تم –

الفهرس

صفحة

اني وضعتها انثى

ايهم يكفل مريم ؟

صفحة

يا مريم انى لك هذا ؟

هنالك دعا زكريا ربه

فنادته الملائكة

صفحة

صفحة

صفحة

جبريل يعلن اليها الخطوط العريضة
من شخصية المسيح

فنفخنا فيها من روحنا

صفحة

ابن مريم

صفحة

وقالوا اتخذ الرحمن ولداً

شخصية مريم

صفحة

